التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

لِلقُرْآنِ الكَرِيمِ

سُورَةُ الأَنْفَالِ

إِعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مُرَاجَعَةٌ وَتَدْقِيقٌ

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدَّمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر سابقًا

الإِشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السَّقَّاف

المجلَّد السَّابع

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٣٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مؤسسة الدرر السنية - القسم العلمي

التفسير المحرر - سورة الأنفال - المجلد السابع/ مؤسسة الدرر السنية - :

القسم العلمي - الظهران، ١٤٣٧هـ

٣٣٦ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨١٥٤-٤٠-٣

١- القرآن - سورة الأنفال - تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٣٧/١٠٥٤٩

رقم الإيداع: ١٤٣٧/١٠٥٤٩

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨١٥٤-٤٠-٣

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية - المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ - جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣ / فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ - بريد إلكتروني nashr@dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ

سُورَةِ الأنْفالِ

سُورة الأنفالِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بِسُورةِ الأنفالِ(١).

فعن سعيدِ بنِ جبيرٍ، قال: (قلتُ لابن عباس: سورةُ الأنفالِ، قال: نزلتْ في بدرٍ)(٢).

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الأنفالِ مَدَنيَّةٌ(٣) بَدْريَّةٌ(٤)، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك(٥).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ سُورةِ الأنفالِ:

---

(١) سُمِّيَت بذلك لِذكْرِ لَفظِ الأنفالِ في أوَّلِها، ولم يُذكَر في سورةٍ غَيرِها، ولأنَّها بَيَّنَت حُكمَ الأنفالِ، وهي الغنائِمُ. يُنظَر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٢٢)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٤٥)، ومسلم (٣٠٣١).

(٣) يُنظَر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣)، ((تفسير الثعالبي)) (٤/ ٣٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٤٩).

وقيل: سورةُ الأنفالِ مَدَنيَّةٌ إلَّا سبْعَ آياتٍ، مِن قَولِه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى آخِرِ سَبعِ آياتٍ؛ فإنَّها نزلت بمكَّةَ. وقيل: غير آيةٍ، وهي قَولُه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. وقيل: مَدنيَّةٌ غيرَ قَولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فإنَّها نزَلَت بالبيداءِ في غَزوةِ بَدرٍ قبل القِتالِ.

يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٢٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٦)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٤٧).

(٤) يُنظَر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٦٠).

(٥) ممَّن حكَى الإجماعَ على ذلك ابنُ الجوزيِّ، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظَر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ١٨٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٢٢)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ١٤٤).

بيانُ أسبابِ النصرِ، وبعضِ أحكامِ الجهادِ(١).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

من أبرَزِ مَوضوعاتِ سُورةِ الأنفالِ:

١- بَيانُ أحكامِ الأنفالِ- وهي الغَنائِمُ- وقِسمَتِها ومصارِفِها، والأمرُ بِتَقوى اللهِ في ذلك وغَيرِه، والأمرُ بطاعةِ اللَّهِ ورَسولِه في أمرِ الغَنائِمِ وغَيرِها، وأمرُ المُسلمينَ بإصلاحِ ذاتِ بَينِهم، وأنَّ ذلك مِن مُقَوِّماتِ معنى الإيمانِ الكامِلِ.

٢- وصفُ المؤمنينَ الصادقينَ، وتبشيرُهم بالدرجاتِ الرفيعةِ والمنازِلِ العاليةِ.

٣- ذِكرُ الخُروجِ إلى غزوةِ بَدرٍ، وكراهيةِ فريقٍ مِن المؤمنينَ لذلك، وما لَقِيَه المؤمنون في هذه الغزوةِ مِن نَصرٍ وتأييدٍ مِن الله، ولُطفِه بهم، وامتنانِه عليهم، والأمرِ بالاستعدادِ لِحَربِ الأعداءِ، والأمرِ باجتماعِ الكَلِمةِ، والنَّهيِ عن التَّنازُعِ، والأمرِ بأن يكونَ قَصدُ النُّصرةِ للدِّينِ نُصْبَ أعيُنِهم، ووصْفِ السَّبَبِ الذي أخرَجَ المسلمينَ إلى بدرٍ، ومَواقِعِ الجيشَينِ، وصفاتِ ما جرى مِن القِتالِ.

٤- توجيهُ عدةِ نداءاتٍ لِلمُؤمنينَ؛ وإرشادُهم في كلِّ واحدٍ منها إلى ما فيه خَيرُهم وفَلاحُهم.

٥- تذكيرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بنِعمةِ اللهِ عليه؛ إذ أنجاه مِن مَكرِ المُشركينَ به بمكَّةَ.

٦- ذكرُ ما عليه المشركون مِن جهلٍ وعنادٍ.

٧- بيان أنَّ مُقامَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بمكَّةَ كان أمانًا لأهْلِها، فلمَّا فارَقَهم فقد حَقَّ عليهم عذابُ الدُّنيا؛ بما اقتَرَفوا مِن الصَّدِّ عن المسجِدِ الحَرامِ.

---

(١) يُنظَر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢١٤)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي(٢/ ١٤٦)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٥١).

٨- دعوةُ المشركينَ للانتهاءِ عَن مُناوأةِ الإسلامِ، وإيذانُهم بالقتالِ، والتَّحذيرُ مِن المُنافِقينَ.

٩- تفصيلُ أمرِ الغنائِمِ، وبيانُ ما أُجمِلَ في أوَّلِ السُّورةِ.

١٠- ذكرُ أحكامِ العَهدِ بين المُسلمين والكُفَّارِ، وما يترتَّبُ على نَقضِهم العهدَ، ومتى يَحسُنُ السَّلْمُ.

١١- بيانُ أحكامِ الأسْرَى، وأحكامِ المُسلِمينَ الذين تخلَّفُوا في مكَّةَ بعد الهِجرةِ، ووَلايَتِهم، وما يترتَّبُ على تلك الوَلايةِ.

* * *

الآيات (١-٤)

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١) إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿**ٱلْأَنفَالِ**﴾: أي: الغَنائِم، واحِدُها نَفَل؛ والنَّفْل الزِّيادَة، والأنفالُ مِمَّا زَاد الله هذه الأُمَّةَ في الحلالِ؛ لأنَّه كان مُحرَّمًا على مَن كان قبلَهم، وأصلُ (نفل): يدلُّ على إعطاءٍ(١).

﴿**ذَاتَ بَيْنِكُمْ**﴾: أي: الحالَ التي بَينكم، أو الأحوالَ التي تجمَعُكم مِن القَرابةِ والوُصلةِ والمَودَّةِ، وأصلُ (بين): موضوعٌ للخَلالةِ بين الشَّيئينِ ووسْطَهما(٢).

﴿**وَجِلَتْ**﴾: أي: خافَت وفَرِقَت، والوَجَلُ: استشعارُ الخَوفِ(٣).

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يسألُك- يا محمَّدُ- أصحابُك عن حُكمِ الغَنائِمِ- وخاصَّةً غنائِمَ بَدرٍ، ولِمَن هي، وكيف تُقسَمُ؟ فقل لهم: أمرُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٦-١٥٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٦).

الغنائمِ إلى اللهِ تعالى الذي يملِكُها، وإلى رسولِ اللهِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الذي يقسِمُها، فاتَّقُوا اللهَ وأصلِحوا الحالَ بينكم، وأطيعُوا اللهَ ورسولَه، وامتثِلوا أمرَهما إنْ كنتم حقًّا مُؤمنينَ.

إنَّما المُؤمنونَ حَقًّا مَن إذا ذُكِرَ اللهُ فَزِعَت قلوبُهم وخافوا منه، وإذا قُرِئَت عليهم آياتٌ مِن كتابِه، ازداد تصديقُهم ويقينُهم، وعلى ربِّهم وَحْدَه يتوكَّلونَ، الذينَ يُقيمونَ الصَّلاةَ على أكمَلِ وَجهٍ، وممَّا رزَقَهم اللهُ يُنفِقونَ، أولئك هم المُؤمِنونَ حقًّا، لهم منازِلُ ومراتِبُ عاليةٌ عند ربِّهم، ومغفرةٌ، ورزقٌ كريمٌ في الجنَّةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ①﴾.

أسبابُ النُّزولِ:

١- عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِي اللهُ عنهما، قال: ((قالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّمَ يومَ بدرٍ: مَن فعلَ كذا وكَذا، فلَهُ منَ النَّفَلِ كذا وكَذا. قالَ: فتقدَّمَ الفِتيانُ، ولزمَ المشيَخةُ الرَّاياتِ فلم يبرَحُوها، فلمَّا فتحَ اللَّهُ عليهم قالت المشيخةُ: كنَّا رِدءًا[1] لَكُم، لو انهزمتُمْ فِئتُمْ[2] إلينا، فلا تَذهَبونَ بالمَغنمِ ونبقى، فأبى الفِتيانُ، وقالوا: جعلَهُ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّمَ لَنا، فأنزلَ اللَّهُ تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ * قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ يقولُ: فَكانَ ذلِكَ خيرًا لَهُم، فكذلِكَ

---

[1] رِدْءًا: أي: عَونًا. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٠).

[2] فِئتُم: أي: رَجَعتم. وأصلُ الفَيءِ: الرُّجوعُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤٨٢)، ((غريب الحديث)) لابن قتيبة (١/ ٢٢٨).

أيضًا فأطيعوني؛ فإنِّي أعلمُ بعاقبةِ هذا منكُم))(١).

٢- عَن سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ قال: ((نزلَتْ فيَّ أربعُ آياتٍ: أَصَبْتُ سيفًا، فأتى به النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: يا رسولَ اللهِ، نَفِّلْنيه(٢) فقال: ضَعْه. ثم قام، فقال له النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ضَعْه من حيثُ أَخَذْتَه. ثم قام، فقال: نَفِّلْنيه يا رسولَ الله، فقال: ضَعْه. فقام، فقال: يا رسولَ اللهِ، نَفِّلْنيه، أَوُجعَلُ كمَن لا غَناءَ له؟ فقال له النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ضَعْه مِن حيث أخَذْتَه. قال: فنَزَلت هذه الآيةُ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١]))(٣).

النَّاسِخُ والمَنسوخُ:

هذه الآيةُ مَنسوخةٌ بآيةِ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ...﴾ الآية(٤) [الأنفال: ٤١].

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٧٣٧)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١١٣٣)، وابن حبان في ((الصحيح)) (٥٠٩٣).

صححه ابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (١٠٣)، والألباني في ((صحيح أبي داود)) (٢٧٣٧)، وصحح إسناده العيني في ((نخب الأفكار)) (١٢/ ٢٧٩).

(٢) نَفِّلْنيه: أي: أَعْطِنِيه واجْعَلْه لي نَفَلًا- أي: غنيمةً. يُنظر: ((غريب الحديث)) لابن قتيبة (١/ ٢٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٠).

(٣) رواه مسلم (١٧٤٨).

(٤) ممَّن ذهب إلى ذلك: أبو عُبَيد القاسم بن سلَّام، والواحديُّ، والشنقيطي، ونسبه النَّحاس والقرطبيُّ إلى جمهورِ العُلَماء. يُنظر: ((الأموال)) (ص: ٣٨٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٩-٥٠، ٥٧)، ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢).

قال أصحابُ هذا القولِ: لأنَّ قولَه: ﴿قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ يقتضي أن تكونَ الغنائمُ كلُّها للرسولِ، فنسخَها الله بآياتِ الخُمسِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٤٩).

وممن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ ابنُ عبَّاس، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، والضحَّاك والشعبيُّ والسُّديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١، ٢٢)، ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩).

وقيل: هي مُحكَمةٌ(١).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾.

أي: يسألُك أصحابُك- يا مُحَمَّدُ- عن الغنائِم(٢)- وخاصَّةً غنائِمَ غَزوةِ بَدرٍ

---

(١) ذهب ابنُ جريرٍ إلى ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ ابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩).

ومعنى الآيةِ على هذا القولِ: ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، وهي لا شكَّ للهِ- مع الدُّنيا بما فيها والآخرةِ- وللرسولِ يضعُها في مواضعِها التي أمرَه الله بوضعِها فيه، وقد بيَّن الله مصارفَها في قولِه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ...﴾ الآية. ينظر ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣)، ((تفسير الثعالبي)) (٤/ ٣٢٦).

(٢) قال الزَّجاج: (وإنما يَسألونَ عنها؛ لأنَّها فيما رُوِيَ كانت حَرامًا على من كانَ قَبلَهم). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٢/ ٣٩٩).

قال ابنُ كثير: (شاهِدُ هذا في الصحيحينِ عن جابرٍ: أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلم قال: «أُعطِيتُ خمسًا لم يُعطَهُنَّ أحَدٌ قبلي» فذكرَ الحديث، إلى أن قال: «وأُحِلَّت لي الغنائِمُ ولم تُحَلَّ لأحدٍ قَبلي»). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩).

وممن اختار أنَّ المرادَ بالأنفال: الغنائِمُ: أبو عُبيدٍ القاسمُ بن سلَّام، والواحدي، وابنُ عطيةَ، وابنُ تيميَّة، والسعديُّ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((الأموال)) (ص: ٣٨٣، ٣٨٧)، ((الوسيط)) (٢/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٦)، ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) (٤/ ٤٧٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعكرمةُ، ومجاهدٌ، والضحَّاكُ، وعبدُ الرحمنِ ابنُ زيدِ بنِ أسلمَ، وعطاءٌ، ومقاتلُ بنُ حيانَ، وقتادةُ، والحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٨٧).

واختار ابنُ جريرٍ أنَّ المرادَ بالأنفالِ: الزياداتُ على الغنيمةِ التي تُقسَم، وهي ما يُعطاه الرَّجُلُ على البلاءِ والغَناءِ عن الجَيشِ على غيرِ قِسمةٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٠-١١).

ويرى ابنُ عاشورٍ أنَّ معنى الأنفالِ يَشمَلُ كلا المَعنَيينِ المتقدِّم ذكرُهما، فكلاهما داخِلٌ لَدَيه في مُسمَّى المغانِم. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤٩).

التي غَنِمُوها من كفَّارِ قُريشٍ(١)- عن حُكمِها، ولِمَن هي، وكيف تُقسَم(٢)؟

﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾.

أي: قُلْ لهم- يا محمَّدُ- جوابًا عن سُؤالِهم: إنَّما أمْرُ الغنائِمِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، الذي يملِكُها، وإلى مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، الذي يَقسِمُها، وهما يتصرَّفانِ في شَأنِها، ويَضَعانِها حيث شاءا، فارضَوْا بحكمِهما، وسلِّموا الأمرَ إليهما(٣).

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا حكمَ بأنَّ الأنفالَ مِلكٌ لله ورَسولِه، أو بأنَّ أمْرَ قِسْمَتِها موكولٌ لله، فقد وقع ذلك على كراهةِ كثيرٍ منهم، ممَّن كانوا يحسَبونَ أنَّهم أحقُّ بتلك الأنفالِ ممَّن أعطِيَها؛ تبعًا لعوائِدِهم السَّالِفةِ في الجاهليَّةِ، فذكَّرَهم اللهُ بأنْ قد وجب الرِّضا بما يقسِمُه الرَّسولُ مِنها(٤)، فقال تعالى:

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾.

---

(١) قال ابنُ عطيَّةَ: (لا خلافَ في هذه السورةِ أنَّها نزلت في يومِ بَدرٍ وأمْرِ غنائِمِه). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٦). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٦٨).

وقال الشنقيطي: (والتحقيقُ الذي عليه الجُمهور: أنَّها نزلت في اختلافِ الصَّحابةِ في غنائِمِ بَدرٍ). ((العذب النمير)) (٤/ ٤٧٢).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (نزلت عَقيبَ بَدرٍ بالاتِّفاقِ). ((منهاج السنة النبوية)) (٧/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١، ٢٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٥٢، ٢٥٣).

أي: فامتَثِلوا ما أمَرَكم اللهُ تعالى به، واجتَنِبوا ما نهاكم عنه، وأصلِحُوا الحالَ الواقعةَ بينكم في شأنِ تنازُعِكم في الأنفالِ، فلا تتخاصَمُوا ولا تتشاجَرُوا، ولا تتشاحَنُوا ولا تدابَرُوا⁽¹⁾.

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي: وانتَهُوا- أيُّها الطَّالبونَ الأنفالَ- إلى أمرِ اللهِ تعالى، وأمْرِ رَسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فاقبَلوا ما أُمِرْتم به في شأنِ الأنفالِ وفي غيرِها، وامتَثِلوه وسلِّموا لحُكمِهما، إن كنتم حقًّا تؤمنونَ برَسولِ اللهِ فيما آتاكم به من عندِ ربِّكم؛ فإنَّ الإيمانَ يُوجِبُ القَبولَ لِحُكمِهما، ويدعو إلى طاعَتِهما⁽²⁾.

ثم وصَفَ اللهُ تعالى المؤمنينَ ذوي الإيمانِ الكامِلِ، فقال⁽³⁾:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾.

مُناسبةُ الآيةِ لما قبلَها:

لَمَّا قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ واقتضى ذلك كونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٤، ٢٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٧٤).
قال ابنُ عاشور: (والإصلاحُ: جَعلُ الشَّيءِ صالحًا، وهو مُؤذِنٌ بأنَّه كان غيرَ صالحٍ؛ فالأمرُ بالإصلاحِ دلَّ على فسادِ ذاتِ بَينِهم، وهو فَسادُ التَّنازُعِ والتَّظالُم). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٦-٢٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٠٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٧٦).

الإيمانِ مُستلزِمًا للطَّاعةِ؛ شرحَ ذلكَ في هذهِ الآيةِ مزيدَ شَرحٍ وتفصيلٍ(١)، فقال:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

أي: إنَّما المؤمنونَ حَقًّا، الكامِلُون في إيمانِهم كمالًا كما ينبغِي؛ مَن إذا ذُكِرَ اللهُ وعَظَمتُه وقُدرَتُه، وخُوِّفُوا به سبحانَه؛ فَزِعَت قلوبُهم، وخافوا منه عزَّ وجلَّ، فخَضَعوا له بفِعلِ أوامِرِه، وتَرْكِ نَواهِيه(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾.

أي: وإذا قُرِئَتْ عليهم آياتٌ مِن كِتابِ الله سبحانه، ازدادَ تصديقُهم ويقينُهم(٣)، وإذعانُهم وانقيادُهم.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٩-٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٧٦-٤٧٧).

قال الواحدي (وفيه إشارةٌ إلى إلزامِ أصحابِ بَدرٍ بطاعةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما يرى من قِسمةِ الغَنائِمِ). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٤٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٧٧).

وقال بهذا المعنى من السَّلف: ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما، والضحَّاك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٧)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ١٨٨).

وقال ابنُ تيميةَ: (وهذه زيادةٌ إذا تُلِيتْ عليهم الآياتُ، أي: وقتَ تُليت، ليس هو تصديقُهم بها عندَ النُّزولِ، وهذا أمرٌ يَجِدُه المؤمِنُ: إذا تُلِيَت عليه الآياتُ زاد في قَلبِه بفَهمِ القُرآنِ ومَعرفةِ مَعانيه مِن عِلمِ الإيمانِ ما لم يَكُن؛ حتى كأنَّه لم يَسمَعِ الآيةَ إلَّا حينئذٍ، ويحصُلُ في قَلبِه مِن الرَّغبةِ في الخَيرِ، والرَّهبةِ مِن الشَّرِّ ما لم يكُنْ؛ فزادَ عِلمُه باللهِ ومحبَّتُه لطاعَتِه، وهذه زيادةُ الإيمانِ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٢٨).

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

أي: وعلى مَن خَلَقَهم ويَملِكُهم، ويدبِّرُ شُؤونهَم، يعتَمِدون، وبه يَثِقونَ في جَلْبِ مصالِحِهم ودَفْعِ مَضارِّهم، لا يرجونَ غَيرَه، ولا يرهبونَ سواه، ولا يقصِدونَ مَن دُونَه، ولا يلوذونَ إلَّا بجنابه⁽¹⁾.

كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩].

ثمَّ نبَّه سبحانه على أعمالِهم، بعدَ ما ذكَر اعتقادَهم، فقال⁽²⁾:

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: ومِن صفاتِهم أنَّهم يؤدُّونَ الصَّلاةَ- التي هي حقٌّ خالصٌ لله تعالى- بحُدودِها وشُروطِها، وأوقاتِها وأعمالِها: الظَّاهِرةِ والباطنةِ، فيأتونَ بها على الوَجهِ المَطلوبِ⁽³⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) ٤/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٨٠).

قَصَرَ ابنُ جريرٍ الصَّلاةَ هنا على المفروضةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٠)، وعمَّمَها السَّعدي، فجَعَلها شاملةً للفرائضِ والنَّوافِلِ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥).

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

أي: ومِن صِفاتِهم أنَّهم يُنفِقونَ ممَّا رزَقَهم اللهُ مِن الأموالِ، النَّفَقاتِ الواجبةَ والمستحبَّةَ؛ نفعًا للعبادِ، وأداءً لحُقوقِهم(١).

ثم حقَّق اللهُ تعالى لهم الإيمانَ، فقال(٢):

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٤﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.

أي: أولئك الذينَ يَفعلونَ تلك الأفعالَ الجَليلةَ، ويتَّصِفونَ بتلك الصِّفاتِ العظيمةَ هم وَحدَهم المؤمنون حقَّ الإيمانِ، إيمانًا لا يعتريه شكٌّ(٣).

ثم ذكَرَ ثوابَ هؤلاءِ المُؤمنين الذي وصَفَهم، فقال(٤):

﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

أي: لهم مراتِبُ ومنازِلُ عالياتٌ، يرتَقونَها في الجنَّاتِ، بحسَبِ عُلوِّ أعمالِهم الصَّالحاتِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٨٠).

وتفسيرُ النَّفقةِ هنا بالواجبةِ والمُستحبَّةِ هو اختيارُ ابنِ كثيرٍ، والسعدي، والشنقيطي. وقصَرَها ابنُ جريرٍ على النَّفَقةِ الواجبة. يُنظر: المصادر السابقة.

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧-٢١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣١)، ((التفسير الوسيط)) =

كما قال سبحانه: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أهل الجنَّةِ يَتَراءونَ أهلَ الغرفِ من فوقهم، كما تَتَراءَونَ الكوكبَ الدُّرِّيَّ الغابرَ⁽¹⁾ في الأُفُقِ، من المشرقِ أو المغربِ، لِتَفاضُلِ ما بينهم. قالوا: يا رسولَ اللهِ تلك منازلُ الأنبياءِ لا يَبْلُغُها غيرُهم، قال: بلى، والذي نفسي بيَدِه، رجالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ))⁽²⁾.

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾.

أي: ولهم سَترٌ لذُنُوبِهم، وتجاوزٌ عنها⁽³⁾.

﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

أي: ولهم في الجنَّةِ رزقٌ أعدَّه الله تعالى لهم فيها؛ مِن المآكِلِ والمشارِبِ وهَنيءِ العَيشِ، ممَّا لا عينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خطَرَ على قلبِ بَشَرٍ⁽⁴⁾.

= للواحدي، (٢/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٨٠-٤٨١).

(١) الكوكب الدُّرِّي الغابر: أي: الكوكب العظيم، سُمِّيَ دُرِّيًا لِصفاءِ لَونِه، وخُلوصِ نُورِه، وشدَّةِ إضاءَتِه. والغابِر: الباقي في الأُفُقِ بعد انتشارِ ضَوءِ الفَجرِ. يُنظر: ((شرح البخاري)) للقسطلاني (٥/ ٢٨٥-٢٨٦)، ((الميسر في شرح مصابيح السنة)) للتوربشتي (٤/ ١٢١٧).

(٢) رواه البخاري (٣٢٥٦) واللفظ له، ومسلم (٢٨٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٨١).

الفَوائدُ التربويَّةُ:

١- التَّقوى زِمامُ القُلوبِ، الذي يمكِنُ أن تُقادَ منه طائعةً ذَلولةً، في يُسرٍ وفي هَوادةٍ، وبهذا الزِّمامِ يقودُ القرآنُ هذه القلوبَ إلى إصلاحِ ذاتِ بَينِها، وإلى طاعةِ اللهِ ورَسولِه؛ قال اللهُ تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾(١).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ فيه أمرٌ للمُؤمنينَ أن يُصلِحوا ما بَينَهم مِن التَّشاحُنِ والتَّقاطُعِ والتَّدابُرِ، بالتوادُدِ والتَّحابِّ والتَّواصُلِ؛ فبذلك تجتمِعُ كَلِمتُهم، ويزولُ ما يحصُلُ- بسبَبِ التَّقاطُعِ- من التَّخاصُمِ والتَّشاجُرِ والتَّنازُعِ، ويدخُلُ في إصلاحِ ذاتِ البَينِ تحسينُ الخُلُقِ لهم، والعَفوُ عن المُسيئينَ منهم؛ فإنَّه بذلك يزولُ كثيرٌ ممَّا يكونُ في القُلوبِ مِن البَغضاءِ والتَّدابُرِ(٢).

٣- الإيمانُ يَدعو إلى طاعةِ اللهِ ورَسولِه، كما أنَّ مَن لم يُطعِ اللهَ ورسولَه فليس بمؤمِنٍ، ومَن نَقَصت طاعتُه للهِ ورَسولِه، فذلك لنَقْصِ إيمانِه؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(٣).

٤- المؤمِنُ إنما يكون مؤمنًا حقًّا إذا حقَّقَ إيمانَه بالأعمالِ الصَّالحة؛ يقولُ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾(٤).

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٤٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٤٤).

ذِكْرُ اللهِ تعالى: بِذِكرِ اسمِه، وذِكرِ عِقابِه وعَظَمتِه، وذِكرِ ثوابِه ورَحمتِه- يحصُلُ معه الوَجَلُ في قُلوبِ كُمَّلِ المُؤمنينَ؛ لأنَّه يحصُلُ معه استحضارُ جَلالِ اللهِ، وشِدَّةِ بأسِه، وسَعةِ ثَوابِه، فينبعِثُ عن ذلك الاستحضارِ توقُّعُ حُلولِ بَأسِه، وتوقُّعُ انقطاعِ بَعضِ ثوابِه أو رَحمتِه، وهو وجَلٌ يبعَثُ المؤمِنَ إلى الاستكثارِ من الخَيرِ، وتوقِّي ما لا يُرضِي الله تعالى⁽¹⁾.

٦- قلبُ المؤمنِ يجِدُ في آياتِ القُرآنِ ما يزيدُه إيمانًا، وما ينتهي به إلى الاطمئنانِ؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾⁽²⁾.

٧- الإيمانُ يَزيدُ ويَنقُصُ؛ يزيدُ بفِعلِ الطَّاعةِ، وينقُصُ بِضِدِّها؛ فينبغي للعبدِ أن يتعاهدَ إيمانَه ويُنمِّيَه؛ يُرشِدُنا إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾⁽³⁾، وقد استدلَّ البخاريُّ وغيرُه مِن الأئمَّةِ بهذه الآيةِ وأشباهِها، على زيادةِ الإيمانِ وتفاضُلِه في القلوبِ، كما هو مذهَبُ جُمهورِ الأمَّةِ، بل قد حكى الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ من الأئمَّة؛ كالشَّافعيِّ، وأحمدَ ابنِ حَنبلٍ، وأبي عُبَيد⁽⁴⁾.

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ التوكُّلُ هو الحامِلُ للأعمالِ كُلِّها، فلا تُوجَدُ ولا تَكمُلُ إلَّا به، قال سعيدُ بنُ جُبَير: التوكُّلُ على اللهِ جِماعُ الإيمانِ⁽⁵⁾.

٩- قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ قَرَنَ تعالى بين

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٤٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥).

الصَّلاةِ والزَّكاةِ، وأثنى على فاعِلِيهما؛ لأنَّ مَدارَ النَّجاةِ عليهما، ولا فلاحَ لِمَن أخلَّ بهما(١).

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ فليس الإيمانُ بالتمنِّي، ولا بالتحلِّي، ولكنَّه بما وقَر في الصُّدورِ، وصدَّقتْه الأعمالُ، كما قال الحسنُ، فإذا ذاق العَبدُ حَلاوةَ الإيمانِ، ووجَدَ طَعمَه وحلاوَتَه، ظهَرَت ثَمرةُ ذلك على لِسانِه وجَوارِحِه، فاستحلى اللِّسانُ ذِكرَ اللهِ وما والاه، وسَرُعتِ الجَوارِحُ إلى طاعةِ اللهِ(٢).

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ عُطِفَ ﴿والرَّسُولِ﴾ على اسمِ اللهِ؛ لأنَّ المقصودَ: الأنفالُ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يَقسِمُها، فذُكِرَ اسمُ اللهِ قبل ذلك؛ للدَّلالةِ على أنَّها ليست حقًّا للغُزاةِ، وإنَّما هي لِمَن يُعَيِّنُه اللهُ بوَحيِه، فذِكْرُ اسمِ الله لفائِدَتينِ:

أولاهما: أنَّ الرَّسولَ إنَّما يتصرَّفُ في الأنفالِ بإذْنِ اللهِ توقيفًا أو تفويضًا.

والثانية: لِتَشمَلَ الآيةُ تَصرُّفَ أمراءِ الجُيوشِ في غَيبةِ الرَّسولِ، أو بعد وفاتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ ما كان حقًّا لله كان التصَرُّفُ فيه لخُلَفائِه(٣).

٢- لَمَّا كان الإيمانُ: إيمانًا كاملًا يترتَّبُ عليه المَدحُ والثَّناءُ والفَوزُ التَّامُّ، وإيمانًا دونَ ذلك- ذَكرَ الإيمانَ الكامِلَ، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ فالألِفُ واللَّامُ للاستغراقِ لشَرائِعِ الإيمانِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥).

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...﴾ فهذه الآيةُ أثبَت فيها الإيمانَ لهؤلاء، ونفاه عن غيرِهم، والشَّارعُ دائمًا لا ينفِي المسمَّى الشَّرعيَّ إلَّا لانتفاءِ واجبٍ فيه⁽¹⁾.

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ قدَّمَ تعالى أعمالَ القُلوبِ؛ لأنَّها أصلٌ لأعمالِ الجَوارِحِ، وأفضَلُ منها⁽²⁾.

٥- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وقال في آيةٍ أخرى ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨]، ولا مُنافاةَ بينهما؛ لأنَّ الوَجَلَ هو خوفُ العقابِ، والاطمئنانَ إنَّما يكونُ مِن اليَقينِ، وشَرحِ الصَّدرِ بمعرفةِ التَّوحيدِ، وهذا مقامُ الخَوفِ والرَّجاءِ، وقد اجتمَعَا في آيةٍ واحدةٍ، وهي قولُه تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣] عند رجاءِ ثَوابِ اللهِ⁽³⁾.

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فيه عَدُّ التوكُّلِ مِن شُعَبِ الإيمانِ⁽⁴⁾.

٧- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٥٣)، ويُنظر أيضًا: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٧٩).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٣٤).

يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ فيه دليلٌ عَلَى دُخولِ الأعمالِ في الإيمانِ(١).

٨- في قولِه تعالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ إنْ قيل: إذا كان المؤمنُ حقًّا هو الفاعِلَ للواجباتِ، التَّارِكَ للمحرَّماتِ: فقد قالَ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ ولم يَذْكُرْ إلَّا خمسةَ أشياءَ، فالجوابُ أنْ مَا ذَكَرَ يستلزم مَا تَرَك؛ فإنَّه ذَكَرَ وَجَلَ قلوبِهم إذا ذُكِرَ اللَّهُ، وزيادةَ إيمانِهم إذا تُلِيَتْ عليهم آياتُه، مَعَ التَّوَكُّلِ عليه، وإقامِ الصَّلاةِ على الوجهِ المأمورِ به بَاطنًا وَظاهِرًا، وكذلك الإنفاقُ مِن المالِ والمنافعِ؛ فكان هذا مستلزمًا للباقي؛ فمَن قامَ بهذه الخمسِ كما أُمِر لَزِم أنْ يأتيَ بسائرِ الواجباتِ؛ فإنَّ وَجلَ القلبِ عندَ ذِكْرِ اللَّهِ يقتضي خشيتَه وَالخوفَ منه، وذلك يدعُو صاحبَه إلى فعلِ المأمورِ وتركِ المحظورِ، بل الصَّلاةُ نفسُها إذا فعلَها كما أُمِر، فهي تنهَى عن الفحشاءِ(٢).

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ فيه دليلٌ على أنَّه ليس لكُلِّ أحدٍ أن يصِفَ نفسَه بكَونِه مُؤمِنًا حَقًّا؛ لأنَّ اللهَ تعالى إنَّما وصَفَ بذلك أقوامًا مَخصُوصينَ على أوصافٍ مَخصوصةٍ، وكلُّ أحدٍ لا يتحقَّقُ وجودَ تلك الأوصافِ فيه(٣).

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ لَمَّا كانت صِفاتُهم الخَمسُ المذكورةُ في الآياتِ المُشتمِلةِ على الأخلاقِ والأعمالِ، لها تأثيراتٌ في تصفيةِ القُلوبِ، وتنويرِها بالمعارفِ الإلهيَّةِ، وكلَّما كان المؤثِّرُ أقوى كانت التأثيراتُ أعلى؛ فلما كانت هي درجاتٍ كان جزاؤُها كذلك، فلهذا

---

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٤٤٩-٤٥٠).

قال سبحانه تعالى ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ﴾(١).

١١- في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى قولِه سبحانه: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ رَدٌّ على المرجئةِ مِن وجوهٍ:

أحدُها: أنَّه ذَكَر عامَّةَ الأعمالِ الصالحةِ- الظاهرةِ والباطنةِ- وجعَلَها مِن الإيمانِ؛ وذلك أنَّه ذَكَر قبلَ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ التقوى، وإصلاحَ ذاتِ البَيْنِ، ثم نَسَقَ في هذه الآيةِ عملًا بعدَ عملٍ، وذَكَرَ فيها التوكلَ، وهو باطنٌ.

الثاني: أنَّه ذَكَر زيادةَ الإيمانِ- بتلاوةِ الآياتِ عليهم- وهم ينكرونه!

الثالثُ: أنه لم يُثبِتْ لهم حقيقةَ الإيمانِ إلَّا باجتماعِ خصالِ الخيرِ مِن الأعمالِ الظاهرةِ والباطنةِ؛ وهم يُثبِتون حقيقتَه بالقولِ وحدَه!

الرابعُ: أنَّه سبحانَه قال بعدَ ذلك كلِّه: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ﴾ وقد أثبتَ لهم الإيمانَ بشرائطِه وحقيقتِه؛ وهم لا يجعلونَ للمؤمنِ في إيمانِه إلَّا درجةً واحدةً! ولا يجعلونَ للإيمانِ أجزاءً! فكيف يستقيمُ أنْ يُسمَّى المرءُ بالإقرارِ وحدَه مستكمِلَ الإيمانِ؛ وقد سمَّى اللهُ تعالى كلَّ ما حَوَتْه الآيةُ إيمانًا(٢)!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

- مجيءُ الفِعلِ بصيغةِ المُضارِعِ في قَولِه: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ دالٌّ على تكرُّرِ السُّؤالِ، إمَّا بإعادتِه المرَّةَ بعدَ الأُخرَى مِن سائِلينَ مُتعدِّدينَ، وإمَّا بكثرةِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((النُّكتُ الدالَّة على البيان)) للقصَّاب (١/ ٤٦١).

السَّائلينَ عن ذلك حينَ المُحاورةِ في مَوقفٍ واحدٍ(١).

- وتفريعُ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ على جملةِ ﴿الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾؛ لأنَّ في تلك الجملةِ رَفعًا للنِّزاعِ بينهم في استحقاقِ الأنفالِ، أو في طلَبِ التَّنفيلِ(٢).

- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قدَّم الأمرَ بالتَّقوى؛ لأنَّها أصلٌ للطَّاعات، ثمَّ بإصلاحِ ذاتِ البَينِ؛ لأنَّ ذلك أهمُّ نتائجِ التقوى في ذلك الوَقتِ، الذي تشاجَروا فيه، ثم أمرَ بطاعَتِه وطاعةِ رَسولِه، فيما أمرَ به مِن التَّقوى والإصلاحِ وغيرِ ذلك(٣).

- وليس الإتيانُ في الشَّرطِ بـ (إنْ) في قَولِه: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ تعريضًا بضَعفِ إيمانِهم، ولا بأنَّه ممَّا يَشُكُّ فيه مَن لا يَعلَمُ ما تُخفي صُدورُهم، بناءً على أنَّ شَأنَ (إنْ) عدمُ الجَزمِ بوُقوعِ الشَّرطِ، بخلافِ (إذا)، ولكِنَّ اجتلابَ (إنْ) في هذا الشَّرطِ؛ للتَّحريضِ على إظهارِ الخِصالِ التي يتطلَّبُها الإيمانُ، وهي: التَّقوى الجامعةُ لخصالِ الدِّين، وإصلاحُ ذاتِ بَينِهم، والرِّضا بما فعَلَه الرَّسولُ، فالمقصودُ التَّحريضُ على أن يكونَ إيمانُهم في أحسَنِ صُوَرِه ومظاهِرِه؛ ولذلك عقَّبَ هذا الشَّرطَ بجُملةِ القَصرِ في قَولِه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...﴾(٤).

٢- قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٥٢-٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٧٠)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٥٤).

- قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ...﴾ جملةٌ مُستأنفةٌ، مَسوقةٌ لِبَيانِ مَن أُريدَ بالمؤمنينَ، بذِكرِ أوصافِهم الجليلةِ المُستتبِعةِ لِما ذُكِرَ مِن الخِصالِ الثَّلاثِ، وفيه مزيدُ تَرغيبٍ لهم في الامتثالِ بالأوامِرِ المذكورةِ(١).

- وفي قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ...﴾ قصرٌ ادِّعائيٌّ؛ بتنزيلِ الإيمانِ الذي عَدِمَ الواجِباتِ العظيمةَ مَنزلةَ العَدَمِ(٢).

- قوله: ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ إسنادُ فِعلِ زيادةِ الإيمانِ إلى آياتِ اللهِ؛ لأنَّها سبَبُ تلك الزِّيادةِ للإيمانِ، باعتبارِ حالٍ مِن أحوالِها، وهو تِلاوتُها، لا اعتبارِ مُجَرَّد وجودِها في صَدرِ غَيرِ المتلوَّةِ عليه(٣).

- قوله: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ اختيارُ صيغةِ المُضارعِ في ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تكرُّرِ ذلك منهم، وتقديمُ المجرورِ إمَّا للرِّعايةِ على الفاصلةِ، فهو مِن مُقتضياتِ الفَصاحةِ، مع ما فيه من الاهتمامِ باسْمِ الله، وإمَّا للتَّعريضِ بالمُشركينَ؛ لأنَّهم يتوكَّلونَ على إعانةِ الأصنامِ(٤).

٣- قوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ جيءَ بالفعلينِ المُضارعين في ﴿يُقِيمُونَ﴾ و ﴿يُنْفِقُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تكرُّرِ ذلك وتجَدُّدِه(٥).

٤- قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

- قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ جملةٌ مُؤَكِّدةٌ لِمَضمونِ جُملةِ: ﴿إِنَّمَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٥٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٦٠).

الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ﴾ وَلِذَلِكَ فُصِلَتْ⁽¹⁾.

- وعُرِّفَ المسنَدُ إليه ﴿أُولَئِكَ﴾ بالإشارةِ؛ لوقوعِه عَقِبَ صفاتٍ، لتدُلَّ الإشارةُ على أنَّهم أحرِياءُ بالحُكمِ المُسنَدِ إلى اسمِ الإشارةِ؛ مِن أجلِ تلك الصِّفاتِ، فكأنَّ المُخبرَ عنهم قد تميَّزوا للسَّامِعِ بتلك الصِّفاتِ، فصاروا بحيث يُشارُ إليهم، وفي هذه الجملةِ قَصرٌ آخَرُ؛ حيث قُصِرَ الإيمانُ مرَّةً أخرى على أصحابِ تلك الصِّفاتِ، ولكنَّه قُرِنَ هنا بما فيه بيانُ المَقصورِ، وهو أنَّهم المؤمنونَ الأحِقَّاءُ بوصفِ الإيمانِ⁽²⁾.

- قوله: ﴿حَقًّا﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لِمَضمونِ جُملةِ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: ثبوتُ الإيمانِ لهم حقٌّ لا شُبهةَ فيه، وهو تحقيقٌ لمَعنى القَصرِ بما هو عليه مِن معنى المُبالغةِ⁽³⁾.

- قوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ﴾ تنوينُ ﴿دَرَجَاتٌ﴾ للتَّعظيمِ؛ لأنَّها مراتِبُ مُتفاوتةٌ⁽⁴⁾.

- قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ متعلِّقٌ بمَحذوفٍ: صفةٌ لـ ﴿دَرَجَاتٌ﴾ مُؤَكِّدةٌ لِما أفاده التنوينُ مِن الفَخامةِ الذَّاتيَّة بالفخامةِ الإضافيَّة، أي: دَرَجاتٌ كائنةٌ عندَه تعالى⁽⁵⁾.

- وفي إضافةِ الظَّرفِ ﴿عِنْدَ﴾ إلى الرَّبِّ المضافِ إلى ضميرِهم؛ مزيدُ تَشريفٍ ولُطفٍ لهم، وإيذانٌ بأنَّ ما وُعِدَ لهم مُتيقَّنُ الثُّبوتِ والحصولِ، مأمونُ الفَواتِ⁽⁶⁾.

---

(1) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٦٠).

(2) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٦١).

(3) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٦٢)، ويُنظر أيضًا: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٨٠).

(4) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٦٣).

(5) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٥).

(6) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٥-٨)

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ (٥)
يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ (٦)
وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ
تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ (٧)
لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ (٨)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿**يُجَادِلُونَكَ**﴾: أي: يُنازِعونَك، والجِدالُ: المفاوضةُ على سبيلِ المُنازعةِ والمُغالبةِ، وأصلُه يدلُّ على امتدادِ الخُصومةِ، ومُراجعةِ الكَلامِ⁽¹⁾.

﴿**وَتَوَدُّونَ**﴾: أي: وتتمَنَّونَ، وتُحِبُّون، والودُّ: محبةُ الشيءِ، وتمنِّي كونِه، وأصلُ (ودد): يدلُّ على محبَّةٍ⁽²⁾.

﴿**ذَاتِ الشَّوْكَةِ**﴾: أي: ذاتِ الحَدِّ والسِّلاحِ؛ مِن السَّيفِ والسِّنانِ والنِّصالِ، واشتقاقُها مِن الشَّوكِ: وهو النَّبتُ الذي له حِدَّةٌ، وأصلُ (شوك): يدلُّ على خُشونةٍ، وحِدَّةِ طَرَفٍ في الشَّيءِ⁽³⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٦).

﴿**يُحِقَّ الْحَقَّ**﴾: أي: يُثبِتهُ ويُعلِيه، وأصلُ (الحقِّ) يدلُّ على إحكامِ الشَّيءِ، وصِحَّتِه(١).

﴿**وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ**﴾: أي: يجْتَثَّ أصْلَهم، ويستأصِلَهم عن آخِرِهم، وقطْعُ دابرِ الإنسان: هو إفناءُ نوعِه، ودابرُ القومِ: آخرُهم، وأصلُ (قطع): يدلُّ على إبانةِ شَيءٍ مِن شَيءٍ، وأصلُ (دبر): آخِرُ الشَّيءِ وخَلْفُه(٢).

المَعنى الإجماليُّ:

كما وكَلَك اللهُ- يا مُحمَّدُ- بأمرِ قِسمةِ الغَنائمِ، وقد كَرِه بعضُ أصحابِك كيفيَّةَ قِسمَتِك لها، فكَذلك أخرَجَك مِن بَيتِك؛ لِمُلاقاة مُشركي قُريشٍ، وقد كره ذلك فَريقٌ مِن المُؤمنينَ، يُجادلونك في الحقِّ الذي أراده اللهُ بعدما ظهَرَ وتبَيَّنَ، كأنَّ حالَهم- لِشدَّةِ كُرهِهم للقِتالِ- كمَن يُساقُ إلى المَوتِ وهو يَنظُر.

واذكرُوا- أيُّها المؤمنونَ- إذ يعِدُكم اللهُ بأنْ تظفَرُوا بإحدى الفِرقَتينِ؛ إمَّا العِيرِ أو النَّفيرِ، ووَدِدْتُم لو ظَفِرتُم بالعِيرِ؛ إذ هي لا مَنعةَ لها، ولا سِلاحَ، واللهُ يريدُ أنْ يجمَعَكم بالنَّفيرِ؛ ليُظفِرَكم بهم، ويُظهِرَ الإسلامَ ويُعلِيَه، بأمْرِه لكم بقتالِهم، ويريدُ سبحانه أن يستأصِلَ الكفَّارَ ويُهلِكَهم، فلا يبقى منهم أحدٌ؛ مِن أجلِ أن يُعِزَّ الإسلامَ ويُظهِرَه، ويُبطِلَ الشِّركَ والكُفرَ، ولو كَرِه المجرمونَ ذلك.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٦ - ٢٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤) و(٥/ ١٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٧ - ٦٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٧).

أنَّه لَمَّا كان تَرْكُ الدُّنيا شديدًا على النَّفسِ، شرَعَ يذكُرُ لهم ما كانوا له كارِهينَ، ففَعَلَه بهم، وأمَرَهم به- لعِلْمِه بالعواقِبِ- فحَمِدوا أثَرَه؛ ليكونَ أدعَى لتسليمِهم لأمْرِه، وازدجارِهم بزَجرِه، فشَبَّه حالَ كَراهَتِهم لِتَركِ مُرادِهم في الأنفالِ، بحالِ كراهَتِهم لخُروجِهم معه، ثم بحالِ كراهَتِهم لِلقاءِ الجَيشِ دُونَ العِيرِ، ثمَّ إنَّهم رأَوْا أحسَنَ العاقِبةِ في كِلَا الأمرَينِ⁽¹⁾.

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾.

أي: كما أنَّ اللهَ تعالى وكَلَك- يا مُحمَّدُ- بأمْرِ قِسمةِ الغَنائِمِ يومَ بَدرٍ، وجعَلَه حقًّا ثابتًا لك- وكان بعضُ أصحابِك قد كَرِه واعترَض على كيفيَّةِ قِسمَتِك لها- فكذلك أخرجك مِن بَيتِك؛ لأخذِ المالِ مِن عِيرِ كُفَّارِ قُريشٍ، فجاءها نفيرٌ، وكَرِهَ بعضُ أصحابِك مُلاقاتَه؛ فحالُهم في الأنفالِ كحالِهم في كراهةِ القِتالِ يومَ بَدرٍ، فامضِ لأمرِ اللهِ في الغنائِمِ، كما مَضَيتَ لأمْرِه في الخُروجِ وهم له كارِهونَ، وكلاهما حَقٌّ وخيرٌ مِن عندِ الله تبارك وتعالى⁽²⁾.

كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٢٢-٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٣٩٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٨٣).
وهذا المعنى هو في الجملة اختيارُ الزَّجَّاج، والواحدي، والشِّنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.
وفي الآيةِ أقوالٌ أخرى كثيرةٌ. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٥٥٩-٥٦٣).
قال الشِّنقيطي: (فالذي كَرِهوه مِن قَسْم غَنائِمِ بدرٍ، هو الذي لهم فيه مصلحةُ الدُّنيا والآخرةِ، والذي كَرِهوه من خروجِ رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم بهم، الذي آلَ إلى قتالِ جَيشِ قُريشٍ؛ كرهوه وهو أيضًا خيرٌ لهم في دينِهم ودنياهم، فاللهُ تبارك وتعالى كأنَّه أشار بالتَّشبيهِ على هذا القَولِ إلى أنَّه أعلَمُ بمَصالِحِهم مِن خَلقِه، وأنَّ خَلقَه يكرهونَ شيئًا، والمصلحةُ لهم فيما يختارُه لهم ربُّهم؛ كما قال جلَّ وعلا: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦] هذا أقرَبُ الأقوالِ، وكثيرٌ مِن الأقوالِ ساقِطٌ سقوطًا بيِّنًا، وهذا أقرَبُها، واختاره غيرُ واحدٍ). ((العذب النمير)) (٤/ ٤٨٣).

وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾.

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾.

أي: إنَّ المُؤمنينَ الذين كَرِهوا لقاءَ كُفَّارِ قُريشٍ يَومَ بَدرٍ، يجادلونك- يا محمَّدُ- في الحقِّ الذي أرادَه اللهُ تعالى ورَضِيَه لنُصرةِ دِينِه، وإعلاءِ كلِمَتِه، مِن بَعدِ ما وضَحَ وظَهَرَ، فخُروجُك خروجُ حَقٍّ مصحوبٌ بالوَعدِ مِن اللهِ بالنَّصرِ والظَّفَرِ؛ إمَّا بالعِيرِ وإمَّا بالنَّفيرِ، ومع هذا قالوا: لم نعلَمْ أنَّا سنلقَى العدُوَّ فنتهيَّأَ لقتالِهم، ونأخُذَ أُهْبَةَ الحَربِ، وإنَّما خرَجْنا طلبًا للغَنائمِ مِن عِيرِ قُريشٍ دون حَربٍ نَخوضُ غِمارَها، فلو يُرخِّصُ لنا في تَركِ القِتالِ(١).

﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾.

أي: هؤلاءِ الذينَ يُجادِلونَك- يا محمَّدُ- في لِقاءِ العَدُوِّ، كأنَّ حالَهم- لشِدَّةِ كَراهَتِهم للقتالِ إذا دُعُوا إليه- كحالِ من يُقدَّمُ إلى الموتِ، وهو يراه عِيانًا(٢).

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٨٧).

قال السَّعدي: (هذا، وكثيرٌ مِن المُؤمنين لم يَجْرِ منهم من هذه المجادلةِ شَيءٌ، ولا كَرِهوا لقاءَ عَدُوِّهم، وكذلك الذين عاتَبَهم الله، انقادوا للجهادِ أشَدَّ الانقيادِ، وثبَّتَهم الله، وقيَّضَ لهم من الأسبابِ ما تطمئِنُّ به قلوبُهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦).

وقال الشنقيطي: (... الصَّحابةُ تبايَنَتْ مواقِفُهم؛ فما كَرِهوا كلُّهم هذا الخروجَ، بل بعضُهم رَغِبَ فيه وحبَّذَه، وصرَّحَ بالإعانةِ عليه). ((العذب النمير)) (٤/ ٤٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٦٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٨٨-٤٨٩).

تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾.

واذكُرُوا- أيُّها المُؤمِنونَ- حين أوحَى اللهُ إلى رسولِه يعِدُه الظَّفَرَ بغنيمةِ إحدى الفِرقَتينِ؛ إمَّا العيرِ أو النَّفيرِ(١).

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾.

أي: وتُحِبُّونَ أن تكونَ لكم الطَّائفةُ الأُخرى التي ليسَتْ لها مَنعةٌ، ولا معها سِلاحٌ، فلا يُمكِنُها أن تُحارِبَ وتقاتِلَ، وهي العِيرُ(٢).

﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾.

أي: ويُريدُ اللهُ تعالى أن يجمَعَ بينكم وبينَ الطَّائفةِ الأُخرَى ذاتِ الشَّوكةِ؛ لِيُظفِرَكم بهم، فيُظهِرَ دينَ الإسلامِ، ويُعليَه على الأديانِ كلِّها، وذلك بأمْرِه لكم- أيُّها المؤمنونَ- بقِتالِ تلك الطَّائفةِ مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦).

قال الشِّنقيطي: (المرادُ بالطَّائِفَتينِ هنا -كما أطبَقَ عليه عامَّةُ المُفَسِّرين- هما العِيرُ والنَّفيرُ؛ العِير: الإبِلُ تَحمِلُ المتاعَ، والنَّفيرُ: الجيشُ في سِلاحِه وعَدَدِه وعُدَدِه). ((العذب النمير)) (٤/ ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٢٤-٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٦-١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٢٥).

اختار ابنُ جريرٍ أنَّ قَولَه تعالى: ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ هنا، يعني: أمْرَه للمؤمنينَ بقِتالِ الكُفَّارِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩).

واختار الواحديُّ أنَّ المرادَ بها: كَلِماتُ الآياتِ التي وعدَ فيها المؤمنينَ بالنَّصرِ يومَ بَدرٍ. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٤٤٥).

ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٢٥-٥٢٧).

﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

أي: ويريدُ أن يستأصِلَ الكُفَّارَ⁽¹⁾، ويُهلِكَهم عن آخِرِهم، فلا يبقَى منهم أحدٌ⁽²⁾.

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾.

أي: ويريدُ اللهُ تعالى قَطعَ دابِرِ الكافِرينَ؛ مِن أجلِ أن يُعِزَّ الإسلامَ، ويُظهِرَه ويُعليَ شَأنَه، ويُبطِلَ عبادةَ غيرِ الله، فيزول الشركُ، ولا تبقَى إلَّا عبادةُ اللهِ تعالى وَحدَه، ولو كَرِه ذلك المُشركونَ الذين أجرَموا، فاكتَسَبوا المآثِمَ والأوزارَ، التي يستحقُّونَ عليها العقابَ، وحُلولَ العَذابِ⁽³⁾.

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

الجِدالُ مَحلُّه وفائِدتُه عند اشتباهِ الحَقِّ، والْتباسِ الأمرِ، فأمَّا إذا وضحَ الحَقُّ وبان، فليس إلَّا الانقيادُ والإذعان؛ قال الله تعالى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾⁽⁴⁾.

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ أضاف تعالى ذلك الخروجَ إلى نفسِه، وهذا يدلُّ على أنَّ فِعلَ العَبدِ بخَلقِ اللهِ تعالى⁽⁵⁾.

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ عبَّر بقولِه ﴿فَرِيقًا﴾؛

---

(١) قال الواحدي: (يعني: كفَّارَ العَرَب). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٢٧-٥٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٢٨-٥٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٥٧).

لأنَّ آراءَهم كانت تؤولُ إلى الفُرقةِ(١).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ يؤخَذُ منه حُكمُ مؤاخَذةِ المُجتَهِدِ، إذا قصَّر في فَهمِ ما هو مدلولٌ لأهلِ النَّظَرِ(٢).

٤- قوله: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ﴾ فيه بنَى الفعلَ للمفعولِ؛ لأنَّ المكروهَ إليهم السوقُ، لا كونُه مِن معينٍ، أي: يسوقُهم سائقٌ لا قدرةَ لهم على ممانعتِه(٣).

٥- لا يصُدُّ مرادَ اللهِ تعالى ما للمُعاندين مِن قُوَّةٍ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾(٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾

- فيه تشبيهُ حالٍ بحالٍ، وهو متَّصِلٌ بما قبلَه: إمَّا بتَقديرِ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، هو اسمُ إشارةٍ لِمَا ذُكِرَ قبلَه، تقديره: هذا الحالُ كحالِ ما أخرَجَك ربُّك مِن بَيتِك بالحَقِّ، ووجهُ الشَّبَه: هو كراهيةُ المُؤمنينَ في باديْ الأمرِ لِمَا هو خيرٌ لهم في الواقِعِ، وإمَّا بتَقديرِ مَصدرٍ لِفعلِ الاستقرارِ الذي يقتَضيه الخَبَرُ بالمَجرورِ في قَولِه ﴿الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾؛ إذ التَّقديرُ: استقَرَّت للهِ والرَّسولِ استقرارًا، ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾، أي: فيما يَلوحُ إلى الكَراهِيةِ والامتعاضِ في باديْ الأمرِ، ثم نَوالِهم النَّصرَ والغَنيمةَ في نهايةِ الأمرِ، فالتَّشبيهُ تَمثيليٌّ، وليس مُراعًى فيه تشبيهُ بعضِ أجزاءِ الهَيئةِ المُشَبَّهةِ ببعضِ أجزاءِ الهَيئةِ المُشبَّهِ بها،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٧٣).

أي: أنَّ ما كَرِهتُموه مِن قِسمةِ الأنفالِ على خلافِ مُشتَهاكم، سيكونُ فيه خيرٌ عَظيمٌ لكم، حسَبَ عادةِ اللهِ تعالى بهم في أمْرِه ونَهْيِه(١).

- قولُه: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ تأكيدُ خَبرِ كراهيةِ فَريقٍ مِن المؤمنينَ بـ (إنَّ) و(لامِ الابتداءِ) مستعملٌ في التَّعجيبِ مِن شَأنِهم بتنزيلِ السَّامِعَ غيرِ المُنكِرِ لوقوعِ الخَبرِ، منزلةَ المُنكِرِ(٢).

٢- قَولُه تعالى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾

- صيغةُ المُضارِعِ ﴿يُجَادِلُونَكَ﴾ لحكايةِ حالِ المُجادلةِ؛ زيادةً في التعجيبِ منها(٣).

- وقولُه: ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ لومٌ لهم على المُجادلةِ في الخُروجِ الخاصِّ، وهو الخروجُ للنَّفيرِ، وتَركُ العيرِ؛ لأنَّ مَن جادلَ في شيءٍ لم يتَّضِحْ كان أخفَّ عَتْبًا، أمَّا مَن نازع في أمرٍ واضحٍ فهو جديرٌ باللَّومِ والإنكارِ(٤).

- قوله: ﴿كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ شبَّه حالَهم في فَرْطِ فَزَعِهم، وهم يُسارُ بهم إلى الظَّفَرِ والغنيمةِ، بحالِ مَن يُساقُ على الصَّغارِ إلى الموتِ، وهو مُشاهِدٌ لأسبابِه، ناظِرٌ إليها، لا يشكُّ فيها(٥).

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٦٣-٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٦٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٩٩).

- قوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ خطابٌ للمُؤمِنينَ بطَريقِ التَّلوينِ والالتفاتِ(١).

- وفيه تذكيرُ الوَقتِ- إذ التَّقديرُ: اذكُروا وقتَ وعدِ اللهِ إيَّاكم إحدى الطَّائفَتينِ- مع أنَّ المقصودَ تَذكيرُ ما فيه مِن الحوادِثِ؛ لِما فيها من المبالغةِ في إيجابِ ذِكرِها، ولأنَّ إيجابَ ذِكرِ الوقتِ، إيجابٌ لِذِكرِ ما وقع فيه بالطَّريقِ البُرهانيِّ(٢).

- وصيغةُ المُضارعِ ﴿يَعِدُكُمُ﴾ لحكايةِ الحالِ الماضيةِ؛ لاستحضارِ صُورتِها(٣).

- وقولُه تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ آكَدُ في الوَعدِ مِن مِثلِ: (وإذ يعِدُكم اللهُ أنَّ إحدى الطَّائفتينِ لكم)؛ لأن هذا إثباتٌ بعد إثباتٍ: إثباتٌ للشَّيءِ في نَفسِه، وإثباتٌ له في بَدَلِه؛ لأنَّ ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ في تأويلِ مَصدَرٍ؛ بدلُ اشتمالٍ مِن ﴿إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾(٤).

- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ عبَّرَ بهذا التَّعبيرِ؛ للتَّعريضِ بكراهَتِهم للقتالِ، وطَمَعِهم في المالِ(٥).

- قولُه: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ جمعٌ مُعرَّفٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والطريق البرهاني: هو قياسٌ استثنائيٌّ استُدِلَّ فيه بنفيِ اللازمِ، البيِّنِ انتفاؤُه، على نفيِ الملزومِ، كما يُقالُ: هل زيدٌ في البلدِ؟ فتقولُ: لا؛ إذ لو كان فيها لحضَرَ مجلِسَنا، فيستدلُّ بعدمِ الحضورِ على عدمِ كونِه في البلدِ.

أو: هو ما يلزمُ مِن نفْيِ مِثلِ مِثلِه نفيُ مثلِه. يُنظر: ((حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع)) (١/ ٤٥٢)، ((التقرير والتحبير)) لابن أمير الحاج (٢/ ٢٣)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٧/ ٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٦-٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) (٩/ ٤٩٩-٥٠٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٥٠٠).

بالإضافةِ، وهو يُفيدُ العُمومَ، والباءُ فيها للسَّببيَّةِ، وذِكرُ هذا القَيدِ للتَّنويهِ بإحقاقِ هذا الحَقِّ، وبيانِ أنَّه ممَّا أراده اللهُ ويَسَّرَه وبيَّنَه للنَّاسِ من الأمرِ؛ ليقومَ كُلُّ فَريقٍ مِن المأمورينَ بما هو حَظُّه مِن بَعضِ تلك الأوامِرِ، وللتَّنبيهِ على أنَّ ذلك واقِعٌ لا محالةَ؛ لأنَّ كَلِماتِ اللهِ لا تتخَلَّفُ(١).

٤- قوله: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾

- جملةٌ مُستأنفةٌ سِيقَت لِبَيانِ الحِكمةِ الدَّاعيةِ إلى اختيارِ ذاتِ الشَّوكةِ، ونَصْرِهم عليها مع إرادَتِهم لِغَيرِها(٢).

- وقَولُه ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ تقديرُه: لِيُحِقَّ الحقَّ، ويُبطِلَ الباطِلَ فعَلَ ذلك، ما فعَلَه إلَّا لهما، وليس هذا تكريرًا لِقَولِه في الآيةِ السَّابقةِ: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾؛ لأنَّ المَعنَيينِ مُتباينانِ، وذلك أنَّ الأوَّلَ تمييزٌ بين الإرادَتينِ، وهذا بيانٌ لِحكمتِه فيما فعَلَ مِن اختيارِ ذاتِ الشَّوكةِ على غيرِها لهم، ونُصرَتِهم عليها، وأنَّه ما نصرَهم ولا خذَلَ أولئك إلَّا لهذا الغَرضِ الذي هو سيِّدُ الأغراضِ، ويجِبُ أن يقدَّرَ المحذوفُ مُتأخِّرًا حتَّى يُفيدَ معنى الاختصاصِ(٣).

وقيل: أُريدَ بالأوَّلِ: ما وعدَ اللهُ به في هذه الواقعةِ؛ مِن النَّصرِ والظَّفَرِ بالأعداءِ، بقرينةِ قَولِه عَقِبَه: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾. وبالثَّاني: تقويةُ الدِّينِ، ونُصرةُ الشَّريعةِ، بقرينةِ قَولِه عَقِبَه: ﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾(٤).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٧٠-٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢١٦).

الآيات (٩-١١)

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿**تَسْتَغِيثُونَ**﴾: أي: تَستجيرونَ، وتدعون بالنَّصرِ، والاستغاثةُ: طَلَبُ الغَوثِ والمَعُونةِ والنَّصرِ(١).

﴿**مُرْدِفِينَ**﴾: أي: مُتَتابِعينَ، وأصلُ (ردف): يدلُّ على اتِّباعِ الشَّيءِ(٢).

﴿**يُغَشِّيكُمُ**﴾: أي: يُلقِي عليكم. والغشاوةُ: الغطاءُ والساترُ، وأصلُ (غشي) يدلُّ على تغطيةِ شَيءٍ بشَيءٍ(٣).

﴿**النُّعَاسَ**﴾: أي: النَّومَ القليلَ، أو أوَّلَ النَّومِ، وهو ما كان مِنَ العينِ، وهو فُتورٌ يَعتري الإنسانَ، ولا يفقِدُ معَه عقلَه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٩-٣٥٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٤)، =

﴿**أَمَنَةً**﴾: أي: أمنًا وأمانًا، وأصلُ الأمنِ: طمأنينةُ النفسِ، وزوالُ الخوفِ، وسكونُ القلبِ(١).

﴿**رِجْزَ الشَّيْطَانِ**﴾: أي: وساوِسَه، وأصلُ الرِّجْزِ: الاضطرابُ(٢).

﴿**وَلِيَرْبِطَ**﴾: أي: لِيشُدَّ، وأصلُ (ربط) يدلُّ على شَدٍّ وثَباتٍ(٣).

المَعنى الإجماليُّ:

اذكُروا- أيُّها المؤمنونَ- حين طَلَبْتُم الغَوثَ مِنَ اللهِ بأن ينصُرَكم على عدُوِّكم، فاستجابَ لكم، ووعَدَكم بأن يُمِدَّكم بألفٍ مِن الملائكةِ، يأتونَ مُتتابعينَ للقِتالِ معكم، وما جعَلَ الله هذا الإمدادَ إلَّا ليكونَ بِشارةً لكم بالنَّصرِ، ولِتَسكُنَ قلوبُكم بمَقْدَمِها، وما النَّصرُ إلَّا مِن عند اللهِ، إنَّ اللهَ عزيزٌ حَكيمٌ.

واذكروا حين ألقى اللهُ عليكم النُّعاسَ؛ أمانًا لقُلوبِكم، وأنزلَ عليكم مِن السَّماءِ مَطرًا؛ ليُطَهِّرَكم به من الأحداثِ والجَناباتِ، ويُذهِبَ عنكم وساوِسَ الشَّيطانِ، ولِيشُدَّ على قلوبِكم، ويُثبِّتَ بالمطرِ أقدامَكم، بتَلبيدِه الأرضَ، فلا تغوصُ فيها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ⑨﴾.

= ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٨١)، ((تفسير القرطبي)) (٣/ ٢٧٢)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٦١٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨٩) (٣/ ١٨٤، ٢٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ أنَّه يُحِقُّ الحقَّ، ويُبطِلُ الباطِلَ؛ بيَّنَ أنَّه تعالى نصَرَهم عند الاستغاثةِ(١).

وأيضًا لَمَّا عَلِمُوا أنَّه لا بدَّ مِن القِتالِ؛ شَرَعوا في طلَبِ الغَوثِ مِن اللهِ تعالى(٢).

سبَبُ النُّزولِ:

عن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا كان يومُ بدرٍ، نظرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى المشركينَ وهم ألفٌ، وأصحابُه ثلاثُمئةٍ وتسعةَ عشرَ رجلًا، فاستقبَلَ نبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم القبلةَ، ثم مدَّ يدَيه فجعَلَ يهتِفُ بربِّه؛ اللهمَّ أنجِزْ لي ما وعدْتَني، اللهمَّ آتِ ما وعدتَني، اللهمَّ إنْ تَهلِكْ هذه العصابةُ مِن أهلِ الإسلامِ لا تُعبَدْ في الأرضِ، فما زال يهتِفُ بربِّه، مادًّا يدَيه، مستقبِلَ القِبلةِ، حتى سقطَ رداؤُه عن مَنكِبَيه، فأتاه أبو بكرٍ، فأخذَ رداءَه فألقاه على مَنكِبَيه، ثم التزَمَه مِن ورائِه، وقال: يا نبيَّ اللهِ، كفاك مُناشَدتُك ربَّك؛ فإنَّه سيُنجِزُ لك ما وعَدَك، فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾))(٣).

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾.

أي: إذ(٤) تدعونَ ربَّكم، وتَطلُبونَ منه أن يُعينكم، وينصُرَكم على العدوِّ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٧٨).

(٣) رواه مسلم (١٧٦٣).

(٤) قال الشنقيطيُّ: (قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾ قال بعضُ العلماءِ: (إذ) منصوبٌ بـ (اذكر) مقدرًا، وقد ذكرنا أنَّه يكثرُ في القرآنِ نصبُ الظرفِ الذي هو (إذ) بلفظةِ (اذكر) كقولِه: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ﴾ [الأحقاف: الآية ٢١] ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً﴾ [الأعراف: الآية ٨٦] ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ﴾ [الأنفال: الآية ٢٦] ونحو ذلك. قال بعضُ العلماءِ: (إذ) =

لقلَّتِكم(١).

﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾.

أي: فأجاب اللهُ تعالى دعاءَكم، بأنَّني مُقوِّيكم بألفٍ مِن الملائكةِ(٢)، يأتونَ

= في قولِه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾ بدلٌ مِن (إذ) في قولِه: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: الآية ٧]. ((العذب النمير)) (٤/ ٥٣٠)، ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٠٤).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ «إذ» متعلقةٌ بـ«يبطل»، والمعنى: ويُبْطِلَ الباطِلَ حِينَ تَسْتَغيثونَ رَبَّكم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦).

(٢) واختَلف أهلُ العلمِ هل كان المددُ يومَ بدرٍ ألفًا فقط، أو كان خمسةَ آلافٍ، على قولينِ:

القولُ الأولُ: أنَّ الله أمدَّ المؤمنين يومَ بدرٍ بخمسةِ آلافٍ؛ لقولِه تعالى في سورةِ آل عمران: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤، ١٢٥] قالوا: لأنَّ القصةَ في آل عمران هي قصةُ بدرٍ، وهي المذكورةُ في سورةِ الأنفال، والسياقُ واحدٌ؛ لأنَّه قال هنا: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال: ١٠] وقال في آل عمران: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] وقال هنا: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧] وقال في آل عمران: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٧] فالسياقُ هو السياقُ. وأما التَّنصِيصُ على الألفِ هاهنا فلا يُنافي الثلاثةَ الآلافَ فَما فوقَها، وقد أشارت آيةُ الأنفالِ إلى أنَّ المددَ مِن الملائكةِ لا يقتصرُ على الألفِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ على قراءة الجمهور معناه: يتبعُ بعضُهم بعضًا، مِن: أردف الرجلُ الرجلَ، إذا كان وراءَه رِدْفًا له، فدلَّ على أنَّهم وراءَهم شيءٌ أُردِفوا به، ويوضِّح هذا المعنى قراءةُ نافع: ﴿مُرْدَفين﴾ بصيغةِ اسمِ المفعولِ، معناه: مردَفين بغيرهم، أنَّهم متبوعون بغيرِهم. وهذا قولُ ابنِ عباسٍ، ومجاهدٍ، وقتادةَ، والروايةُ الأُخرى عن عِكرمةَ، واختاره جماعةٌ مِن المفسِّرين.

القولُ الثاني: أنَّهم أُمِدُّوا يومَ بدرٍ بألفٍ، ولم يُمدُّوا بخمسةِ آلافٍ، إنما كان الوعدُ بالإمدادِ- في قولِه: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾- كان يومَ أُحُدٍ، وكان إمدادًا معلَّقًا على شرطٍ، فلمَّا فات شرطُه، فات الإمدادُ، قالوا: لأنَّ القصةَ في سياقِ أُحُدٍ، وإنَّما أدخل ذِكر بدرٍ اعتراضًا في أثنائِها، ثم عاد الى قصةِ =

إليكم مُتتابِعينَ للقِتالِ معكم، بعضُهم في إثرِ بَعضٍ(١).

عن ابنِ عبَّاس رضِي الله عنهما، قال: ((بينما رجلٌ من المسلمين يومئذٍ يشتدُّ في أثر رجلٍ(٢) من المشركين أمامَه، إذ سمع ضربَةً بالسوطِ فوقَه، وصوتُ الفارسِ يقول: أَقْدِم حَيزومُ، فنظر إلى المشركِ أمامه فخرَّ مُستلقيًا، فنظر إليه فإذا هو قد خُطم(٣) أنفُه، وشُقَّ وجهُه كضربةِ السوطِ، فاخضرَّ ذلك أجمعُ(٤)، فجاء الأنصاريُّ فحدَّثَ بذلك رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: صدقْتَ، ذلك مددٌ السماءِ الثالثةِ، فقتلوا يومئذٍ سبعين، وأسَروا سبعين))(٥).

وعن رفاعةَ بنِ رافعٍ رضي الله عنه، قال: ((جاء جبريلُ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: ما تعُدُّون أهلَ بدرٍ فيكم؟ قال: من أفضلِ المسلمين. أو كلمةً

= أُحُد، وهذا قولُ الضحَّاك ومُقاتل، وإحدَى الرِّوايتين عن عكرمةَ. يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٣٦)، ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٤٠٥).

وتوقَّف ابنُ جريرٍ، وذهَب إلى أنَّ في القرآنِ دلالةً على أنَّهم قد أُمدُّوا يومَ بدرٍ بألفٍ مِن الملائكةِ، وأنَّه لا دلالة في آيةِ آل عمران على أنَّهم أُمدُّوا بالثلاثةِ آلافٍ ولا بالخمسةِ آلافٍ، ولا على أنَّهم لم يُمدُّوا بهم، ولا صحَّ خبرٌ يُثبتُ أنَّهم أُمدُّوا بذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠- ٥٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٣٤-٥٣٥، ٥٣٩).

(٢) يشتدُّ في أثَرِ رجلٍ: أي: يُسرِعُ ويَعدُو في عَقِبِ رَجُلٍ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٩/ ٣٧٨٢).

(٣) خُطِمَ (بضم الخاء): أي: جُرِحَ، وظَهَرَ عليه أثَرُ الضَّربِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٦/ ٢١٠)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٩/ ٣٧٨٢).

(٤) فاخضَرَّ ذلكَ أَجْمَعُ: أي: اسودَّ أثرُ تلك الضَّربة كلِّه؛ فإنَّ الخُضرةَ قد تُستعمَلُ بمعنى السَّوادِ، كعكسِه، للمُبالغةِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٦/ ٢١٠)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٩/ ٣٧٨٢).

(٥) رواه مسلم (١٧٦٣).

نحوَها، قال: وكذلك من شَهِد بدرًا من الملائكةِ))(١).

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ ﴾.

أي: وما جعل اللهُ تعالى هذا الإمدادَ إلَّا ليكونَ بِشارةً لكم بالنَّصرِ(٢).

﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ﴾.

أي: وأمدَّكم بالملائكةِ؛ لِتسكُنَ قُلوبُكم بمَقْدَمِها إليكم، ويزولَ عنها القَلَقُ والانزعاجُ والمخاوِفُ، وتُوقِنَ بنَصرِ اللهِ لكم(٣).

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

أي: لن تُنصَروا على عَدُوِّكم إلَّا أن ينصُرَكم اللهُ تعالى عليهم؛ لأنَّ الأمرَ كُلَّه له، والنَّصرَ بيَدِه وَحْدَه، فلا تظنُّوا- إن أنزَلْتُ عليكم ألفًا من الملائكةِ- أنَّ النَّصرَ بأيديهم(٤).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

إنَّ اللهَ الذي ينصُرُكم، عزيزٌ: لا يقهَرُه شيءٌ، ولا يغلِبُه غالِبٌ، بل يَقهَرُ كلَّ شَيءٍ، ويَغلِبُه فيَخذُلُ مَن بَلَغوا من الكثرةِ وقُوَّةِ العَدَدِ والآلاتِ ما بَلَغوا، حكيمٌ:

---

(١) رواه البخاري (٣٩٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ٢٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٣٩-٥٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٠٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤١).

يُقدِّرُ الأمورَ بأسبابِها، ويضَعُ الأشياءَ مواضِعَها، ومِن ذلك شَرْعُه قتالَ الكفَّارِ، مع قُدرَتِه على دمارِهم وإهلاكِهم، حكيمٌ في تدبيرِه وفي نصرِه مَن نَصَر، وخِذلانِه مَن خَذَل، ولا يدخُلُ تدبيرَه وَهَنٌ ولا خلَلٌ⁽¹⁾.

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه استجاب دعاءَهم، ووعَدَهم بالنَّصرِ، فقال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾- ذكرَ عَقيبَه وُجوهَ النَّصرِ(٢)، فقال:

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾.

أي: واذكُرُوا حينَ ألقى اللهُ تعالى عليكم النُّعاسَ؛ لأجلِ أن تكونُوا آمنينَ، ليس في قلوبِكم خوفٌ ولا جزعٌ مِن عَدُوِّكم(٣).

وهذا قد وقع يومَ أحدٍ أيضًا، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ...﴾ [آل عمران: ١٥٤].

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٨-٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤١-٥٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٩-٦١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٢- ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٥٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤٤).
واختلف أهلُ العِلمِ في وقتِ وُقوعِ هذا النُّعاسِ، فقيل: كان في ليلةِ الغَزوةِ، وقيل: في النَّهارِ وقتَ التِحامِ الصَّفَّينِ. يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤٤-٥٤٦).

أي: وينزِّل اللهُ تعالى عليكم مِن السَّماءِ مَطرًا؛ ليُطهِّرَكم به مِن الأحداثِ والجَنابات⁽¹⁾.

﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

أي: وأنزَلَ ذلك المطرَ؛ ليُذهِبَ عنكم وساوِسَ الشَّيطانِ، وخَواطِرَه السَّيئةَ⁽²⁾.

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾.

أي: وأنزلَ عليكم المطرَ؛ لِيُقَوِّيَ قلوبَكم، ويشُدَّها فتثبُتَ، ولا تضطرِبَ بوساوِسِ الشَّيطانِ، وتمتلئَ باليقينِ والنَّصرِ، وتقوَى على الصَّبرِ، والإقدامِ على مُقاتلةِ الأعداءِ⁽³⁾.

﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾.

أي: وأنزل عليكم المطرَ ليلبِّدَ⁽⁴⁾ لكم الأرضَ؛ فتَثبُتَ عليها أرجُلُكم، ولا تغوصَ فيها⁽⁵⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٧-٦٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤٦-٥٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤٧).

(٤) ليلبِّدَ لكم الأرضَ: أي: يجعَلَها قويَّةً لا تسوخُ فيها الأقدامُ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٣/ ٣٨٦)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٩/ ١٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤٧).
وقال ابنُ كثيرٍ: (﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: بالصَّبرِ والإقْدامِ على مُجالدةِ الأعداءِ، وهو شجاعةُ الباطنِ، ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ وهو شجاعةُ الظَّاهرِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤).

الفَوائدُ التربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ يدلُّ على أنَّ مَنِ استَغاثَ باللهِ كانت استغاثَتُه بالله سببًا للإجابةِ، وإزالةِ المَكروهِ عنه؛ فالفاءُ سببيَّةٌ، والإجابةُ مُسبَّبةٌ عن الاستغاثةِ باللهِ(١).

٢- الواجِبُ على المُسلِمِ ألَّا يتوكَّلَ إلَّا على اللهِ تعالى في جميعِ أحوالِه، ولا يثِقَ بغَيرِه؛ فإنَّ اللهَ تعالى بيَدِه النَّصرُ والإعانةُ؛ يُرشِدُ إلى ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٢).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: يُثبِّتَها؛ فإنَّ ثَباتَ القَلبِ أصلُ ثَباتِ البَدَنِ(٣).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قد أثنى اللهُ جلَّ وعلا على نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعلى أصحابِه، بالتجائِهم إليه وَقتَ الكَربِ يومَ بَدرٍ، في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ فنَبيُّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان هو وأصحابُه إذا أصابهم أمرٌ أو كربٌ التجَؤوا إلى اللهِ، وأخلَصُوا له الدُّعاءَ(٤).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ فيه سرعةُ إجابةِ الله لهم، دلَّ على ذلك قَولُه: ﴿فَاسْتَجَابَ﴾ أي: فأوجَدَ الإجابةَ إيجادَ مَن هو طالِبٌ لها، شَديدُ الرَّغبةِ فيها(٥).

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٣٤، ٥٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١٠).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٣١).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ يُفيدُ أنَّ ما عِندَه تعالى ليس مُنحصِرًا في الإمدادِ بالملائكةِ؛ فالنَّصرُ وإن كان بها، فليس مِن عِندِها، فلا تعتَمِدوا على وُجودِها، ولا تَهِنُوا بفَقْدِها، واعتَمِدوا عليه سُبحانه خاصَّةً؛ فإنَّ ما عنده مِن الأسبابِ لا يُحاطُ به عِلمًا، هذا إذا أراد النَّصرَ بالأسبابِ، وإن أرادَ بغَيرِ ذلك فعَلَ، فكان التعبيرُ بـ (عند) لإفهامِ ذلك⁽¹⁾.

٤- تخصيصُ النُّعاسِ بأنَّه مِن اللهِ تعالى في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ﴾ مع أنَّ كلَّ نَومٍ ونُعاسٍ لا يحصُلُ إلَّا مِن قِبَلِ اللهِ تعالى؛ لا بُدَّ فيه مِن مَزيدِ فائدةٍ، فقيل في بيانِها: إنَّ الخائِفَ مِن عَدُوِّه خوفًا شَديدًا، لا يأخُذُه النَّومُ، فصار حصولُ النَّومِ في وَقتِ الخَوفِ الشَّديدِ دليلًا على زَوالِ الخَوفِ، وحُصولِ الأمنِ.

وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّهم خافوا مِن جِهاتٍ كثيرةٍ: قِلَّةِ المُسلمينَ، وكثرةِ الكُفَّارِ، وكثرةِ الأُهْبةِ والآلةِ والعُدَّةِ للكافِرينَ، والعَطَشِ الشَّديدِ، فلولا فضلُ الله ثم حصولُ النُّعاسِ، وحُصولُ الاستراحةِ حتى تمكَّنُوا في اليومِ الثَّاني من القِتالِ؛ لَمَّا تمَّ الظَّفَرُ.

وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّ النُّعاسَ غَشِيَهم دَفعةً واحدةً مع كَثرَتِهم، وحصولُ النُّعاسِ للجَمعِ العَظيمِ على الخَوفِ الشَّديدِ؛ أمرٌ خارِقٌ للعادةِ⁽²⁾.

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ هذا أصلُ الطَّهارةِ بالماءِ في الأحداثِ والنَّجاساتِ⁽³⁾.

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ كلمةُ (على) تفيدُ الاستعلاءَ،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٤٦٧-٤٦٨).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٣٤).

فالمعنى أنَّ القلوبَ امتلأَتْ مِن ذلك الرَّبطِ، حتى كأنَّه علا عليها، وارتفَعَ فَوقَها(١).

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ أعاد اللَّامَ؛ إشارةً إلى أنَّه المقصِدُ الأعظَمُ، وما قبله وسيلةٌ إليه(٢).

٨- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ توقيفٌ على أنَّ الأمرَ كُلَّه لله، وأن تكَسُّبَ المرءِ لا يُغني إذا لم يُساعِدْه القَدَرُ، وإن كان مطلوبًا بالجِدِّ، كما ظاهرَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بين دِرعَينِ(٣) وهذه القصَّةُ كُلُّها من قصَّةِ الكفَّارِ وغَلَبةِ المُؤمنينَ لهم، تليقُ بها مِن صِفاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ، العِزَّةُ والحكمةُ إذا تُؤُمِّلَ ذلك(٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾

- صيغةُ الاستقبالِ في ﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾ لحكايةِ الحالِ الماضِيةِ؛ لاستحضارِ صُورَتِها العجيبةِ(٥).

- والسين والتاء في ﴿فَاسْتَجَابَ﴾ للمُبالغةِ في تحقيقِ المَطلوبِ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٦٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٣٧).

(٣) ظاهَرَ بين دِرعَين: أي: عاون بينهما في التحصُّنِ، فلبس واحدًا على آخَرَ ليتوقَّى بهما. والدِّرعُ: قميصٌ مِن الحَديدِ المُتشابِك كان يُلبَسُ وِقايةً مِن سلاحِ العَدُوِّ. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٢/ ٢٥٩)، ((مطالع الأنوار)) لابن قرقول (٣/ ٢٣)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) لأحمد مختار عمر (١/ ٧٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٧٤).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

هو كلامٌ مُستأنَفٌ، سِيقَ لِبيانِ أنَّ الأسبابَ الظَّاهرةَ بمَعزِلٍ عن التأثيرِ، وإنَّما التأثيرُ مختَصٌّ به عزَّ وجلَّ؛ ليَثِقَ به المؤمنونَ، ولا يقنَطُوا من النَّصرِ عند فُقدانِ أسبابِه⁽¹⁾.

- وقال تعالى هنا: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وقال في آلِ عِمرانَ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] فزاد ﴿لَكُمْ﴾ في آيةِ آلِ عِمرانَ، وقدَّمَ القُلوبَ على المجرورِ، فقال: ﴿قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾، وأخَّرها هنا فقال: ﴿بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾، واستأنَفَ تأكيدَ الإخبارَ بالصِّفَتينِ العَلِيَّتينِ هنا بـ «إنَّ»، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ولم تَرِدَا جارِيَتينِ على اسمِ اللهِ سبحانَه كما هناك؛ حيث قال: ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾؛ وذلك لِمُناسباتٍ حَسنةٍ، بيانُها على النَّحوِ التَّالي:

- حَذَفَ ﴿لَكُمْ﴾ هنا؛ دفعًا لِتكريرِ لَفظِه؛ لِسَبْقِ كَلمةِ ﴿لَكُمْ﴾ قَريبًا في قَولِه: ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾، فعَلِمَ السَّامِعُ أنَّ البُشرى لهم، فأغنَت ﴿لَكُمْ﴾ الأولى بِلَفظِها ومعناها، عَن ذِكرِ ﴿لَكُمْ﴾ مرَّةً ثانيةً؛ ولأنَّ آيةَ آلِ عِمرانَ سِيقَت مَساقَ الامتنانِ والتَّذكيرِ بِنِعمةِ النَّصرِ في حينِ القِلَّةِ والضَّعفِ، فكان تقييدُ ﴿بُشْرَى﴾ بأنَّها لأجْلِهم، زيادةً في المنَّةِ، أي: جعلَ الله ذلك بُشرَى لأجْلِكم. وأمَّا آيةُ الأنفالِ هنا، فهي مَسوقةٌ مَساقَ العِتابِ على كراهِيَةِ الخُروجِ إلى بَدرٍ في أوَّلِ الأمرِ، وعلى اختيارِ أن تكونَ الطَّائفةُ التي تُلاقيهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٨).

غيرَ ذاتِ الشَّوكةِ، فجَرَّدَ ﴿بُشْرَى﴾ عن أن يُعَلَّقَ به ﴿لَكُمْ﴾؛ إذ كانت البُشرى للنَّبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومَن لم يتردَّدوا مِن المُسلِمينَ.

- تقديمُ المجرورِ هنا في قَولِه: ﴿بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ وهو يفيدُ الاختصاصَ، فيكونُ المعنى: ولتطمئِنَّ به قلوبُكم، لا بِغَيرِه، وفي هذا الاختصاصِ تعريضٌ بما اعتَرَاهم مِن الوَجَلِ مِن الطَّائفةِ ذاتِ الشَّوكةِ، وقناعَتِهم بغَنْمِ العُروضِ التي كانت مع العِيرِ.

- أمَّا قولُه: ﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ في صيغةِ النَّعتِ في آلِ عِمرانَ، وجَعْلُهما هنا في صيغةِ الخَبَرِ المؤكَّدِ؛ إذ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فَلِأنَّه نَزَّلَ المُخاطَبينَ- هنا- مَنزلةَ مَن يتردَّدُ في أنَّه تعالى مَوصوفٌ بهاتينِ الصِّفَتينِ: وهما العِزَّةُ- المقتَضِيةُ أنَّه إذا وعد بالنَّصرِ لم يُعجِزْه شَيءٌ- والحكمةُ: فما يَصدُرُ مِن جانِبِه يجِبُ غَوْصُ الأفهامِ في تَبَيُّنِ مُقتضاه، فكيف لا يهتدونَ إلى أنَّ اللهَ لَمَّا وعَدَهم الظَّفَرَ بإحدى الطَّائِفَتينِ، وقد فاتَتْهم العِيرُ، أنَّ ذلك آيِلٌ إلى الوَعدِ بالظَّفَرِ بالنَّفيرِ⁽¹⁾.

- وجملةُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ مُستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، جُعِلَت كالإخبارِ بما ليس بمعلومٍ لهم، وهي تعليلٌ لِما قَبلَها مُتضَمِّنٌ للإشعارِ بأنَّ النَّصرَ الواقِعَ على الوَجهِ المذكورِ، مِن مقتَضياتِ الحِكَمِ البالغةِ⁽²⁾.

٣- قولُه تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٧٦-٢٧٧).

ويُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ سورةِ آل عمرانَ من هذا التفسير المحرَّر (٢/ ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٧٧).

- قوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ﴾ صيغةُ المُضارِعِ في ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ لاستحضارِ الحالةِ(١).

- قولُه: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ إسنادُ هذا الإنزالِ إلى اللهِ تعالى؛ للتَّنبيهِ على أنَّه أكرَمَهم به؛ وذلك لِكَونِه نزَلَ في وقتِ احتياجِهم إلى الماءِ(٢).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٧٩).

الآيات (١٢-١٤)

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (١٣) ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ (١٤)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿الرُّعْبَ﴾: أي: الجَزَعَ والهَلَع والخوفَ، وقيل: الرُّعب هو الخوفُ الذي يملأُ الصَّدرَ والقلبَ، وقيل: إنَّه أشدُّ الخوفِ، وأصلُ الرُّعب: يدلُّ على الخوفِ، والملءِ، والقَطع(١).

﴿بَنَانٍ﴾: أي: أطرافِ أصابعِ اليَدينِ والرِّجلَينِ، واشتِقاقُه مِن قَولِهم: أبَنَّ بالمكانِ: إذا أقام، فالبَنانُ به يُعْتَمَدُ كُلُّ ما يكونُ للإقامَةِ والحَياةِ(٢).

﴿شَاقُّوا﴾: أي: حَاربُوا، أو خَالَفُوا وجانبوا، وأصلُ (شقق): يدلُّ على انصداعٍ في الشَّيءِ(٣).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ١٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٦)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢/ ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٢).

﴿ذلكم فَذُوقُوهُ﴾: يجوزُ في ﴿ذَلِكُمْ﴾ عدةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: أن يكونَ خبرًا لِمُبتدأٍ محذوفٍ، أي: العِقابُ ذَلِكم، أو الأمرُ ذلِكم. الثاني: أن يكون مبتدأً، والخبرُ محذوفٌ، أي: ذلِكم واقعٌ أو مُستحَقٌّ، أو ذَلِكم العِقابُ. الثالث: أن يكون مفعولًا به لفعلٍ محذوفٍ، يُفَسِّره ما بعده، أيْ: ذُوقُوا ذلكم، وهو على هذا من بابِ الاشتِغالِ.

﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾: (أنَّ) واسمُها وخبَرُها مصدرٌ مُؤوَّلٌ، في إعرابِه أوجُهٌ؛ منها: أنَّه في محلِّ رَفعِ مُبتدأٍ، والخبرُ محذوفٌ، تقديرُه: حَتْمٌ، أي: كونُ عذابِ النَّارِ للكافرينَ حتْمٌ. والثاني: أنَّه خبرُ مُبتدأٍ محذوفٍ، أي: الواجِبُ كونُ عذابِ النَّارِ للكافرينَ. وجملةُ المصدرِ المؤوَّلِ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾. وقيل غيرُ ذلك.

- وقُرِئ ﴿وإنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النارِ﴾ بكسرِ همزةِ ﴿إنَّ﴾ على أنَّها جملةٌ استئنافِيَّة، لا محلَّ لها من الإعرابِ⁽¹⁾.

المَعنى الإجماليُّ:

اذكُرْ- يا مُحمَّدُ- حينَ أوحَى رَبُّك إلى الملائكةِ أنَّه معهم، وأمرَهم أن يُثبِّتوا الذينَ آمنوا، وأعلَمَهم تعالى أنَّه سيُلقي في قلوبِ الكُفَّار الخوفَ الشَّديدَ، وأمَرَهم أن يضربوا فوقَ أعناقِ المُشركينَ، ويَضرِبوا كلَّ طَرَفٍ ومَفصِلٍ مِن أطرافِ أصابعِ أيديهم وأرجُلِهم.

وذلك بسببِ أنَّهم خالفوا أمرَ اللهِ ورسولِه، وحارَبُوهما، ومَن يفعلْ ذلك، فإنَّ اللهَ يُعاقِبُه، وهو سبحانه شديدُ العِقابِ.

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣١٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٦١٩-٦٢٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٥٨١-٥٨٣)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخرَّاط (١/ ٣٦٤).

هذا العذابُ والنَّكالُ، فذوقوه أيُّها الكافرونَ مُعجَّلًا في الدُّنيا، وأيقِنوا أنَّ لكم ولِغَيرِكم مِن الكَفَرةِ عذابَ النَّارِ مُؤجَّلًا في الآخرةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾.

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾.

أي: اذكُرْ- يا مُحمَّدُ- وقتَ أن أوحَى رَبُّك إلى الملائكةِ⁽¹⁾- الذينَ أمدَّ بهم حِزبَه المؤمنين- أنِّي مَعَكم بِالعَونِ والنَّصرِ والتَّأييدِ⁽²⁾.

﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

أي: فقَوُّوا عزمَ المُؤمنينَ يومَ بَدرٍ، وصَحِّحوا نيَّاتِهم في قتالِ عَدُوِّهم، وجَرِّئوهم عليهم، وألْقُوا في قلوبِهم الأمنَ والطُّمأنينةَ، وأعينُوهم على القتالِ، وبَشِّروهم بالنَّصرِ⁽³⁾.

﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾.

أي: سأُرعِبُ قلوبَ الذينَ كفَروا بي، فخالَفُوا أمري، وكذَّبُوا رسولي، وأملَؤُها

---

(١) قيل: يُمكِنُ أن يكونَ وَحيَ إلهامٍ، ويمكِنُ أن يكونَ وَحيَ إعلامٍ. يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/٥٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦).

وقيل: العاملُ في ﴿إِذْ﴾، «يُثَبِّت» أي يُثَبِّت به الأقدامَ ذلك الوقتَ. وقيل: العاملُ «ليربط» أي: وليربط إذ يُوحِي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤٨-٥٤٩).

خوفًا شديدًا حتى ينهزموا(١).

كما قال تعالى في سياقِ الحديثِ عن غَزوةِ أُحُدٍ: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب: ٢٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ [الحشر: ٢].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أُعطِيتُ خمسًا، لم يُعطَهنَّ أحدٌ منَ الأنبياءِ قَبلي: نُصِرتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شَهرٍ(٢)...)) الحديث(٣).

﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾.

أي: فاضربوا أيُّها الملائكةُ(٤) رؤوسَ المُشركينَ، فحُزُّوها، وأعناقَهم فاقْطَعُوها(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٤٩).

(٢) نُصِرتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شَهرٍ: أي: أنَّ الأعداءَ يَخافونَني ويقَعُ في قُلوبِهم الفَزَعُ وبيني وبينهم مسيرةُ مَسافةِ شهرٍ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٦/ ٩١)، ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٣/ ٤١).

(٣) رواه البخاري (٤٣٨)، ومسلم (٥٢١).

(٤) هذا اختيارُ الواحديِّ، والقرطبيِّ، وابنِ عاشورٍ، والشنقيطيِّ. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٥٠).

وقيل: هذا الأمرُ مِن اللهِ تعالى موجَّهٌ إلى المؤمنينَ، يُعَلِّمُهم كيفيَّةَ قَتلِ المُشركينَ وضَربِهم. وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن =

قال تعالى للمؤمنين: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤].

﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾.

أي: واضرِبُوا مِن المُشركينَ كُلَّ طَرَفٍ ومَفصِلٍ مِن أطرافِ أصابعِ أيديهم وأرجُلِهم[1].

= كثير)) (٤/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٥٠-٥٥٣).

واختلف المفسِّرون في معنى قولِه تعالى: ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ فقيل: معناه: اضرِبوا الرُّؤوسَ. وهذا اختيارُ الواحديِّ. يُنظر: ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٤٤٨).

وممن ذهب إليه مِن السَّلف عكرمةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧١).

وقيل معنى: ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ أي: على الأعناقِ، وهي الرِّقابُ. وهذا اختيارُ ابنِ عاشورٍ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٣). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥).

وممَّن ذهب من السَّلف إلى أنَّ المعنى اضرِبوا الأعناقَ عَطِيَّةُ والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٠).

ورجَّحَ ابنُ جريرٍ القَولَ بالعُمومِ، وأنَّ المُرادَ: الرُّؤوسُ والأعناقُ. فقال: (قَولُه: ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ مُحتَمِلٌ أن يكونَ مرادًا به الرُّؤوسُ، ومُحتَمِلٌ أن يكونَ مُرادًا به فوقَ جِلدةِ الأعناقِ، فيكون معناه: على الأعناقِ، وإذا احتمَلَ ذلك صَحَّ قَولُ مَن قال: معناه الأعناقُ، وإذا كان الأمرُ مُحتَمِلًا ما ذكَرْنا من التَّأويلِ، لم يكُنْ لنا أن نُوجِّهَه إلى بعضِ معانيه دون بعضٍ إلَّا بحُجَّةٍ يجِبُ التَّسليمُ لها، ولا حُجَّةَ تَدُلُّ على خُصوصِه، فالواجِبُ أن يُقالَ: إنَّ اللهَ أمَرَ بِضَربِ رُؤوسِ المُشركينَ وأعناقِهم وأيديهم وأرجُلِهم، أصحابَ نَبِيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، الذين شَهِدوا معه بَدرًا). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧١).

وقال الزمخشري: (أراد أعاليَ الأعناقِ التي هي المذابحُ؛ لأنَّها مفاصلُ، فكان إيقاعُ الضربِ فيها حزًّا وتطييرًا للرؤوسِ). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٠٤).

وقال ابنُ عطيةَ: (ويحتملُ عندي أن يريدَ بقولِه: ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ وصفَ أبلغِ ضرباتِ العنقِ وأحكمِها، وهي الضربةُ التي تكونُ فوقَ عظمِ العنقِ، ودونَ عظمِ الرأسِ في المفصلِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٠٨).

وقال الشنقيطيُّ: (وأظهَرُ الأقوالِ وأقرَبُها للصَّوابِ ما قالَه بعضُ العُلَماءِ: أنَّ الله علَّمَ الملائكةَ أو أصحابَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلم حَزَّ الرُّؤوسِ، وبيَّنَ لهم مَفصِلَ الرَّأسِ الذي يُطيرُ الرَّأسَ عن الجُثَّةِ، وأنَّه فَوقَ الأعناقِ؛ لأنَّ الرَّقبةَ المحِلُّ الذي تُركَّبُ منه في الرأسِ هو مَفصِلٌ للحَزِّ، إذا ضَرَبَه الإنسانُ طار الرَّأسُ بِسُرعةٍ، وكان ذلك أهونَ لإبانةِ الرَّأسِ). ((العذب النمير)) (٤/ ٥٥٢).

[1] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧١-٧٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) =

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذا تعليلٌ لِتسليطِ اللهِ تعالى المؤمنينَ على المُشركينَ[1].

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾.

أي: هذا الفِعلُ مِن ضَربِ هؤلاءِ المُشركينَ فَوقَ الأعناقِ، وضَربِ كُلِّ بنانٍ منهم، وتسليطِ أوليائِه عليهم، وإلقاءِ الرُّعبِ في قُلوبِهم- إنَّما هو جزاءٌ وعقابٌ لهم؛ لأنَّهم فارَقُوا أمرَ اللهِ ورسولِه، وحارَبُوهما وخالَفُوهما، فساروا في شِقٍّ، وتَرَكوا الحَقَّ في شِقٍّ آخَرَ[2].

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾.

أي: ومَن يخالِفْ أمرَ اللهِ وأمْرَ رَسولِه، ويفارِقْ طاعَتَهما؛ فإنَّ اللهَ يُعاقِبُه، وهو سبحانَه شَديدُ العقابِ لِمَن أراد عِقابَه، ومِن ذلك تسليطُ أوليائِه عليه في الدُّنيا[3].

﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ أنَّه مَن يُشاقِقِ اللهَ ورَسولَه فإنَّ اللهَ شديدُ العِقابِ؛ بيَّنَ مِن بَعدِ ذلك

= (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٥٣).

[1] (١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٣-٢٨٤).

[2] (٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٣)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٥٤-٥٥٥).

[3] (٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٥٥-٥٥٦).

صِفةَ عِقابِه، وأنَّه قد يكونُ مُعجَّلًا في الدُّنيا، وقد يكون مؤجَّلًا في الآخرةِ⁽¹⁾، فقال:

﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ ﴾.

أي: هذا هو العذابُ والنَّكالُ الذي جعَلْتُه لكم- أيُّها الكافِرونَ المُشاقُّونَ للهِ ورَسولِه- فذوقوه مُعجَّلًا في الدُّنيا⁽²⁾.

﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾.

أي: واعلموا أنَّ لكم ولِغَيرِكم مِن الكفَّارِ أيضًا عذابًا مُؤجَّلًا في النَّارِ، في الدَّارِ الآخِرةِ⁽³⁾.

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- مِن لُطفِ اللهِ بعبدِه أن يُسهِّلَ عليه طاعَتَه، ويُيَسِّرَها بأسبابٍ داخليَّةٍ وخارجيَّةٍ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾⁽⁴⁾.

٢- العَبدُ لا يستَغني عن تثبيتِ اللهِ له طَرْفةَ عَينٍ، فإنْ لم يُثبِّتْه وإلَّا زالت سماءُ إيمانِه وأرضِه عن مَكانِهما، وقد قال تعالى لأكرَمِ خَلْقِه عليه؛ عَبدِه ورَسولِه: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] وقال تعالى لأكرَمِ خَلقِه: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٦).

فالخَلقُ كُلُّهم قِسمانِ: مُوَفَّقٌ بالتَّثبيتِ، ومخذولٌ بتَركِ التَّثبيتِ(١).

٣- مِن سُنَنِ اللهِ تعالى أنَّه حيثما انطلَقَت العُصبةُ المُسلِمةُ في الأرضِ؛ لِتَقريرِ ألوهيَّةِ اللهِ وَحدَه، وإقامةِ مَنهجِ اللهِ وَحدَه، ثم وقَفَ منها عدوٌّ لها موقِفَ المُشاقَّةِ لله ورسولِه- كان التثبيتُ والنَّصرُ للعُصبةِ المُسلِمةِ، وكان الرُّعبُ والهزيمةُ للَّذينَ يشاقُّونَ اللهَ ورَسولَه، ما استقامَتِ العُصبةُ المُسلِمةُ على طريقِ اللهِ، واطمأنَّتْ إلى ربِّها، وتوكَّلَت عليه وَحدَه، وهي تقطَعُ الطَّريقَ، قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾(٢).

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ التَّصريحُ بسبَبِ الانتقام تعريضٌ للمُؤمنينَ؛ لِيَستزيدوا مِن طاعةِ اللهِ ورَسولِه؛ فإنَّ المُشاقَّةَ لَمَّا كانت سبَبَ هذا العِقابِ العَظيمِ، فيُوشِكُ ما هو مخالفةٌ للرَّسولِ بدونِ مُشاقَّةٍ، أن يوقِعَ في عذابٍ دون ذلك، وخليقٌ بأن يكون ضِدُّها- وهو الطَّاعةُ- مُوجِبًا للخَيرِ(٣).

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- ما يحصُلُ في القَلبِ مِن العِلمِ والقوَّةِ ونَحوِ ذلك، قد يجعَلُه اللهُ بواسطةِ فِعلِ الملائكةِ، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾(٤).

٢- قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٤٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٥٠٧).

هذه نِعمةٌ خَفيَّةٌ أظهَرَها اللهُ تعالى لهم؛ ليشكُرُوه عليها(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إن قيل: ما الحِكمةُ في قتالِ الملائكةِ مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مع أنَّ جِبريلَ قادِرٌ على أن يَدفَعَ الكُفَّارَ بريشةٍ مِن جَناحِه؟! فالجوابُ: أنَّ ذلك وقع لإرادةِ أن يكونَ الفِعلُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه، وتكونَ الملائكةُ مَدَدًا على عادَةِ مَدَدِ الجيوشِ؛ رعايةً لِصورةِ الأسبابِ وسُنَّتِها التي أجراها اللهُ تعالى في عبادِه، والله تعالى هو فاعِلُ الجَميعِ(٢).

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ لم يُسنِدْ إلقاءَ الرُّعبِ في قلوبِ الذينَ كَفَروا إلى الملائكةِ، بل أسنده الله إلى نفسه وحده؛ لأنَّ أولئك الملائكةَ المخاطبينَ كانوا ملائكةَ نصرٍ وتأييدٍ، فلا يليقُ بقواهم إلقاءَ الرُّعبِ(٣).

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ فيه أنَّ كُلَّ ما يقَعُ في العالَم هو من تقديرِ اللهِ على حسَبِ إرادَتِه(٤).

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ التَّعبيرُ بإلقاءِ الرُّعبِ في القَلبِ أبلَغُ مِن التَّعبيرِ بـ (رَعَبْتُه) أو (أرعَبْتُه)؛ لِما في التَّعبيرِ بإلقاءِ الرُّعبِ مِن الإشعارِ بأنَّه يُصَبُّ في القلوبِ دَفعةً واحدةً(٥).

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ لَمَّا كان العُنُقُ يُستَرُ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥٠٩).

الحَربِ غالبًا، عبَّرَ بقولِه: ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ أي: الرُّؤوسَ أو أعاليَ الأعناقِ منهم؛ لأنَّها مفاصِلُ ومذابِحُ(١).

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ عبَّرَ بالمضارعِ ندبًا إلى التوبةِ بتقييدِ الوعيدِ بالاستمرارِ(٢).

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ إنَّمَا قَالَ ذَلِكَ مُبَالغَةً في التعذيبِ والانتقامِ، والعربُ تَقولُ للعَدوِّ إذا أصابه المكروهُ: ذُقْ(٣)، وقيل: سمَّاه ذَوقًا؛ لأنَّ الذَّائِقَ أشدُّ إحساسًا بالطَّعمِ مِن المُستمِرِّ على الأكلِ، فكأنَّ حالهم أبدًا حالُ الذَّائِقِ، في إحساسِهم العَذابَ(٤)، وقيل: لَمَّا كان ما وقَعَ للمُشركينَ في وقعةِ بَدرٍ مِن القَتلِ والأسْرِ والقَهرِ، يَسيرًا جدًّا بالنِّسبةِ إلى ما لهم في الآخرةِ- سمَّاه ذَوقًا؛ لِأَنَّ الذَّوْقَ يُعْرَفُ بِهِ طَعْمُ اليسيرِ؛ لِيُعرَفَ به حالُ الكَثيرِ، فعاجِلُ ما حصَل لهم مِن الآلامِ في الدُّنيا كالذَّوقِ القليلِ بالنسبةِ إلى الأمرِ العظيمِ المعدِّ لهم في الآخرةِ(٥).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾

- تعريفُ اللهِ باسْمِ الرَّبِّ، وإضافَتِه إلى ضَميرِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (١/ ٥٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٣٩).

في قَولِه: ﴿رَبُّكَ﴾؛ فيه تنويهٌ بِقَدْرِ نَبِيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإشارةٌ إلى أنَّه فَعَلَ ذلك لُطفًا به، ورَفعًا لشأنِه⁽¹⁾.

- وعُرِّفَ المُثبَّتونَ بالموصولِ في قَولِه: ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ لما تُومِئُ إليه الصِّلةُ ﴿آمَنُوا﴾ مِن كَونِ إيمانِهم هو الباعِثَ على هذه العِنايةِ، فتكونُ الملائكةُ بِعِنايةِ المُؤمنينَ؛ لأجْلِ وَصفِ الإيمانِ⁽²⁾.

- قولُه: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا؛ إخبارًا لهم بما يقتضي التَّخفيفَ عليهم في العَملِ الذي كلَّفَهم اللهُ به⁽³⁾.

- قوله: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ فيه تكريرُ الأمرِ بالضَّربِ؛ لِمَزيدِ التَّشديدِ، والاعتناءِ بأمرِه⁽⁴⁾.

- قوله: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ خُصَّتِ الأعناقُ والبَنانُ؛ لأنَّ ضَرْبَ الأعناقِ إتلافٌ لأجسادِ المُشركينَ، وضَربَ البنانِ يُبطِلُ صلاحيَّةَ المضروبِ للقِتالِ، لأنَّ تَناوُلَ السِّلاحِ إنما يكونُ بالأصابِعِ⁽⁵⁾.

٢- قولُه تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

- تعليلٌ لِما قبله؛ لأنَّ الباءَ في ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ باءُ السَّببيَّةِ، فهي تفيدُ معنى التَّعليلِ؛ ولِهذا فُصِلَت الجُملةُ⁽⁶⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٣).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢٨٣-٢٨٤).

- قولُه: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ تذييلٌ يَعُمُّ كلَّ مَن يُشاقِقُ اللهَ، ويعُمُّ أصنافَ العَقائِدِ(١).

- وفيه إظهارٌ في موضعِ الإضمارِ- حيث لم يقُل: ومَن يُشاقِقْهما- لتربيةِ المَهابةِ، وإظهارِ كمالِ شَناعةِ ما اجتَرَؤوا عليه، والإشعارِ بعلَّةِ الحُكمِ(٢).

- قولُه: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ المراد منه الكنايةُ عَن عِقابِ المُشاقِّينَ، وبذلك يظهَرُ الارتباطُ بين الجزاءِ والشَّرطِ، باعتبارِ لازِمِ الخَبَرِ، وهو الكنايةُ عن تعَلُّقِ مَضمونِ ذلك الخبَرِ بمَن حصَلَ منه مَضمونُ الشَّرطِ(٣).

٣- قَولُه تعالى: ﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾

- الخطابُ فيه مَع الكَفَرةِ على طريقةِ الالتفاتِ(٤).

- وتفريعُ ﴿فَذُوقُوهُ﴾ على جُملةِ: ﴿ذَلِكُمْ﴾ بما قُدِّرَ فيها؛ تفريعٌ للشَّماتةِ على تحقيقِ الوَعيدِ؛ فصيغةُ الأمرِ مُستعمَلةٌ في الشَّماتةِ والإهانةِ(٥).

- قولُه: ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ وُضِعَ فيه الظَّاهِرُ موضِعَ الضَّميرِ- حيثُ لم يَقُلْ: وأنَّ لَكُم- لِتَوبيخِهم بالكُفرِ، وتَعليلِ الحُكمِ به(٦).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١).

الآيتان (١٥-١٦)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿زَحْفًا﴾: أي: متقاربًا بعضُكم إلى بعضٍ، والزَّحفُ تقاربُ القَومِ إلى القَومِ في الحَربِ، أو الدُّنوُّ قليلًا قليلًا، وأصلُ (زحف): يدلُّ على الاندفاعِ، والمُضِيِّ قُدُمًا(١).

﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾: أي: لا تَفِرُّوا مِنهم، وتُعْطوهم ظُهورَكم، ويقال: وَلَّاه دُبُرَه: إذا انهزم، والتولِّي: الإعراضُ بعدَ الإقبالِ، وأصْل الدُّبر: آخِرُ الشيءِ وخلفُه، ضد القُبلِ(٢).

﴿مُتَحَرِّفًا﴾: أي: مائلًا لأجلِ القِتالِ، لا مائلًا هزيمةً؛ بأنْ يُريَهم الفَرَّةَ مكيدةً، وهو يريدُ الكَرَّةَ، وأصلُ (حرف): يدل على العُدُولِ، والانحرافِ عن الشَّيءِ(٣).

﴿مُتَحَيِّزًا إلى فِئَةٍ﴾: أي: مُنضمًّا إلى جماعةٍ، وأصلُ (حوز) يدلُّ على الجَمعِ والتجمُّعِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ٧٩)، ((الكليات)) للكفوي (١ / ٢٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ١٣٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٧).

﴿بَاءَ﴾: أي: رجَع، وانصَرف، ولا يُقالُ: باء إلَّا موصولًا إمَّا بخيرٍ وإمَّا بشَرٍّ، وأصلُ (بوأ): يدلُّ على الرُّجوعِ إلى الشَّيءِ⁽¹⁾.

﴿وَمَأْوَاهُ﴾: أي: مصيرُه، ومقامُه، والمأوى مصدرُ أوَى، يُقال: أوَى إلى كذا، أي: انضمَّ إليه يأوي أويًا ومأوًى، وأصْلُه: التَّجمُّع⁽²⁾.

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ المؤمنين إذا ما قابَلوا الكفَّارَ للقتالِ، فاقترَب بعضُهم من بعضٍ، ألَّا يُولُّوهم ظُهورَهم فِرارًا منهم، فينهَزِموا عنهم، ولكِن لِيثبُتوا، وتوعَّدَ مَن يولِّيهم ظَهْرَه في ذلك الوقتِ بأنَّه يرجِعُ بغضَبٍ مِن اللهِ- عزَّ وجلَّ- ومصيرُه جهنَّمُ، وبئس المصيرُ، إلَّا أنْ تكونَ توليَتُه ظَهْرَه خِداعًا للعدُوِّ، ومكيدةً له، ثم يكرُّ عليه، أو يكونَ مِن أجلِ أن يتنحَّى إلى حيِّزِ جماعةٍ أخرى من المُسلمينَ، يُريدونَ العودةَ إلى القتالِ، فيعودُ معهم فيعاوِنُهم ويُعاوِنونَه، فيجوزُ له ذلك حينَها.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّه سيُلقِي الرُّعبَ في قُلوبِ الكُفَّارِ، وأمَرَ مَن آمنَ بالضَّربِ فَوقَ أعناقِهم وبَنانِهم؛ حرَّضَهم على الصَّبرِ عند مُكافحةِ العَدُوِّ، ونهاهم عن الانهزامِ⁽³⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٧) (١١/ ٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس(١/ ٣١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٠ - ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٩٢).

وأيضًا لَمَّا قرَّرَ تعالى إهانةَ المُشركينَ في الدُّنيا والآخرةِ؛ حسُنَ أن يُتبِعَ ذلك نهيَ مَن ادَّعى الإيمانَ عَن الفِرارِ منهم، وتهديدَ منَ نكَصَ عنهم بعد هذا البيانِ، وهو يَدَّعي الإيمانَ(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَّرَ اللهُ المُسلمينَ بما أيَّدَهم يومَ بَدرٍ بالملائكةِ والنَّصرِ مِن عِندِه، وأكرَمَهم بأنْ نَصَرَهم على المُشركينَ الذينَ كانوا أشدَّ منهم، وأكثَرَ عَددًا وعُدَدًا، وأعقَبَه بأنْ أعلَمَهم أنَّ ذلك شأنُه مع الكافرينَ به- اعترَض في خلالِ ذلك بتحذيرِهم مِن الوَهَنِ، والفِرارِ منهم(٢)، فقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، إذا قابَلْتم الكفَّارَ، وقد دَنَوْا إليكم لِقِتالِكم، ودَنَوتُم إليهم لِقِتالِهم، فاقترَب بعضُكم مِن بَعضٍ(٣).

﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴾.

أي: فحِينذاك لا تُولُّوهم ظُهورَكم فرارًا منهم، فتَنهَزِموا عنهم، ولكنِ اثبُتُوا لقتالِهم(٤).

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ [الأنفال: ٤٥].

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ ﴾.

أي: ومَن يُوَلِّ الكُفَّارَ ظَهْرَه في ذلك الوَقتِ(١).

﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ ﴾.

أي: إلَّا مَن يُوَلِّيهم ظَهْرَه، فينعطِفُ وينحَرِفُ عن اتِّجاهِه؛ ليخدَعَ عَدُوَّه ويُوهِمَه- مكيدةً له ومَكرًا به- أنَّه قد فرَّ منه، وخاف وانهزَمَ، ثم يكِرُّ عليه، فيكونُ ذلك أمكنَ له في قِتالِه، أو أنكى لعَدُوِّه، فلا بأسَ عليه في ذلك(٢).

﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾.

أي: أو إلَّا مَن يُوَلِّيهم ظَهْرَه؛ ليتنحَّى إلى حيِّزِ جماعةٍ أخرى مِن المُسلِمينَ، يريدونَ العودةَ إلى القِتالِ، فيعودُ معهم فيعاونُهم ويعاونونَه، فيجوزُ له ذلك(٣).

﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾.

أي: مَن ولَّاهم الدُّبُرَ بعد الزَّحفِ لقتالٍ، مُنهَزِمًا- بغيرِ نيَّةِ إحدى الخَلَّتينِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٧٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٤٨-٤٤٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٣٤٣-٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧).

قال السَّعدي: (فإن كانت الفئةُ في العَسكرِ، فالأمرُ في هذا واضِحٌ، وإن كانت الفِئةُ في غيرِ مَحلِّ المعركةِ كانهزامِ المسلمينَ بين يدي الكافرينَ، والتجائِهم إلى بلدٍ مِن بُلدانِ المُسلِمينَ، أو إلى عسكرٍ آخَرَ مِن عسكَرِ المُسلمين، فقد ورد مِن آثارِ الصَّحابةِ ما يدُلُّ على أنَّ هذا جائزٌ، ولعل هذا يُقَيَّدُ بما إذا ظَنَّ المسلمونَ أنَّ الانهزامَ أحمَدُ عاقبةً، وأبقَى عليهم. أمَّا إذا ظنُّوا غلَبَتَهم للكُفَّارِ في ثباتِهم لقتالِهم، فيَبعُدُ- في هذه الحالِ- أن تكونَ مِن الأحوالِ المُرخَّصِ فيها، لأنَّه- على هذا- لا يُتصَوَّرُ الفِرارُ المنهيُّ عنه، وهذه الآيةُ مُطلقةٌ، وسيأتي في آخِرِ السورةِ تَقييدُها بالعَدَدِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

اللَّتينِ أباح اللهُ التَّوليَةَ بهما- فقد رَجَعَ بِغَضبٍ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ(١).

﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾.

أي: ومَصيرُه الذي يصيرُ إليه يومَ القِيامةِ، ومُنقَلَبُه ومَقَرُّه؛ نارُ جَهنَّمَ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨١-٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

قال الواحدي: (وأكثَرُ المُفَسِّرينَ على أنَّ هذا الوعيدَ خاصٌّ فيمَن انهزَمَ يومَ بَدرٍ، ولم يكُنْ لهم أن ينحازُوا؛ لأنَّه لم يكُن يومَئِذٍ في الأرضِ فِئةٌ للمُسلمينَ، فأمَّا بعد ذلك فإنَّ المُسلمينَ بعضُهم فئةٌ لبعضٍ). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٤٤٩).

وقال ابنُ كثير: (وقد ذهب ذاهبونَ إلى أنَّ الفِرارَ إنَّما كان حرامًا على الصَّحابة؛ لأنَّه- يعني الجهادَ-كان فرضَ عَينٍ عليهم. وقيل: على الأنصارِ خاصَّةً؛ لأنهم بايَعُوا على السَّمعِ والطَّاعة في المَنشَطِ والمَكْرَه. وقيل: إنَّما المرادُ بهذه الآيةِ أهلُ بدرٍ خاصَّةً... وحُجَّتُهم في هذا: أنَّه لم تكن عِصابةٌ لها شَوكةٌ يَفيئونَ إليها سوى عِصابَتِهم تلك، كما قال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «اللهمَّ إنْ تَهلِكْ هذه العِصابةُ، لا تُعبَدْ في الأرضِ»؛ ولهذا قال عبدُ الله بن المبارك، عن مبارك بن فضالة، عن الحسَن في قوله: ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾ قال: ذلك يومَ بدرٍ، فأمَّا اليومَ: فإنِ انحازَ إلى فئةٍ أو مصرٍ- أحسَبُه قال- فلا بأسَ عليه... وهذا كلُّه لا ينفي أن يكونَ الفِرارُ مِن الزَّحفِ حرامًا على غيرِ أهلِ بَدرٍ، وإن كان سببُ النُّزولِ فيهم، كما دلَّ عليه حديثُ أبي هُريرةَ المتقَدِّمُ، من أنَّ الفِرارَ مِن الزَّحفِ مِن المُوبِقاتِ، كما هو مَذهَبُ الجماهيرِ، والله تعالى أعلم). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩-٣٠).

وقال ابنُ جرير: (وأولى التأويلينِ في هذه الآيةِ بالصَّوابِ عندي قَولُ من قال: حُكمُها مُحكَمٌ، وأنَّها نزلت في أهلِ بَدرٍ، وحُكمُها ثابتٌ في جميعِ المؤمنين، وأنَّ اللهَ حَرَّمَ على المؤمنينَ إذا لَقُوا العَدُوَّ أن يُوَلُّوهم الدُّبُرَ مُنهَزِمينَ، إلَّا لتحَرُّفٍ لقتالٍ، أو لتحيُّزٍ إلى فئةٍ مِنَ المؤمنينَ، حيث كانت من أرضِ الإسلام، وأنَّ مَن ولَّاهم الدُّبُرَ بعد الزَّحفِ لقتالٍ مُنهَزِمًا- بغيرِ نِيَّةِ إحدى الخَلَّتينِ اللَّتينِ أباح اللهُ التَّوليةَ بهما- فقد استوجَبَ مِن اللهِ وَعيدَه، إلَّا أن يتفضَّلَ عليه بِعَفوِه). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

قال الواحدي: (قَولُه: ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ﴾ لا يدلُّ على التَّخليدِ، ومعناه: أنَّ مَرجِعَه إليها إلى وقتِ الرَّحمةِ والشَّفاعةِ). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٤٥٠). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٨٤).

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

أي: وبِئسَ الموضِعُ الذي يصيرُ إليه⁽١⁾.

وقال تعالى عمَّن ولَّى من المسلمين دُبرَه فرارًا مِن المشركينَ، يومَ تلاقَى الفريقانِ بأُحُدٍ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((اجتَنِبوا السَّبعَ المُوبقاتِ. قالوا: يا رسولَ اللهِ: وما هُنَّ؟ قال: الشِّركُ باللهِ، والسِّحرُ، وقتلُ النَّفسِ الَّتي حرَّم اللهُ إلَّا بالحقِّ، وأكلُ الرِّبا، وأكلُ مالِ اليَتيمِ، والتَّولِّي يومَ الزَّحفِ، وقذفُ المُحصَناتِ المؤمناتِ الغافلاتِ))⁽٢⁾.

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

في قولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ نهيٌ عن توليةِ العَدُوِّ الأدبارَ، وتضَمَّنَ هذا النَّهيُ الأمرَ بالثَّباتِ والمُصابَرة⁽٣⁾.

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِ الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ عبَّر بلَفظِ توليةِ الدُّبُرِ في وعيدِ كلِّ فَردٍ، كما عبَّر به في نهيِ الجَماعةِ؛ لتأكيدِ حُرمةِ جريرةِ الفرارِ مِن الزَّحفِ، وكونِ الفَردِ فيها كالجماعةِ⁽٤⁾.

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٢).

(٢) رواه البخاري (٢٧٦٦) واللفظ له، ومسلم (٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥١٣).

فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ فيه تحريمُ الفِرارِ مِن الزَّحفِ، وأنَّه مِن الكبائِرِ⁽¹⁾.

٣- قولُه تعالى: ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ فيه رَدٌّ على الجهميَّةِ في إنكارِهم الغضبَ⁽²⁾.

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ كأنَّ المُنهزِمَ أراد أن يأوِيَ إلى مكانٍ يأمَنُ فيه من الهَلاكِ، فعُوقِبَ على ذلك بجَعْلِ عاقِبَتِه التي يصيرُ إليها دارَ الهَلاكِ، والعَذابِ الدَّائِمِ، وجُوزِيَ بضِدِّ غَرَضِه مِن مَعصيةِ الفِرارِ⁽³⁾.

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ خِطابٌ لِلمُؤمنينَ بحُكمٍ كُلِّيٍّ جارٍ فيما سيقَعُ مِن الوقائِعِ والحروبِ، جِيءَ به في تضاعيفِ القِصَّةِ؛ إظهارًا للاعتناءِ بِشأنِه، ومبالغةً في حَضِّهم على المُحافظةِ عليه⁽⁴⁾

- وأُطلِقَ على مَشيِ المُقاتِلِ إلى عَدُوِّه في ساحةِ القِتالِ (زَحفٌ)؛ لأنَّه يَدنُو إلى العدُوِّ باحتراسٍ، وترَصُّدِ فُرصةٍ، فكأنَّه يزحَفُ إليه⁽⁵⁾.

- وعبَّرَ عن حالِ لِقائِهم بالمصدَرِ مبالغةً في التَّشبيهِ، فقال: ﴿زَحْفًا﴾ أي: حالَ كَونِهم زاحفينَ مُحارِبينَ، وهم مِن الكَثرةِ بحيثُ لا يُدرَكُ مِن حَرَكتِهم -وإن كانَت سَريعةً- إلَّا مِثلُ الزَّحفِ⁽⁶⁾.

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٦).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٤٠).

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾

- (توليةُ الأدبارِ) كنايةٌ عن الفِرارِ مِن العَدُوِّ بِقَرينةِ ذِكرِه في سياقِ لقاءِ العَدُوِّ؛ فهو مُستعمَلٌ في لازِمِ معناه مع بعضِ المعنى الأصليِّ(١).

- وعَدلَ عن لَفظِ (الظُّهورِ) إلى لَفظِ (الأدبارِ) في قَولِه: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾؛ تقبيحًا لِفِعلِ الفارِّ، وتبشيعًا لانهزامِه(٢).

- قوله: ﴿ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ ﴿مِنَ اللَّهِ﴾صِفةٌ لـ ﴿غَضَبٍ﴾ مؤكِّدةٌ لِما أفادَه التَّنوينُ مِن الفخامةِ والهَولِ بالفخامةِ الإضافيَّةِ، أي: بغضَبٍ كائنٍ منه تعالى(٣).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣).

الآيات (١٧-١٩)

﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ (١٧) ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ (١٨) إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١٩)﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿وَلِيُبۡلِيَ﴾ أي: وليُنْعِمَ، والبلاءُ: النِّعْمَةُ، وأيضًا: الاختبارُ، والمكروهُ والشِّدَّةُ، والبلاءُ يكونُ في الخيرِ والشَّرِّ، يُقال: أبلاه بالنِّعمةِ، وبلاه بالشِّدةِ، وقد يدخلُ أحدُهما على الآخرِ، فيقال: بلاه بالخيرِ، وأبلاه بالشَّرِّ، وأصلُ (بلي) الاختبارُ والامتحانُ⁽¹⁾.

﴿مُوهِنُ﴾: أي: مُضعِفُ، والوَهْنُ: ضعفٌ مِن حيثُ الخَلْق، أو الخُلُق، وأصلُ (وهن): يَدلُّ على ضَعْفٍ⁽²⁾.

﴿تَسۡتَفۡتِحُواْ﴾: أي: تَستَنصِروا، أو: تَسْتحكموا، أو: تسألوا الفَتحَ، وأصل (فتح): يَدلُّ على خِلافِ الإغلاقِ⁽³⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٧).

المَعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ نَبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمؤمنينَ الذين شَهِدوا معه بَدرًا: أنَّه ليس بِحَولِكم وقُوَّتِكم- أيُّها المؤمنونَ- قَتَلتُم أعداءَكم المُشركينَ يومَ بَدرٍ، ولكنَّ الذي قتَلَهم على الحقيقةِ، ونَصَرَكم عليهم هو اللهُ، وما رمَيتَ- يا محمَّدُ- حينَ رَمَيتَ وجوهَ المُشركينَ بِقَبضةٍ مِن حَصباءَ أو تُرابٍ، ولكِنَّ اللهَ هو مَن رَمى، ولكي يُنعِمَ على المؤمِنينَ بعَطاءٍ حَسَنٍ يَشكرونَه عليه قتَلَ المُشركينَ، ورماهم بما رماهم به يومَ بَدرٍ؛ إنَّ اللهَ سميعٌ عليمٌ، ذلكم وأنَّ اللهَ سيُضعِفُ كلَّ مَكرٍ وكيدٍ يكيدُ به الكفَّارُ للإسلامِ وأهلِه.

ثم يُخاطِبُ اللهُ المُشركينَ الذينَ حارَبوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابَه يومَ بَدرٍ: إنْ كُنتُم طَلَبتُم مِن اللهِ يومَ بَدرٍ أن يحكُمَ بينكم وبينَ المُؤمنينَ؛ بأن يُوقِعَ عذابَه بالمُعتَدينَ الظَّالِمين منكم ومنهم- فقد جاءَكم ما سألتُم؛ بأنْ نَصَرَ اللهُ المظلومَ على الظَّالمِ، والمُحِقَّ على المُبطِلِ، بأنْ أوقَعَ بكم يومَ بَدرٍ، وإن تنتَهُوا- يا كفَّارَ قُريشٍ- عمَّا أنتم عليه، فهو خيرٌ لكم، وإن تَعودُوا إلى حَربِ مُحمَّدٍ وقتالِه وقِتالِ أتباعِه المؤمِنينَ؛ نَعُدْ عليكم بالهزيمةِ والقَتلِ والأسْرِ، ولن ينفَعَكم جمعُكم شيئًا ولو كثُرَ عَدَدُهم، وأنَّ اللهَ مع المؤمنينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا نهى اللهُ تعالى المؤمنينَ عن التَّولِّي بالأدبارِ انهزامًا عند قتالِ الكُفَّارِ- وصل هذا النَّهيَ بما هو حُجَّةٌ على جَدارَتِهم بالانتهاءِ عنه، كأنَّه يَقولُ: يا أيُّها

المؤمنونَ، لا تُوَلُّوا الكُفَّارَ ظُهورَكم في القِتالِ أبدًا؛ فأنتم أَوْلى منهم بالثَّباتِ والصَّبرِ، ثم بنَصرِ الله تعالى، فها أنتم أولاءِ قد انتصَرتُم عليهم على قِلَّةِ عَدَدِكم وعُدَدِكم، وكَثرَتِهم واستعدادِهم، وإنَّما ذلك بتأييدِ اللهِ تعالى لكم، ورَبْطِه على قُلوبِكم، وتثبيتِ أقدامِكم، وإلقائِه الرُّعبَ في قلوبِ أعدائِكم، فلم تَقتُلوهم ذلك القَتلَ الذَّريعَ بِمَحضِ قُوَّتِكم، واستعدادِكم الماديِّ(١).

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾.

أي: ليس بحَولِكم وقُوَّتِكم - أيُّها المؤمنونَ- قتَلْتُم أعداءَكم المُشركينَ يومَ بَدرٍ، ولكِنَّ الذي قتَلَهم على الحقيقةِ وأظفَرَكم بهم، ونَصَركم عليهم، هو اللهُ تعالى وَحدَه؛ فهو من تسبَّبَ بِقَتلِهم، حيث أمرَكم بقِتالِهم، وأعانكم على ذلك، ورَبَط على قُلوبِكم(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٦].

وقال سبحانه: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥١٥-٥١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٢- ٨٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

قال ابنُ تيميَّةَ: (فإنَّ قَتْلَهم حصلَ بأمورٍ خارجةٍ عن قُدرَتِهم؛ مِثل: إنزالِ الملائكةِ، وإلقاءِ الرُّعبِ في قُلوبِهم). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ١٨).

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

سَببُ النُّزولِ:

عن حكيمِ بنِ حِزامٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا كان يومُ بدرٍ أمَرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فأخذَ كفًّا من الحَصباءِ فاستقبَلَنا به، فرمانا بها، وقال: شاهتِ الوجوهُ، فانهزَمْنا، فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾))(١).

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

أي: وما أوصلتَ الرميَ- حين رميتَ وجوهَ المُشركينَ بقبضةٍ مِن حَصباءَ، أو حفنةٍ مِن ترابٍ- فأنت حذَفْتَهم ورَمَيْتَهم بذلك فحَسْبُ، ولكن الذي تولَّى إيصالَها إليهم، هو اللهُ تعالى، بقُوَّتِه وقُدرَتِه، لا أنت(٢).

﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى قتَلَ المُشركينَ، ورماهم بما رماهم به يومَ بَدرٍ؛ لأجْلِ هَزيمَتِهم، وأيضًا لِيُنعِمَ على المُؤمنينَ بِعَطاءٍ حَسَنٍ عظيمٍ، يَشكرونَه عليه، مِن

---

(١) أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (١٥٨٢٢)، وابن أبي حاتم في ((التفسير)) (٨٩٠٦)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (٣/ ٢٠٣) (٣١٢٨) واللفظ له.

حسَّن إسنادَه الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ٨٧)، وقال الوادعيُّ في ((صحيح أسباب النزول)) (١١٣): حسن لغيره.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٤)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣٩٤- ٣٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

قال ابنُ تيميَّةَ: (وكذلك الرَّميُ، لم يكُن في قُدرَتِه أنَّ التُّرابَ يُصيبُ أعينَهم كلِّهم، ويُرعِبُ قُلوبَهم؛ فالرَّميُ الذي جعَلَه اللهُ خارجًا عن قُدرةِ العَبدِ المعتادِ، هو الرَّميُ الذي نفاه اللهُ عنه). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ١٨).

وقال أيضًا: (المنفيُّ هو وُصولُ الرَّميِ إلى الكُفَّارِ وتأثيرُه فيهم، والمُثبَتُ هو الحَذفُ الذي فَعَلَه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلم). ((الرد على البكري)) (١/ ٤٣٩).

النَّصرِ والظَّفَرِ بالغَنائِمِ في الدُّنيا، والأجرِ والثَّوابِ على جِهادِهم في الآخِرةِ⁽¹⁾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الله سميعٌ لِدُعاءِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومُناشَدَتِه ربَّه لإهلاكِ المُشركينَ يَومَ بَدرٍ؛ سَميعٌ لأقوالِ جَميعِ خَلْقِه، عليمٌ بذلك كُلِّه، وبنِيَّاتِهم وبما فيه صَلاحُهم، عليمٌ بمَن يستحِقُّ منهم النَّصرَ، ويعلَمُ غيرَ ذلك مِن الأشياءِ، فيُقَدِّرُ على العبادِ أقدارًا مُوافِقةً لعِلمِه وحِكمَتِه، ويَجزيهم بحسَبِ نيَّاتِهم وأعمالِهم⁽²⁾.

﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٨﴾.

أي: ذلك الفِعلُ؛ مِن قَتلِ المُشركينَ ورَمْيِهم حتى انهزَموا، والإنعامِ عليكم- أيُّها المؤمنونَ- بالظَّفَرِ بهم، والانتصارِ عليهم، ذلك هو فِعْلُنا الذي فَعَلْنا، وثَمَّ بِشارةٌ أخرى مع ما حصَلَ مِن هذا النَّصرِ لكم، وهي أنَّ اللهَ تعالى سيُضعِفُ- فيما يُستقبَلُ- كُلَّ مَكرٍ وكَيدٍ يَكيدُ به الكُفَّارُ للإسلامِ وأهلِه، وسيجعَلُ مَكرَهم مُحِيقًا بهم⁽³⁾.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٩﴾.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٧-٨٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥١١)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٩٦).

قال الخازن: (أجمع المُفَسِّرونَ على أنَّ البلاءَ هنا: بمعنى النِّعمةِ). ((تفسير الخازن)) (٢/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٨- ٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

أي: إنْ تَستَحكِموا اللهَ- أيُّها المُشركونَ- ليفصِلَ بينكم وبينَ أعدائِكم المُؤمنينَ، فتَستَقضوه على أقطَعِ الحِزبَينِ للرَّحِم، وأظلَمِ الفِئتَينِ منكم، وتستنصِروه؛ لِيُوقِعَ عذابَه على المُعتَدينَ الظَّالِمينَ منكم- فقد جاءكم ما سألْتُم مِن حُكمِ اللهِ؛ بِنَصرِه المظلومَ على الظَّالمِ، والمحِقَّ على المُبطِلِ، وذلك حين أوقَعَ بكم عِقابَه يومَ بَدرٍ(١).

﴿وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾.

أي: وإن تَنْتَهوا- يا كفَّارَ قُرَيشٍ- عن الشِّركِ والكُفرِ باللهِ، والتَّكذيبِ لِرَسولِه، وقتالِ نَبِيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنينَ به؛ فهو خيرٌ لكم في الدُّنيا والآخرةِ(٢).

﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ﴾.

أي: وإن تَعودُوا إلى ما كُنتُم فيه مِن الكُفرِ والضَّلالِ، وإلى حَربِ مُحمَّدٍ وقتالِه، وقِتالِ أتباعِه المؤمِنينَ؛ نَعُدْ عليكم بمِثلِ الواقعةِ التي أُوقِعَتْ بكم يومَ بَدرٍ، بالهزيمةِ والقَتلِ والأسْرِ(٣).

﴿وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ﴾.

أي: وإنْ عُدتُم- أيُّها المُشركونَ- فحينَها لن يُغنيَ عنكم جَمعُكم مِن جُنودِكم وأعوانِكم أيَّ شيءٍ، ولن يَدفَعوا عنكم شيئًا البتَّةَ، ولو كثُر عددُهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٤)، ((الرد على البكري)) لابن تيمية (١/ ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٩٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٩٥-٩٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٩٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قراءتان:

١- قراءة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على أنَّها تعليلٌ للجملةِ قبلَها(١).

٢- قراءة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على أنَّها جملةٌ استئنافيةٌ، منقطعةٌ عمَّا قبلَها(٢).

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

أي: ولأنَّ اللهَ تعالى مع مَن آمَنَ به على مَن كَفَر به وأشرَكَ، فلن تُغنِيَ عنكم فِئَتُكم شيئًا ولو كَثُرت؛ فهو سبحانَه معهم بالعونِ، والنصرِ على أعدائِهم، كما أظْهَرهم يومَ بدرٍ على المشركينَ، ومَن كان اللهُ عزَّ وجلَّ معه فلا غالِبَ له، وإن كان ضعيفًا، قليلَ العَدَد والعُدَّةِ(٣).

---

(١) قرأ بها المدنيانِ (نافعٌ وأبو جعفرٍ)، وابنُ عامرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٣٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣١٠).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٣٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٩٥- ٩٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧).
قال السَّعدي: (وهذه المعيَّةُ التي أخبَرَ اللهُ أنَّه يُؤَيِّدُ بها المؤمنين، تكونُ بحَسَبِ ما قاموا به من أعمالِ الإيمانِ، فإذا أُدِيلَ العَدُوُّ على المؤمنين في بعضِ الأوقاتِ، فليس ذلك إلَّا تفريطًا مِن المؤمنينَ، وعدَمَ قيامٍ بواجِبِ الإيمانِ ومُقتضاه، وإلَّا فلو قاموا بما أمَرَ الله به مِن كُلِّ وَجهٍ، لَمَا انهزَمَ لهم رايةٌ انهزامًا مُستقِرًّا، ولا أُدِيلَ عليهم عَدُوُّهم أبدًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٧-٣١٨).

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ فيه أثبتَ اللهُ سُبحانه لنبيِّه الرَّميَ، مع نَفيِ تأثيرِه عنه، وإثباتِه لِمَن إليه تُرجَعُ الأمورُ؛ تأديبًا منه سُبحانه لهذه الأمَّةِ، أي: لا ينظُرْ أحدٌ إلى شيءٍ مِن طاعتِه؛ فإنَّا قد نَفَينا هذا الفِعلَ العَظيمَ عن أكمَلِ الخَلقِ، مع أنَّه عالمٌ مُقِرٌّ بأنَّه مِنَّا، فلْيَحذرِ الذي يرى له فِعلًا، مِن عظيمِ سَطواتِنا، ولكن لِينسُبْ جَميعَ أفعالِه الحَسَنةِ إلى اللهِ تعالى، كما نُسِبَ الرَّميُ إليه بِقَولِه: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾⁽¹⁾.

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ جرى هذا مَجرى التَّحذيرِ والتَّرهيبِ؛ لئلَّا يغترَّ العبدُ بظواهِرِ الأمورِ، ولِيَعلَمَ أنَّ الخالِقَ تعالى يطَّلِعُ على ما في الضَّمائِرِ والقُلوبِ⁽²⁾.

٣- الكَثرةُ لا تكونُ سَببًا للنَّصرِ، إلَّا إذا تساوَتْ مع القِلَّةِ في الثَّباتِ والصَّبرِ، والثِّقةِ باللهِ عزَّ وجلَّ، قال تعالى: ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾⁽³⁾.

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ فيه ردٌّ على القَدَريَّةِ⁽⁴⁾؛ لأنَّه جَلَّ ثناؤُه أضافَ قَتلَهم إلى نَفسِه، ونفاه عن المُؤمنين به، الذين قاتَلُوا المُشركين؛ إذ كان جلَّ ثَناؤُه هو مُسَبِّبَ قَتلِهم، وعَن أمْرِه كان قتالُ المُؤمنينَ إيَّاهم، وكذلك سائِرُ أفعالِ الخَلقِ المُكتَسَبةِ: مِن اللهِ الإنشاءُ والإنجازُ بالتَّسبيبِ،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥١٩).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٣٤).

ومن الخَلقِ الاكتسابُ بالقُوى⁽¹⁾.

٢- نفَى الله تعالى ما صرَّح بإثباتِه في قولِه: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾- ولم يُصرِّحْ في قولِه: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ بِقَولِه: (إذْ قَتلتُموهم)؛ لأنَّ الرميَ كان أمرًا خارقًا للعادةِ، مُعجزًا، وآيةً مِن آياتِ اللهِ⁽²⁾.

بلاغة الآيات:

١- قولُه تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ قدَّمَ المُسنَدَ إليه على المُسنَدِ الفِعليِّ في قَولِه: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ دون أن يُقالَ: (ولكنْ قتَلَهم اللهُ)؛ لمجَرَّدِ الاهتمامِ لا الاختصاصِ؛ لأنَّ نَفيَ اعتقادِ المُخاطَبينَ أنَّهم القاتِلونَ قد حصل مِن جُملةِ النَّفيِ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾، فصار المُخاطَبونَ مُتطلِّبينَ لِمَعرفةِ فاعِلِ قَتلِ المُشركينَ، فكان مُهِمًّا عندهم تعجيلُ العِلمِ به⁽³⁾.

- وتجريدُ الفعلِ (رمى) عن المفعولِ به في قَولِه: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾؛ لأنَّ المقصودَ الأصليَّ بيانُ حالِ الرَّميِ نفيًا وإثباتًا؛ إذ هو الذي ظهَرَ منه ما ظهَرَ، وأيضًا للدَّلالةِ على عُمومِه⁽⁴⁾.

٢- قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾

- الإشارةُ بـ ﴿ذَلِكُمْ﴾ إلى البلاءِ الحَسَنِ، وهذه الإشارةُ لِمُجرَّدِ تأكيدِ المَقصودِ مِن البَلاءِ الحَسَنِ، وأن ذلك البلاءَ عِلَّةٌ للتَّوهينِ⁽⁵⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٩٧).

٣- قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

- قوله: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ خطابٌ لأهلِ مكَّةَ على سبيلِ التَّهَكُّمِ بهم، وفيه الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ الذي اقتضاه قَولُه: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾(١).

- وصِيغَ ﴿تَسْتَفْتِحُوا﴾ بصيغةِ المُضارِعِ، مع أنَّ الفِعلَ مضى؛ لِقَصدِ استحضارِ الحالةِ مِن تكريرِهم الدُّعاءَ بالنَّصرِ على المُسلِمينَ(٢).

- قوله: ﴿وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ وعيدٌ فيه بِشارةٌ أنَّ النَّصرَ الحاسِمَ سيكونُ للمُسلمينَ، وهو نصرُ يومِ فَتحِ مَكَّةَ(٣).

- وجملةُ: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ زيادةٌ في تأييسِ المُشركينَ مِن النَّصرِ، وتنويهٌ بِفَضلِ المؤمنينَ، بأنَّ النَّصرَ الذي انتَصَروه هو مِن الله لا بأسبابِهم؛ فإنَّهم دون المشركينَ عَددًا وعُدَّةً(٤).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٠٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٠-٢٢)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٢١ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾: أي: ولا تُعرِضوا عنه، ولا تتركوا طاعته، فالفِعل (ولي)، إذا عُدِّي بـ (عن) لفظًا، أو تقديرًا، اقتَضى معنى الإعراضِ والتَّركِ، وإذا عُدِّي بنَفْسِه اقتَضَى معنى الوَلايةِ والقُرْبِ⁽¹⁾.

﴿الصُّمُّ﴾: أي: الذين يَصَمُّونَ عَن الحَقِّ. والصَّمَمُ: فقدانُ حاسَّةِ السَّمعِ، وبه يُوصَف مَن لا يُصغِي إلى الحقِّ ولا يَقبَلُه، وأصلُ (صمم) يدلُّ على تضامِّ الشَّيءِ⁽²⁾.

﴿الْبُكْمُ﴾: أي: الَّذين لا يتكلَّمونَ بالحَقِّ، جمع أَبْكَم، وهو الأخرسُ الذي لا يتكلَّمُ، وقيل: هو الذي يُولَد أخرس، والبَكَمُ: آفةٌ في اللِّسانِ، مانعةٌ مِن الكَلامِ⁽³⁾.

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ عِبادَه المؤمنينَ بأن يُطيعوه ويُطيعوا رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولا يُعرِضوا عن طاعَتِهما، وهم يَسمعونَ ما نَزَل مِن القُرآن.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ٥٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١ / ١٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ٢٨٤)، ((المفردات)) للراغب (١ / ١٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١ / ١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ٥٣).

ونهاهم أن يكونُوا كالمُشركينَ، الذين إذا سَمِعوا كتابَ اللهِ قالوا: قد سَمِعْنا، ولكنَّهم لا يعتَبِرونَ بما يَسمَعونَه، فهُم بمنزلةِ مَن لم يسمَعْ، وأخبَرَ تعالى أنَّ شَرَّ الدَّوابِّ عنده- عزَّ وجَلَّ- الكُفَّارُ، الذين هم صُمٌّ عن سَماعِ الحَقِّ، بُكْمٌ عن التكَلُّمِ به، لا يَعقِلونَ عن اللهِ مَواعِظَه، ولا أمْرَه ونَهيَه، ولو عَلِمَ اللهُ فيهم خيرًا بقَصدِهم الحَقَّ، وصلاحِيَّتِهم لِقَبولِ ما يُورِدُه عليهم مِن آياتِه، لأمكَنَهم مِن فَهْمِها، ولو فُرِضَ أنَّه أفهَمَهم آياتِه، لابتَعَدوا عنها، وهم مُعرِضونَ عن قَبُولِها بالكليَّةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أرى اللهُ المؤمِنينَ آياتِ لُطفِه، وعِنايَتِه بهم، ورأَوْا فوائِدَ امتثالِ أمْرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالخُروجِ إلى بَدرٍ، وقد كانوا كارِهينَ الخُروجَ- أعقَبَ ذلك بأنْ أمَرَهم بطاعةِ اللهِ ورَسولِه؛ شُكرًا على نِعمةِ النَّصْرِ، واعتبارًا بأنَّ ما يأمُرُهم به خيرٌ عواقِبُه، وحذَّرَهم مِن مُخالفةِ أمْرِ اللهِ ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وفي هذا رُجوعٌ إلى الأمرِ بالطَّاعةِ الذي افتُتِحَت به السُّورةُ⁽¹⁾.

وأيضًا لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّه مع المُؤمنينَ، أمَرَهم أن يَقومُوا بمقتضى الإيمانِ الذي يُدرِكونَ به مَعِيَّتَه⁽²⁾، فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، امتثِلوا أمْرَ اللهِ- تعالى- وأمْرَ رَسولِه، واجتَنِبوا نَهْيَهما⁽³⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠٢-٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨).

﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾.

أي: ولا تُعرِضوا عن طاعةِ رسولِه؛ بمُخالفةِ أمرِه، وارتكابِ نهيِه، وأنتم تَسْمَعونَ أمرَه إيَّاكم ونَهْيَه، وتعلمونَ ما دَعاكُم إليه⁽¹⁾.

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه تعالى لما نهَى عن التولِّي عن رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ زاد في تَشويهِ التَّولِّي عنه، بالتَّحذيرِ مِن التَّشبُّهِ بفِئةٍ ذَميمةٍ، يقولونَ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: سَمِعْنا، وهم لا يُصَدِّقونَه ولا يَعمَلونَ بما يأمُرُهم ويَنهاهم⁽²⁾.

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾.

أي: ولا تكونُوا- أيُّها المُؤمنونَ- بإعراضِكم عَن طاعةِ اللَّهِ، وطاعةِ رَسولِه، كالمُشركينَ الذينَ إذا سَمِعوا بآذانِهم كِتابَ اللهِ يُتلى عليهم، قالوا: قد سَمِعْنا، لكنَّهم في الحقيقةِ لا يَعتَبِرونَ بما يَسمَعونَ، ولا فيه يتفكَّرونَ، ولا ينتَفِعونَ به ولا يتَّعِظونَ؛ فهُم بمنزلةِ مَن لم يَسمَعْها، فلا تكتَفُوا- مِثلَهم- بمجَرَّدِ الدَّعاوى الخاليةِ التي لا حقيقةَ لها⁽³⁾.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

---

(1) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣).

(2) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠٤).

(3) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٩٨-٩٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨).

ذهَب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ المرادَ بالَّذين قالوا: سَمِعنا وهم لا يَسْمعونَ: المُشركونَ. وقيل: بل المرادُ بهم المُنافقون. يُنظر: المصادر السابقة.

لَمَّا كانت حالُ الكُفَّارِ مُشابِهةً لِحالِ الأصَمِّ في عدَمِ السَّماعِ؛ لِعَدمِ الانتفاعِ به، والأبكَمِ في عدَمِ كَلامِه؛ لِعَدمِ تَكلُّمِه بما ينفَعُ، والعادِمِ للعَقلِ في عدَمِ عَقلِه؛ لِعَدمِ انتفاعِه به- قال مُعَلِّلًا للنَّهيِ في قَولِه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ مُعَبِّرًا بأنسَبِ الأشياءِ لِما وصَفَهم به(١):

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢)﴾.

أي: إنَّ شرَّ ما دبَّ على الأرضِ مِن خَلْقِ اللهِ عِندَ اللهِ تعالى، هؤلاءِ الكُفَّارُ(٢) الذين لم ينتَفِعوا بالآياتِ والنُّذُرِ؛ فهم صُمٌّ عن سَماعِ الحَقِّ، بُكمٌ عن التَّكلُّمِ به، لا يَعقِلونَ عَن اللهِ مَواعِظَه، ولا أمْرَه ونَهْيَه(٣).

وقد شَبَّهَهم اللهُ تعالى بالأنعامِ في قَولِه: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

بل جعَلَهم أضَلَّ مِن الأنعامِ، فقال سُبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٤٨).

(٢) قيل: المراد بهم مُشرِكو قُريشٍ، وقيل: المُنافقون. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٠٢-١٠٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤).

قال ابن كثير: (قيل: المرادُ بهؤلاءِ المَذكورينَ نَفَرٌ مِن بني عبدِ الدَّارِ مِن قُريشٍ. رُوِيَ عن ابنِ عَبَّاسٍ ومجاهِدٍ، واختاره ابنُ جرير، وقال محمَّدُ بن إسحاقَ: هم المُنافِقونَ. قلتُ: ولا منافاةَ بينَ المُشركينَ والمُنافقينَ في هذا؛ لأنَّ كُلًّا منهم مسلوبُ الفَهمِ الصَّحيحِ، والقَصدِ إلى العَمَلِ الصَّالِحِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٩٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٣-٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨).

قال ابنُ كثير: (فهؤلاءِ شَرُّ البريَّةِ؛ لأنَّ كُلَّ دابَّةٍ مِمَّا سِواهم مُطيعةٌ للَّهِ- عَزَّ وجَلَّ- فيما خلَقَها له، وهؤلاءِ خُلِقوا للعبادةِ، فكَفَروا). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤).

وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه أخبَرَ تعالى بأنَّ عدَمَ سَماعِهم وهُداهم، إنَّما هو بما عَلِمَه تعالى مِنهم، وسَبَقَ مِن قَضائِه عليهم⁽¹⁾.

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾.

أي: ولو عَلِمَ اللهُ أنَّ في أولئك القَومِ خَيرًا؛ بقَصدِهم الحَقَّ، وصَلاحِيَّتِهم لِقَبولِ ما يُورِدُه عليهم من آياتِه- لأمكَنَهم مِن فَهمِها، ولكِنَّه قد عَلِمَ أنَّه لا خيرَ فيهم، وأنَّهم ممَّن كُتِبَ لهم الشَّقاءُ، فلم يُفهِمْهم⁽²⁾.

﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبَرَ عنهم بانتفاءِ تَعلُّمِهم الحكمةَ والهُدَى؛ فلذلك انتَفَى عنهم الاهتداءُ- ارتَقَى بالإخبارِ في هذا المَعنى بأنَّهم لو قَبِلوا فَهْمَ المَوعِظةِ والحِكمةِ فيما يَسمَعونَه مِن القُرآنِ، وكَلامِ النُّبوَّةِ، لغَلَبَ ما في نُفوسِهم مِن التخَلُّقِ بالباطِلِ، على ما خالَطَها من إدراكِ الخَيرِ، فحالَ ذلك التخَلُّقُ بينهم وبين العَمَلِ بما عَلِموا، فتَوَلَّوا وأعرَضُوا⁽³⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٠٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥١- ٤٥٢)، ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٦٥٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٠-١٢) و(١٧/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠٨).

﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾.

أي: ولو فُرِضَ أنَّه أفهَمَهم آياتِه مع هذه الحالِ التي هُم عليها، لابتَعَدوا عنها وانصَرَفوا، وهم مُعرِضونَ عَن قَبولِها إعراضًا كُليًّا، لا يلتَفِتونَ إليها بوجهٍ مِن الوُجوهِ؛ قصدًا منهم، وعِنادًا للحَقِّ بعد ظُهورِه، والعِلمِ به⁽¹⁾.

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾؛ قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ المقصودُ مِن هذا الحالِ: تشويهُ التَّولِّي المنهيِّ عنه؛ فإنَّ العِصيانَ مع توفُّرِ أسبابِ الطَّاعةِ أشَدُّ منه في حينِ انخرامِ بَعضِها⁽²⁾.

٢- لا ينبغي الاكتفاءُ بمجَرَّدِ الدعوى الخاليةِ التي لا حقيقةَ لها؛ فإنَّها حالةٌ لا يرضاها اللهُ تعالى، فليس الإيمانُ بالتمَنِّي والتحَلِّي، ولكِنَّه ما وقَرَ في القلوبِ، وصَدَّقَته الأعمالُ، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾⁽³⁾.

٣- مِن النَّاسِ مَن يسمَعُ الآياتِ، ويَفهَمُها فَهمًا تَفصيليًّا، ولكنَّه يَجعَلُها بِمَعزِلٍ عن نفسِه، ويتصَوَّرُ أنَّ الكلامَ كُلَّه لِغَيرِه وفي غيرِه، ويقولُ: هذه الآيةُ نزلَت في الكافرينَ أو المُنافِقينَ، لا في أمثالي مِن المؤمنينَ، وإن كان مُتَّصِفًا بما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٠٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٠٧).

قال ابنُ تيميَّةَ: (فقد فَسَدَت فِطرَتُهم فلم يَفهَموا، ولو فَهِموا لم يَعمَلوا، فنفى عنهم صِحَّةَ القُوةِ العِلميَّةِ، وصِحَّةَ القُوَّةِ العَمَليَّةِ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨).

تنهَى عنه، وتتوعَّدُ عليه مِن صِفاتِهم وأعمالِهم؛ فصاحِبُها يَصدُقُ عليه بِوَجهٍ ما أنَّه مِن الذينَ قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾(١).

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ إنَّما كان هؤلاءِ شَرًّا عند اللهِ مِن جَميعِ الدَّوابِّ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أعطاهم أسماعًا وأبصارًا وأفئدةً؛ لِيَستَعمِلوها في طاعَتِه، فاستَعمَلوها في معاصِيه، وعَدِموا- بذلك- الخيرَ الكَثيرَ، فإنَّهم كانوا بصَددِ أن يكونوا مِن خِيارِ البريَّةِ، فأبَوْا هذا الطَّريقَ، واختارُوا لأنفُسِهم أن يكونوا مِن شَرِّ البريَّةِ(٢).

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الله تعالى لا يمنَعُ الإيمانَ والخيرَ، إلَّا ممَّن لا خَيرَ فيه(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ السَّمعُ الذي نفاه اللهُ عنهم، سَمْعُ المعنى المؤثِّرُ في القَلبِ، وأمَّا سَمعُ الحُجَّةِ، فقد قامَت حجَّةُ اللهِ تعالى عليهم بما سَمِعوه مِن آياتِه(٤).

٢- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ دلالةٌ على أنَّ اسمَ الدَّوَابِّ يقعُ على الناسِ، كما يقعُ على البهائمِ؛ لأنَّ كلَّ ماشٍ دَابٌّ(٥).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٥٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٦٦).

لم يَصِفْهم هنا بالعَمى- كما وَصَفَهم في آيةِ الأعرافِ وآيتَي البَقَرةِ- لأنَّ المَقامَ هنا مَقامُ التَّعريضِ بالذينَ ردُّوا دَعوةَ الإسلامِ، ولم يَهتَدُوا بِسَماعِ آياتِ القُرآنِ(١).

٤- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ دلالةٌ على إجازةِ تسميةِ السَّامعِ الناطقِ: «أَصَمُّ؛ أَبْكَمُ» إذا تباعَد عمَّا أُريد منه مِن السماعِ والنُّطقِ؛ وامتنَع مِن استماعِ الموعظةِ والنطقِ بما تأمرُه به، وإنْ كان ناطقًا سامعًا في كلِّ شيءٍ سواها(٢).

٥- قولُه: ﴿خَيْرًا﴾ نكرةٌ في سياقِ الشَّرطِ، فهي تعمُّ، والمعنى: أنَّ الله لا يعلمُ في قلوبِهم خيرًا أبدًا في وقتٍ مِن الأوقاتِ، كائنًا ما كان، ولا زَمَنٍ مِن الأزمانِ(٣).

٦- في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ دلالةٌ على أنَّه سبحانَه يَعْلَمُ الشيءَ قبلَ كَوْنِه(٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ فيه افتتاحُ الخِطابِ بالنِّداءِ؛ للاهتمامِ بما سيُلقَى إلى المخاطبينَ، قَصدًا لإحضارِ الذِّهنِ لِوَعيِ ما سيُقالُ لهم(٥).

- والتَّعريفُ بالموصوليَّةِ في قَولِه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المَوصوفينَ بهذه الصِّلةِ مِن شَأنِهم أن يتقَبَّلوا ما سيُؤمَرونَ به، وأنَّه كما كان الشِّركُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٦٦).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٠٧).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٦٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠٣).

مُسَبَّبًا لِمُشاقَّةِ اللهِ ورَسولِه، فخَليقٌ بالإيمانِ أن يكونَ باعِثًا على طاعةِ اللهِ ورَسولِه⁽¹⁾.

- وإفرادُ الضَّميرِ المجرورِ بـ (عن) في قَولِه: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ دون أن يُقالَ: (ولا تَوَلَّوا عنهما)؛ لأنَّه يَعودُ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فإنَّ المرادَ مِن الآيةِ الأمرُ بطاعَتِه، والنَّهيُ عن الإعراضِ عنه، وذِكرُ طاعةِ اللهِ لِلتَّوطئةِ والتَّنبيهِ على أنَّ طاعةَ اللهِ في طاعةِ الرَّسولِ؛ لأنَّ طاعةَ اللهِ وطاعةَ الرَّسولِ شَيءٌ واحِدٌ، فكأنَّ رُجوعَ الضَّميرِ إلى أحَدِهما كرُجوعِه إليهما⁽²⁾، وقيل غير ذلك⁽³⁾.

- قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ واردةٌ لِتأكيدِ وُجوبِ الانتهاءِ عَنِ التَّولِّي مُطلقًا، لا لتَقييدِ النَّهيِ عنه بحالِ السَّماعِ⁽⁴⁾.

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾

- تقريرٌ للنَّهيِ السَّابِقِ ﴿وَلَا تَوَلَّوْا...﴾، وتحذيرٌ عن مُخالَفَتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالتَّنبيهِ على أنَّها مُؤدِّيةٌ إلى انتظامِهم في سِلكِ الكَفَرةِ، بكَونِ سَماعِهم كَلَا سَماعٍ⁽⁵⁾.

- وفيه تعريضٌ بأهلِ هذه الصِّلةِ مِن الكافرينَ أو المُنافِقينَ⁽⁶⁾.

- قوله: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ جاءتِ الجُملةُ النَّافيةُ ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢١٧-٢١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ١٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠٤).

على غَيرِ لَفظِ المُثبَتة ﴿سَمِعْنَا﴾- إذْ لم تأتِ: (وهُم ما سَمِعوا)- لأنَّ لَفظَ المضِيِّ لا يدلُّ على استمرارِ الحالِ ولا دَيمومَتِه، بخلافِ نَفيِ المُضارِعِ، فكما يدلُّ إثباتُه على الدَّيمومةِ كذلك يجيءُ نَفيُه، وجاء حرفُ النَّفيِ (لا)؛ لأنَّها أوسَعُ في نفيِ المُضارِعِ مِن (ما)، وأدلُّ على انتفاءِ السَّماعِ في المُستقَبلِ، أي: هُم ممَّن لا يَقبَلُ أن يَسمَعَ[1].

– وتقديمُ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفِعليِّ في قَولِه: ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾؛ للاهتمامِ به، ليتقَرَّرَ مفهومُه في ذِهنِ السَّامِعِ، فيرسَخَ اتِّصافُه بمفهومِ المُسنَدِ، وهو انتفاءُ السَّمعِ عَنهم[2].

٣- قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾

– جملةٌ استئنافيَّةٌ، مَسوقةٌ لِبَيانِ كَمالِ سُوءِ حالِ المُشَبَّهِ بهم؛ مبالغةً في التَّحذيرِ، وتقريرًا للنَّهيِ إثرَ تقريرٍ[3].

– وقَولُه ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ قَيدٌ أُريدَ به زيادةُ تَحقيقِ كَونِهم أشَرَّ الدَّوابِّ، بأنَّ ذلك مُقَرَّرٌ في عِلمِ اللهِ، وليس مُجرَّدَ اصطلاحٍ ادِّعائيٍّ[4]، وقيل: لما كان لهم مَن يُفضِّلُهم، وكانت العبرةُ بما عندَه سبحانه، قال تعالى: ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾[5].

– ووُصِفُوا بالصَّمَمِ والبَكَمِ؛ لأنَّ ما خُلِقَ له الأُذنُ واللِّسانُ، سماعُ الحَقِّ والنُّطقُ به، وحيثُ لم يُوجَدْ فيهم شيءٌ من ذلك، صاروا كأنَّهم فاقِدونَ للجارِحَتينِ رأسًا؛ وتقديمُ ﴿الصُّمُّ﴾ على ﴿الْبُكْمُ﴾ لِما أنَّ صَمَمَهم مُتقدِّمٌ

---

[1] يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٢٩٩).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠٤).

[3] يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥).

[4] يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠٦).

[5] يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٤٨).

على بَكَمِهم؛ فإنَّ السُّكوتَ عَن النُّطقِ بالحَقِّ مِن فُروعِ عدمِ سَماعِهم له، كما أنَّ النُّطقَ به مِن فُروعِ سماعِه(١).

- قوله: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وَصَفَهم بعَدَمِ التَّعقُّلِ؛ تحقيقًا لِكَمالِ سُوءِ حالِهم، فإنَّ الأصمَّ الأبكَمَ إذا كان له عَقلٌ، ربَّما يَفهَمُ بعضَ الأمورِ، ويُفهِمُه غيرُه بالإشارةِ، ويهتدي بذلك إلى بَعضِ مَطالبِه، وأمَّا إذا كان فاقِدًا للعَقلِ أيضًا، فهو الغايةُ في الشَّرِّيةِ، وسُوءِ الحالِ(٢).

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾

- وقعَتِ الكنايةُ عن عَدَمِ استعدادِ مَدارِكِهم للخَيرِ، بعِلمِ اللهِ عَدمَ الخَيرِ فيهم. ووقع تشبيهُ عَدمِ انتفاعِهم بِفَهمِ آياتِ القُرآنِ بِعَدمِ إسماعِ اللهِ إيَّاهم؛ لأنَّ الآياتِ كَلامُ اللهِ، فإذا لم يَقبَلوها فكأنَّ اللهَ لم يُسمِعْهم كلامَه، فالمرادُ انتفاءُ الخَيرِ الجبليِّ عنهم، وهو القابليَّةُ للخَيرِ(٣).

- قوله: ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ صَوغُ هذه الجُملةِ بصيغةِ الجُملةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على تمكُّنِ إعراضِهم، أي: إعراضًا لا قَبولَ بعده، وهذا يُفيدُ أنَّ مِن التَّولِّي ما يعقُبُه إقبالٌ، وهو تولِّي الذين تولَّوا، ثمَّ أسلَمُوا بعد ذلك(٤).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٠٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣١١).

الآيات (٢٤-٢٦)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَحُولُ﴾: أي: يَحجُز، وأصلُ الحَوْلِ: تغيُّرُ الشَّيءِ، وانفصالُه عن غَيرِه(١).

﴿يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾: أي: يأخُذونكم بِسُرعةٍ، ويَستَلِبونكم، ويقتلُونكم، والخَطفُ: أخذُ الشَّيءِ بِسُرعةٍ واستِلابٍ(٢).

﴿فَآوَاكُمْ﴾: أي: جعَلَ لكم مَأوًى تأوون إليه، وأصْلُه: يدلُّ على التَّجمُّعِ(٣).

﴿وَأَيَّدَكُمْ﴾: أي: قَوَّاكم وأعانَكم، والأَيْدُ: القُوَّةُ الشَّديدةُ، وأصلُ (أيد): يدلُّ على القوَّةِ والحِفظِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٧)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٩٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٣)، =

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ عِبادَه المُؤمنينَ أن يَستَجيبوا بالطَّاعةِ للهِ وللرَّسولِ، إذا دعاهم الرَّسولُ إلى ما فيه صَلاحٌ وحياةٌ لِأبدانِهم وأرواحِهم في الدُّنيا والآخرةِ، وأن يَعلَموا أنَّ اللهَ يحجُزُ بين المَرءِ وقَلْبِه إذا شاء، وأنَّه إليه تعالى مَصيرُهم يومَ القِيامةِ.

وأمَرَهم أن يَحذَرُوا بلاءً يأتيهم مِن رَبِّهم، لا يختَصُّ وقوعُه بِمَن ظَلَم نفسَه بارتكابِ المعاصي، بل يعُمُّ المُسيءَ وغيرَه، مِمَّن رأى المُنكَر يُرتكَبُ ولم يَنْهَ عنه، ولم يُغَيِّرْه، إن كان قادرًا على ذلك، وأن يَعلموا أنَّه سُبحانَه شَديدُ العِقابِ.

وأمَرَهم أن يَذكُروا إذ هم قَليلٌ عَدَدُهم، يستضعِفُهم أعداؤُهم، يخافونَ أن يَستَلِبَهم الكُفَّارُ، فيأخُذوهم بِسُرعةٍ واحدًا تِلوَ الآخَرِ، فيقتُلوهم، فآواهم اللهُ، وقَوَّاهم وأعانَهم، حتى انتَصَروا على أعدائِهم، ورَزَقهم من الطَّيِّباتِ؛ لعلَّهم يَشكُرونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمِنونَ أجيبُوا اللهَ ورَسولَه بِطاعَتِهما، والمُبادرةِ إلى الانقيادِ لِأمْرِهما، واجتنابِ نَهْيِهما⁽¹⁾.

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٢٥).

(١) يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٠٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١٢).

﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

أي: إذا دعاكم الرَّسولُ إلى ما فيه صلاحٌ لكم، وحياةٌ طيبةٌ نافعةٌ لأبدانِكم وأرواحِكم؛ في الدُّنيا والآخرةِ، كالدَّعوةِ إلى الجِهادِ(١)، والدَّعوةِ إلى تدبُّرِ القُرآنِ والعَمَلِ به، وغَيرِ ذلك مِن كُلِّ ما دعا اللهُ ورَسولُه إليه ظاهِرًا وباطِنًا(٢).

كما قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ

---

(١) قال ابنُ القيِّم: (قَالَ الواحديُّ والأكثرونَ على أنَّ معنَى قولِه: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ هو الجهادُ، وهو قولُ ابنِ إسحاقَ، واختيارُ أكثرِ أهلِ المعاني). ((الفوائد)) (ص: ٨٨)، ويُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٠٥)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٢)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٨٨-٨٩)، ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) لابن القيم (١/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١٢).

ونسَبَ ابنُ عطيَّةَ إلى مجاهِدٍ والجُمهورِ القَولَ بأنَّ المرادَ بما يُحيي المؤمنينَ: الطَّاعةُ، وما تضمَّنَه القرآنُ مِن أوامِرَ ونَواهٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥١٤).

وذكر ابنُ القيِّم عباراتِ السَّلف في معنَى قولِه: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، ومنها: للحقِّ- القرآنِ- الإسلامِ- الحربِ والجهادِ، ثم قال: (وهذه [كُلُّها] عباراتٌ عن حقيقةٍ واحدةٍ، وهي القيامُ بما جاء به الرَّسولُ ظاهِرًا وباطِنًا). وقال أيضًا: (والآيةُ تتناوَلُ هذا كُلَّه؛ فإنَّ الإيمانَ والإسلامَ والقُرآنَ والجهادَ، يُحيي القُلوبَ الحياةَ الطَّيبةَ، وكَمالُ الحياةِ في الجنَّةِ، والرَّسولُ داعٍ إلى الإيمانِ وإلى الجنَّةِ، فهو داعٍ إلى الحياةِ في الدُّنيا والآخرةِ). ((الفوائد)) (ص: ٨٨-٨٩).

وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١].

وشبَّه سبحانه مَن لا يستجيبُ لرسولِه بأصحابِ القبورِ، فقال: ﴿إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾⁽¹⁾ [فاطر: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

وعن أبي سعيدِ بنِ المعلَّى رضي الله عنه، قال: ((كنتُ أُصلِّي في المسجدِ، فدعاني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فلمْ أُجبْهُ، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، إني كنتُ أُصلِّي، فقالَ: ألم يقلِ اللهُ ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾. ثم قال لي: لأُعلِّمنَّكَ سورةً هي أعظمُ السوَرِ في القرآنِ، قبل أن تخرجَ منَ المسجدِ. ثمَّ أخَذ بيدي، فلما أراد أن يخرجَ، قلتُ لهُ: ألم تقلْ: لأُعلِّمنَّكَ سورةً هي أعظمُ سورةٍ في القرآنِ. قال: ﴿الحمدُ للهِ ربِّ العالمِينَ﴾: هي السبعُ المثاني، والقرآنُ العظيمُ الذي أوتيتُهُ))⁽²⁾.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَرَهم اللهُ تعالى بالاستجابةِ له ولرسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ حذَّرهم من التَّخَلُّفِ والتأخُّرِ عن الاستجابةِ، الَّذِي يكونُ سَببًا لِأنْ يحولَ بينَهم وبينَ قُلوبِهم⁽³⁾، فقال:

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾

---

(١) قال ابنُ القَيِّم: (هذا مِن أحسَنِ التَّشبيهِ؛ فإنَّ أبدانَهم قُبورٌ لِقُلوبِهم، فقد ماتت قُلوبُهم وقُبِرَت في أبدانِهم). ((إغاثة اللهفان)) (١/ ٢٢).

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٤).

(٣) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨).

أي: واعلَموا- أيُّها المؤمنونَ- أنَّ اللهَ تعالى يحجُزُ بين العَبدِ وقَلبِه إذا شاء، فلا يستطيعُ المَرءُ أن يُدرِكَ ويعِيَ به شيئًا مِن حقٍّ أو باطلٍ، إلَّا بإذنِ اللهِ تعالى، فقُلوبُكم بيَدِ خالِقِكم سُبحانه، يُصَرِّفُها ويُقَلِّبُها كيف يشاءُ؛ يُصَرِّفُها مِن الهُدى إلى الضَّلالِ، ومِن الضَّلالِ إلى الهُدى، فإيَّاكم أن تردُّوا أمْرَ اللهِ حين يأتِيكم، أو تتثاقَلُوا وتتباطَؤُوا عن الاستجابةِ له، فلا تأمَنُوا حينَها أن يُحالَ بينَكم وبينَ قُلوبِكم، فلا تَقْدِروا على الاستجابةِ بعد ذلك إذا أردْتُموها(١).

كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٢ - ١١٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٢)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٩٠)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٥٧).

وهذا المعنى المذكورُ هو في الجُملةِ اختيارُ ابنِ جريرٍ، والواحديِّ، والسعديِّ، والشنقيطيِّ. ونسبَه ابنُ القَيِّم إلى جمهورِ المُفَسِّرين. يُنظر: المصادر السابقة.

وممن رُوي عنه هذا القولُ مِن السَّلفِ: السُّديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١١).

وثمَّ معنًى آخرُ ذكره الزَّجاج، وذكره الواحدي عن قتادة، وذكره ابنُ القَيِّم، ورآه أنسبَ للسياقِ، وهو أنَّ اللهَ تعالى قريبٌ مِن قَلبِ العَبدِ، وأقرَبُ إليه مِن قَلْبِه، لا يخفَى عليه شيءٌ أظهَرَه أو أسَرَّه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٢/ ٤٠٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٩٢)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٩٠).

وقد أثنَى الله عزَّ وجلَّ على عبادِه الراسخينَ في العلمِ بأنَّهم يقولونَ: ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران:٧] إلى أن قال عنهم: ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾(١) [آل عمران: ٨].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُكثِرُ أن يقولَ: يا مقلِّبَ القُلوبِ! ثبِّتْ قَلبي علَى دِينِك، فقلتُ: يا نبيَّ اللهِ! آمنَّا بك وبما جئتَ بهِ، فهل تخافُ علَينا؟! قال: نعَم؛ إنَّ القُلوبَ بين أُصبعَينِ من أصابعِ اللهِ، يقلِّبُها كيف يشاءُ))(٢).

وعن النوَّاسِ بنِ سمعانَ رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: ((ما مِن قلبٍ إلَّا وهو بينَ أُصبعينِ مِن أصابعِ ربِّ العالمينَ، إن شاء أن يُقيمَه أقامه، وإن شاء أن يُزيغَه أزاغه. وكان يقولُ: يا مُقلِّبَ القلوبِ ثبِّتْ قلوبَنا على دينِك))(٣).

﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾.

أي: واعلَمُوا- أيُّها المؤمنونَ- أيضًا مع العِلمِ بأنَّ اللهَ يَحولُ بينَ المرءِ وقَلْبِه، أنَّ إلى اللهِ تعالى مَصيرَكم ومَرجِعَكم يومَ القيامةِ، فتُجمَعون إليه وَحْدَه، فيُوفِّيكم جزاءَ أعمالِكم؛ إنْ خَيرًا فخيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ، فاحذروا مِن تَرْكِ

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٥٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٤٠)، وابن ماجة (٣٨٣٤)، وأحمد (١٢١٠٧)، والبزار (٧٥٠٨).
حسنه الترمذي، وقال الذهبي في ((الميزان)) (٢/ ٣٤٣): صحيح غريب. وقال المناوي في ((تخريج أحاديث المصابيح)) (١/ ١١٢): رجاله رجال مسلم في الصحيح. وصححه الألباني في ((صحيح الترمذي)) (٢١٤٠).

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٩٩)، وأحمد (١٧٦٣٠) واللفظ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٧٧٣٨).
أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (٩٤٣)، وقال ابنُ منده في ((الرد على الجهمية)) (٨٧): ثابتٌ، رواه الأئمةُ المشاهيرُ ممن لا يمكنُ الطعنُ على واحدٍ منهم، وجوَّد إسنادَه بنحوه العراقي في ((تخريج الإحياء)) (٣/ ٥٦)، وصححه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (١٦٦).

الاستجابةِ لِرَسولِه إذا دعاكم لِما يُحيِيكم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٢].

﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه عقَّبَ التَّحريضَ على الاستجابةِ، المُستلزِمَ التَّحذيرَ مِن ضِدِّها، بتَحذيرِ المُستجيبينَ مِن إعراضِ المُعرِضينَ؛ لِيَعلَموا أنَّهم قد يلحَقُهم أذًى مِن جرَّاءِ فِعلِ غَيرِهم، إذا هم لم يُقَوِّمُوا عِوَجَ قَومِهم؛ كيلا يحسَبُوا أنَّ امتثالَهم كافٍ إذا عصى دَهْماؤُهم، فحَذَّرَهم فتنةً تَلحَقُهم، فتعُمُّ الظَّالمَ وغيرَه(٢)، فقال:

﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ﴾.

أي: احْذَروا- أيُّها المؤمنونَ- مِن بلاءٍ يأتيكم مِن اللهِ، لا يختَصُّ وقوعُه بمَن ظَلَم نَفسَه بارتكابِ المعاصي، بل يعُمُّ المسيءَ وغيرَه، ممَّن يرى المُنكَر يُرتكَبُ، ولا ينهَى عنه، أو يُغيِّرُه مع قدرتِه على ذلك، فحينَ لا تُدفَعُ ولا تُرفَعُ تلك المعاصي الظَّاهرةُ بالنَّهيِ عنها، وقَمْعِ أهلِها، وعدَمِ تَمكينِهم منها، حينَها يعُمُّ اللهُ تعالى الجميعَ بعقابٍ يَحُلُّ بهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٩٢-٣٩٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٣٨٢-٣٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٧-٣٨)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

وعن زينبَ بنتِ جَحشٍ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((استيقَظَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن النَّومِ مُحمَرًّا وجهُه، يقول: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ويلٌ للعَرَبِ من شرٍّ قد اقترَب، فُتِحَ اليومَ من ردْمِ(١) يأجوجَ ومأجوجَ مثلُ هذه. وعقَدَ سُفيانُ تسعينَ أو مِئةً(٢)، قيل: أنَهلِكُ وفينا الصَّالِحونَ؟ قال: نعم، إذا كثُرَ الخبَثُ(٣)))(٤).

وعن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَثَلُ القائمِ على حُدودِ اللَّهِ والواقِعِ فيها، كمَثَلِ قومٍ استَهَمُوا على سفينةٍ، فأصابَ بعضُهم أعلاها وبعضُهم أسفَلَها، فكانَ الَّذينَ في أسفَلِها إذا استَقَوا منَ الماءِ مرُّوا على مَن فَوقَهم، فقالوا: لو أنَّا خَرَقْنا في نَصيبِنا خَرقًا ولم نُؤذِ مَن فَوْقَنا، فإن يترُكوهم وما أرادُوا هلَكوا جميعًا، وإن أخَذُوا على أيدِيهم نَجَوْا، ونَجَوْا جميعًا))(٥).

= السعدي)) (ص: ٣١٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٥٨-٦٠). ونسَب الشنقيطيُّ هذا القولَ إلى جمهورِ المفسِّرينَ.

قال ابنُ كثيرٍ: (والقَولُ بأنَّ هذا التَّحذيرَ يعُمُّ الصَّحابةَ وغَيرَهم- وإن كان الخطابُ معهم- هو الصَّحيحُ، ويدلُّ على ذلك الأحاديثُ الواردةُ في التَّحذيرِ مِن الفِتَنِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٨).

(١) الرَّدْمُ: السَّدُّ، وهو سدٌّ بناه ذو القَرنينِ في وجهِ يأجوجَ ومأجوجَ؛ كي لا يخرجوا مِن مواطِنِهم في الأرضِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٥/ ٣٢٢).

(٢) عَقدُ التِّسعينَ: وهو أنْ تَجعَلَ رأسَ الأصبعِ السَّبَّابةِ في أصلِ الإبهامِ، وتَضُمُّها حتَّى لا يَبِينَ بينَهما إلَّا خَلَلٌ يَسِيرٌ، وعَقدُ المئةِ مِثلُ عَقدِ التِّسعينَ، لكن بالخِنصَر اليُسرى. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢١٦)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ١٠٨).

(٣) الخَبَثُ: المرادُ به الفُسوقُ والفجورُ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ١٠٩).

(٤) رواه البخاري (٧٠٥٩)، واللفظ له، ومسلم (٢٨٨٠).

(٥) رواه البخاري (٢٤٩٣).

وعن قَيسِ بنِ أبي حازمٍ، قال: ((قال أبو بكرٍ، بعد أن حَمِدَ اللهَ، وأثنَى عليه: يا أيُّها النَّاسُ، إنَّكم تَقرَؤونَ هذه الآيةَ، وتَضعونَها على غيرِ مَوضِعِها: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، وإنَّا سَمِعْنا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: إنَّ النَّاسَ إذا رأَوُا الظَّالمَ فلَم يأخُذوا على يدَيْه؛ أوشَكَ أن يعُمَّهم اللهُ بعقابٍ))(١).

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

أي: واعلَموا- أيُّها المُؤمنونَ- أنَّ رَبَّكم شديدٌ عقابُه لِمَن تعرَّض لمساخطِه، وجانَب رِضاه، بتَركِه امتثالَ أوامِره، واجتنابَ نواهِيه(٢).

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ سُبحانه قَولَه: ﴿أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وكان مِن أشَدِّ العِقابِ الإذلالُ؛ حَذَّرَهموه بالتَّذكيرِ بما كانوا فيه مِن الذُّلِّ(٣).

وأيضًا لما أمر الله تعالى بالاستجابةِ له ولرسولِه؛ ذكَّر المُؤمنينَ بنعمتِه عليهم بالعِزَّةِ والنَّصرِ، بعد الضَّعفِ والقِلَّةِ والخَوفِ؛ لِيَذكُروا كيف يَسَّرَ اللهُ لهم أسبابَ النَّصرِ مِن غَيرِ مظانِّها، حتى أوصَلَهم إلى مُكافحةِ عَدُوِّهم، وأنْ يتَّقيَ أعداؤُهم

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٣٨) واللفظ له، والترمذي (٢١٦٨) (٣٠٥٧)، وأحمد (١/ ٢٠٨).
قال الترمذي (حسن صحيح)، والطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (٣/ ٢٠٨)، وابنُ العربيِّ في ((الناسخ والمنسوخ)) (٢/ ٢٠٥)، والألباني في ((صحيح أبي داود)) (٤٣٣٨)، وصحح إسناده النووي في ((الأذكار)) (٤١٢)، وأحمد شاكر في ((مسند أحمد)) (١/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٥٩).

بأسَهم، فكيف لا يستجيبونَ لله فيما بعدَ ذلك، وهم قد كثُروا وعَزُّوا وانتصَرُوا(١)؟!

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: واذكُروا- أيُّها المؤمنونَ- حين كان عَدَدُكم قليلًا جدًّا، أثناءَ مُقامِكم بأرضِ مَكَّةَ، يراكم أعداؤُكم ضُعفاءَ، ويَقْهَرونَكم، ويُؤْذُونكم بسبَبِ إيمانِكم(٢).

﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾.

أي: تَخافونَ أن يستَلِبَكم الكُفَّارُ(٣)، فيأخُذوكم بسرعةٍ، واحدًا تِلوَ الآخَرِ، فيقتلوكم؛ إذ لم تكُنْ لديكم مَنَعةٌ بكثرةٍ ولا بِقُوَّةٍ(٤).

﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾.

أي: فجعَلَ لكم بلدًا تَأْوُونَ إليه مِنهم، وهي المدينةُ: دارُ الهِجرةِ(٥).

﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾.

أي: وقوَّاكم وأعانَكم بأهلِ المَدينةِ؛ الأنصارِ، فتَمَكَّنتُم مِن الانتصارِ على أعدائِكم بِبَدرٍ وغَيرِها(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦٢).

(٣) اختار ابنُ جريرٍ أنَّ المرادَ بالنَّاسِ هنا: مُشرِكو قريشٍ، وذهب ابنُ كثيرٍ إلى أنَّ المُرادَ بهم مَن يُعاديهم مِن النَّاسِ مِن سائرِ بلادِ اللهِ؛ مِن مُشرِكٍ ومَجوسيٍّ وروميٍّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٧، ١١٩، ١٢٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦٢-٥٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٧، ١٢٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٧، ١٢٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٣)، =

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

أي: وأطعَمَكم الغنائِمَ حلالًا طيِّبًا، كما رزَقَكم غنائِمَ يومَ بَدرٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩].

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أي: تذكَّروا هذا الإنعامَ والإحسانَ التَّامَّ؛ لأجْلِ أن تَشكُروا المُنعِمَ سُبحانَه على ذلك، فتُطيعوه وتَعبُدوه وَحدَه؛ حيث كُنتُم قليلينَ فكَثَّركم، وأذلَّةً مُستضعَفينَ خائِفينَ، فأعَزَّكم وقوَّاكم ونَصَركم، وفُقَراءَ عالةً فأغناكم ورزَقَكم(٢).

قال عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وقال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤].

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا

= ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١١٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦٢، ٥٦٤، ٥٦٥).

قال الشنقيطي: (شُكرُ العَبدِ لِرَبِّه. قال بعضُ العُلَماءِ: ضابِطُه المُنطَبِقُ على جُزئيَّاتِه: هو أن يَستعمِلَ جميعَ نِعَمِ الله فيما يُرضِي اللهَ). ((العذب النمير)) (٤/ ٥٦٤).

مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- حياةُ القَلبِ والرُّوحِ تكونُ بالعبوديَّةِ لله تعالى، ولُزومِ طاعَتِه وطاعةِ رَسولِه على الدَّوامِ، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، فقولُه: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ وصفٌ مُلازِمٌ لكُلِّ ما دعا اللهُ ورَسولُه إليه، وبيانٌ لِفائِدَتِه وحِكمَتِه⁽¹⁾.

٢- قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ الحياةُ النَّافعةُ إنَّما تحصُلُ بالاستجابةِ لِلَّهِ ورَسولِه، فمَن لم تحصُلْ له هذه الاستجابةُ، فلا حياةَ له، وإن كانت له حياةٌ بَهيميَّةٌ مُشتَرَكةٌ بينه وبين أرذَلِ الحيواناتِ؛ فالحياةُ الحقيقيَّةُ الطَّيبةُ هي حياةُ مَن استجابَ للهِ والرَّسولِ ظاهرًا وباطنًا، فهؤلاءِ هم الأحياءُ وإن ماتوا، وغيرُهم أمواتٌ وإن كانوا أحياءَ الأبدانِ؛ ولهذا كان أكمَلُ النَّاسِ حياةً أكمَلَهم استجابةً لِدَعوةِ الرَّسولِ، فإنْ كان ما دعا إليه فيه الحياةُ، فمَن فاتَه جُزءٌ منه فاتَه جزءٌ مِن الحياةِ، وفيه من الحياةِ بحَسَبِ ما استجابَ للرَّسولِ⁽²⁾.

٣- اللهُ تعالى هو القادِرُ على الحَيلولةِ بينَ الإنسانِ وبين ما يَشتَهيه قَلبُه؛ فهو بيَدِه تعالى مَلكوتُ كُلِّ شَيءٍ وزِمامُه، قال اللهُ تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾، وفي ذلك حَضٌّ على المُراقبةِ والخوفِ منه تعالى، والبِدارِ إلى الاستجابةِ له⁽³⁾.

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: إلى اللهِ تعالى تُحشَرونَ لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٠٢).

إلى غَيرِه، فيُجازيكم بأعمالِكم، ولا تُترَكونَ مُهمَلينَ مُعَطَّلينَ، وفي ذلك ترغيبٌ شَديدٌ في العَمَلِ، وتحذيرٌ عن الكَسَلِ والغَفلةِ⁽¹⁾.

٥- قوله: ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ قولُه: ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فيه تحذيرٌ شديدٌ، وتخويفٌ لمن يُقصِّرُ في امتثالِ أمرِه، واجتنابِ نهيِه، فليس للمسلمِ أن يُقصِّر في الأمرِ بالمعروفِ، والنهيِ عن المنكرِ ما وجَد إلى ذلك سبيلًا⁽²⁾.

٦- في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ دليلٌ على وجوب المراعاةِ، وأَخْذِ الحذرِ، والاحتراسِ مِن الفتنِ قبلَ وقوعِها⁽³⁾.

٧- النُّقلةُ مِن الشِّدَّةِ إلى الرَّخاءِ، ومِن البَلاءِ إلى النَّعماءِ والآلاءِ؛ تُوجِبُ الاشتغالَ بالشُّكرِ والطَّاعةِ؛ يُرشِدُنا إلى ذلك قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾⁽⁴⁾.

٨- في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ دليلٌ على وجوب تَذَكُّرِ النِّعَمِ؛ والفِكرِ في حُسْنِ صنيعِ اللهِ⁽⁵⁾.

٩- في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٧٣)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٧٤).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٦٩).

تَشْكُرُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ تَذَكُّرَ النِّعَم يَستخرجُ الشكرَ مِن العبدِ؛ فإذا أغفلها أغفلَ الشُّكرَ معها⁽¹⁾.

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ إعادةُ حَرفِ الجَرِّ بعد واو العَطفِ في قَولِه: ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾؛ للإشارةِ إلى استقلالِ المَجرورِ بالتَّعَلُّقِ بفِعلِ الاستجابةِ؛ تَنبيهًا على أنَّ استجابةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أعَمُّ مِن استجابةِ اللهِ؛ لأنَّ الاستجابةَ لِلَّهِ لا تكونُ إلَّا بمعنى الطَّاعةِ، بخلافِ الاستجابةِ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فإنَّها بالمعنى الأعَمِّ- وهو استجابةُ نِدائه، والطَّاعةُ- فأُريدَ أمْرُهم بالاستجابةِ للرَّسولِ بالمعنَيَينِ كُلَّما صَدَرَت منه دعوةٌ تقتضي أحَدَهما⁽²⁾.

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ يقتضي الأمرَ بالامتثالِ لِما يَدعُو إليه الرَّسولُ، سواءٌ دعا حقيقةً بطَلَبِ القُدومِ، أم طَلَبَ عَمَلًا من الأعمالِ؛ فلذلك لم يكُن قَيدُ ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ مقصودًا لتقييدِ الدَّعوةِ ببَعضِ الأحوالِ، بل هو قَيدٌ كاشِفٌ؛ فإنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَدعُوهم إلَّا وفي حُضُورِهم لديه حياةٌ لهم⁽³⁾.

٣- ليس قولُه: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قيدًا للأمرِ باستجابةٍ، ولكنَّه تنبيهٌ على أنَّ دعاءَه إيَّاهم لا يكونُ إلَّا إلى ما فيه خيرٌ لهم، وإحياءٌ لأنفسِهم⁽⁴⁾، وقيل: هو تنبيهٌ على وُجوبِ اتِّباعِ الرَّسولِ في كلِّ ما يدعو إليه، وحكمةُ الإتيانِ به:

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١٢)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٠٣-١٠٤).

الإعلامُ بأنَّه ما ترك خيرًا إلَّا دعا إليه(١).

٤- لمَّا كان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يدعوهم لا محالةَ، لأنَّ الله تعالى أمَره بدعائِهم، وكان لا يَدْعوهم إلَّا إلى ما أمَره الله به، وكان سبحانَه لا يَدْعو إلَّا إلى صلاحٍ ورشدٍ؛ عبَّر بأداةِ التحقيقِ ﴿إِذَا﴾ ووحَّد الضميرَ ﴿دَعَاكُمْ﴾وشوَّق بإثمارِ الحياةِ ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(٢).

٥- لَمَّا كان اجتِناءُ ثَمرةِ الطَّاعةِ في غايةِ القُربِ؛ نَبَّه على ذلك باللَّامِ دُونَ (إلى)، فقال: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(٣).

٦- في قولِه تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ لَمَّا كان وجودُ مُطلَقِ الاستضعافِ دالًّا على غايةِ الضَّعفِ؛ بنى للمَفعولِ قَولَه: ﴿مُسْتَضْعَفُونَ﴾(٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

- تكريرُ النِّداءِ مع وَصْفِهم بنَعتِ الإيمانِ؛ لِتَنشيطِهم إلى الإقبالِ على الامتثالِ بما يَرِدُ بَعدَه من الأوامِرِ، وتنبيهِهم على أنَّ فيهم ما يُوجِب ذلك(٥)، أي: إنَّ الإيمانَ هو الذي يقتضي أن يَثِقُوا بعنايةِ اللهِ بهم، فيمتَثِلوا أمْرَه إذا دعاهم(٦).

- ووحَّدَ الضَّميرَ في قَولِه: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾؛ لأنَّ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) .

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٢٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١١).

الدُّعاءَ مِن فِعلِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُباشرةً، ولأنَّ استجابةَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كاستجابَتِه تعالى(١).

- والسِّينُ والتَّاءُ في ﴿اسْتَجِيبُوا﴾ للتَّأكيدِ(٢).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

- افتُتِحَت الجملةُ بـ (اعْلَمُوا)؛ للاهتمامِ بما تتضَمَّنُه، وحَثِّ المُخاطَبينَ على التأمُّلِ فيما بَعدَه(٣).

- وفيه تعريضٌ غالبًا بغَفلةِ المُخاطَبِ عن أمرٍ مُهِمٍّ؛ فمِنَ المَعروفِ أنَّ المُخبِرَ أو الطَّالِبَ، ما يُريدُ إلَّا عِلمَ المُخاطَبِ، فالتَّصريحُ بالفِعلِ الدَّالِّ على طلَبِ العِلمِ مَقصودٌ للاهتمامِ(٤).

- قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ فيه تَصويرٌ لتَمَلُّكِه سُبحانَه على العَبدِ قَلبَه، بحيثُ يَفسَخُ عَزائِمَه، ويُغَيِّرُ نِيَّاتِه ومَقاصِدَه، ويَحولُ بينه وبينَ الكُفرِ إن أرادَ سَعادَتَه، ويُبَدِّلُه بالأمْنِ خَوفًا، وبالذِّكرِ نِسيانًا، وما أشبَهَ ذلك من الأمورِ المُعتَرِضة المُفَوِّتةِ للفُرصةِ. والمقصودُ مِن هذا تَحذيرُ المُؤمنينَ مِن كُلِّ خاطِرٍ يخطُرُ في النُّفوسِ: مِنَ التَّراخي في الاستجابةِ إلى دَعوةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والتنصُّلِ منها، أو التسَتُّرِ في مُخالَفتِه، والحثُّ على المُبادرةِ بالامتثالِ، وعَدَمِ إرجاءِ ذلك إلى وَقتٍ آخَرَ؛ خَشيةَ أن تعتَرِضَ المرءَ موانِعُ مِن تَنفيذِ عَزمِه على الطَّاعةِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣١٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١٥).

- وقوله: ﴿يَحُولُ﴾ جيء به بصيغةِ المُضارعِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ ذلك يتجَدَّدُ ويستمِرُّ⁽¹⁾.

- قولُه: ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تقديمُ مُتعلِّقِ ﴿تُحْشَرُونَ﴾ عليه؛ لإفادةِ الاختصاصِ، أي: إليه لا إلى غَيرِه تُحشَرونَ، وهذا الاختصاصُ للكنايةِ عَن انعدامِ ملجأٍ أو مخبأٍ تلتجِؤونَ إليه مِن الحَشرِ إلى اللهِ؛ فكنَّى عن انتفاءِ المكانِ بانتفاءِ مَحشورٍ إليه غيرِ اللهِ، بأبدَعِ أُسلوبٍ⁽²⁾.

٣- قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

- جيءَ بالجُملةِ ﴿أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾ اسميَّةً؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ وَصفِ القِلَّةِ والاستضعافِ فيهم⁽³⁾.

- وجملة: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ إدماجٌ بذِكرِ نِعمةِ تَوفيرِ الرِّزقِ في خلالِ المِنَّةِ بنِعمةِ النَّصرِ، وتوفيرِ العَدَدِ بعدَ الضَّعفِ والقِلَّةِ؛ فإنَّ الأمنَ ووَفرةَ العَدَدِ يَجلِبانَ سَعةَ الرِّزقِ⁽⁴⁾.

* * *

---

(1) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣١٥).

(2) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣١٦).

(3) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣١٩).

(4) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٢٠).

الآيات (٢٧-٢٩)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (٢٧) وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ (٢٨) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ (٢٩)﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿فُرۡقَانٗا﴾: أي: فَصلًا وفَرْقًا بَينَ الحَقِّ والباطِلِ، وأصلُه مِن الفَرْقِ، وهو الانفصالُ، والتَّمييزُ بين شَيئينِ[1].

﴿وَيُكَفِّرۡ﴾: أي: يَمحُ ويَستُرْ، ، وأصلُ (كفر) يدلُّ على السَّترِ والتَّغطيةِ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

نهَى اللهُ عبادَه المُؤمنينَ عَن خِيانةِ اللهِ ورَسولِه، وعن خيانةِ كُلِّ ما اؤتُمِنوا عليه، وهم يَعلمونَ بكَونِها أمانةً يجِبُ الوفاءُ بها.

ثمَّ أمَرَهم أن يَعلَموا أنَّ أموالَهم وأولادَهم ابتلاءٌ واختبارٌ مِن اللهِ تعالى لهم؛ لِينظُرَ هل يؤدُّونَ حقَّ اللهِ تعالى فيها، أم سوفَ تَحمِلُهم محبَّتُها على تقديمِ هَوى أنفُسِهم، وأمَرَهم أن يَعلَموا أنَّ اللهَ عِندَه ثوابٌ عَظيمٌ لِمَن امتثَلَ أمْرَه.

وبيَّن لِعبادِه المؤمنينَ أنَّهم إن يتَّقوه بامتثالِ أمْرِه واجتنابِ نَهْيِه، فسيجعَلُ لهم علمًا، يُفَرِّقُون به بينَ الحقِّ والباطلِ، ومَخرجًا مِن كُروبِ الدُّنيا ونجاةً، ونصرًا

---

[1] يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٣-٤٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٢-٦٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢، ١٢٨، ٢٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٥).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٤).

وتأييدًا، وسيمحو عنهم ما تقدَّمَ مِن ذُنوبِهم، ويستُرُها، ويتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، واللهُ ذو الفَضلِ العَظيمِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ختَمَ الله تعالى الآيةَ السَّابِقةَ بما هو في غايةِ النَّصيحةِ مِنه تعالى لهم؛ من الإيواءِ والنَّصرِ، والرِّزقِ الطَّيِّبِ المُشارِ به إلى الامتنانِ بإحلالِ المَغنَمِ، وختم ذلك بالحَثِّ على الشُّكرِ؛ نهى عن تضييعِ الشُّكرِ في ذلك بالخيانةِ في أوامِرِه بالغُلولِ أو غَيرِه(١).

وأيضًا بعدَ أنْ أمَرَ اللهُ تعالى المُؤمنينَ بالطَّاعةِ والاستجابةِ للَّه ولِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ حَذَّرَهم من أن يُظهِروا الطَّاعةَ والاستجابةَ في ظاهِرِ أمْرِهم، ويُبطِنوا المَعصيةَ والخِلافَ في باطِنِه، فقال تعالى(٢):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾.

أي: يا أيُّها المُؤمِنون لا تَنْقُصُوا(٣) ما ينبغي عليكم حِفظُه وأداؤُه تامًّا مِن

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢١).

(٣) قال ابن عاشور: (الخَونُ والخيانةُ: إبطالُ ونَقضُ ما وقع عليه تعاقُدٌ مِن دونِ إعلانٍ بذلك النَّقضِ، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] والخيانةُ ضِدُّ الوفاءِ. قال الزمخشري: «وأصلُ معنى الخَونِ: النَّقصُ، كما أنَّ أصلَ الوَفاءِ التَّمامُ، ثم استُعمِلَ الخَونُ في ضِدِّ الوفاءِ؛ لأنَّك إذا خُنتَ الرَّجُلَ في شيءٍ فقد أدخَلْتَ عليه النُّقصانَ فيه» أي: واستُعمِلَ الوَفاءُ في الإتمامِ بالعَهدِ؛ لأنَّ مَن أنجَزَ بما عاهد عليه فقد أتَمَّ عَهدَه، فلذلك يقال: أوفى بما عاهَدَ عليه، فالإيمانُ والطَّاعة لله ورَسولِه عَهدٌ بين المؤمِنِ وبين اللهِ ورَسولِه، =

حُقوقِ اللهِ تعالى عليكم، وذلك بِتَركِ فرائِضِه، وانتهاكِ حُرُماتِه، ولا تنقُصُوا حقوقَ رَسولِه بِتَركِ طاعَتِه واتِّباعِه⁽¹⁾، ولكِنْ أطيعُوا الله ورسولَه بامتثالِ الأمرِ، واجتنابِ النهيِ، دونَ تقصيرٍ في ذلك⁽²⁾.

عن عليٍّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((بَعثَني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأبا مَرثَدٍ الغنَويَّ والزُّبيرَ بنَ العوَّامِ، وكلُّنا فارِسٌ، قال: انطلِقوا حتى تأتُوا روضةَ خاخٍ؛ فإنَّ بها امرأةً مِن المُشرِكينَ، معها كتابٌ مِن حاطبِ ابنِ أبي بلتَعةَ إلى المُشرِكينَ، فأدرَكْناها تسيرُ على بَعيرٍ لها، حيثُ قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقُلْنا: الكتابَ، فقالتْ: ما مَعَنا كتابٌ، فأنَخْناها، فالتَمَسْنا فلم نرَ كِتابًا، فقُلْنا: ما كذَبَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، لتُخرِجِنَّ الكتابَ أو لنُجَرِّدنَّكِ، فلما رأتِ الجِدَّ أهوتْ إلى حُجْزَتِها⁽³⁾، وهي مُحتَجِزةٌ بكِساءٍ، فأخرَجَتْه، فانطلَقْنا بها إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال عمرُ:

= فكما حُذِّروا من المعصيةِ العَلَنيَّةِ، حُذِّرُوا من المعصيةِ الخَفيَّةِ، وتشمَلُ الخيانةُ كُلَّ مَعصيةٍ خَفيَّةٍ، فهي داخلةٌ في (لا تخونوا)؛ لأنَّ الفِعلَ في سياقِ النَّهيِ يَعُمُّ، فكلُّ مَعصيةٍ خَفيَّةٍ، فهي مرادٌ من هذا النَّهيِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٦).

(١) قال ابنُ عاشور: (روى جُمهورُ المُفَسِّرينَ وأهلُ السِّيَرِ... أنَّها نزلَت في أبي لُبابةَ بنِ عبدِ المُنذِرِ الأنصاريِّ، لَمَّا حاصرَ المُسلمونَ بني قُريظةَ... وهذا الخبَرُ لم يثبُتْ في الصَّحيحِ، ولكنَّه اشتَهَر بين أهلِ السِّيَرِ والمُفَسِّرينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢١).
قال ابنُ جريرٍ: (أولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ أنْ يُقالَ: إنَّ اللهَ نهى المؤمنينَ عَن خِيانَتِه وخيانةِ رَسولِه وخيانةِ أمانَتِه، وجائِزٌ أن تكونَ نَزَلت في أبي لُبابة، وجائِزٌ أن تكون نزَلَت في غَيرِه، ولا خبَرَ عندنا بأيِّ ذلك كان، يجِبُ التَّسليمُ له بصِحَّتِه). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٢-١٢٣).
وقال ابنُ كثيرٍ: (الصَّحيحُ أنَّ الآيةَ عامَّةٌ، وإن صحَّ أنَّها وردت على سببٍ خاصٍّ؛ فالأخذُ بِعُمومِ اللَّفظِ لا بخُصوصِ السَّببِ عند الجماهيرِ مِن العُلَماءِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٠، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦٦-٥٦٧).

(٣) حُجْزَتِها: أي: مَعْقِد الإزار. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٦/ ٢٥٦).

يا رسولَ اللهِ، قد خان اللهَ ورسولَه والمؤمنينَ، فدعْني فلأَضرِبْ عُنقَه. فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ما حمَلَك على ما صنعْتَ؟ قال حاطِبٌ: واللهِ ما بي ألَّا أكونَ مُؤمِنًا باللهِ ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أردتُ أن يكونَ لي عند القومِ يدٌ، يدفَعُ اللهُ بها عن أهلي ومالي، وليسَ أحدٌ مِن أصحابِك إلَّا له هناك مِن عَشيرَتِه مَن يَدفَعُ اللهُ به عن أهلِه ومالِه. فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: صدَقَ، ولا تقولوا له إلَّا خَيرًا. فقال عمرُ: إنَّه قد خان اللهَ ورسولَه والمؤمنينَ، فدعْني فلأضرِبْ عُنقَه. فقال: أليسَ مِن أهلِ بَدْرٍ؟ فقال: لعلَّ اللهَ اطَّلَعَ إلى أهلِ بدرٍ، فقال: اعمَلُوا ما شئتُم؛ فقد وجَبَتْ لكم الجنَّةُ، أو فقد غَفَرْتُ لكم. فدمَعَت عينَا عُمرَ، وقال: اللهُ ورسولُه أعلمُ))(١).

﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾.

أي: ولا تخونوا ما اؤتُمِنتُم عليه(٢).

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

---

(١) رواه البخاري (٣٩٨٣)، ومسلم (٢٤٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢١٣)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٠٧)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٧٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥٣٤-٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦٦-٥٦٧).

قال القرطبي: (الأماناتُ: الأعمالُ التي ائتَمَن اللهُ عليها العبادَ، وسُمِّيَت أمانةً؛ لأنَّها يُؤمَنُ معها مِن مَنْعِ الحقِّ، مأخوذٌ مِن الأمْنِ). ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٩٥).

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وعن حذيفة رضي الله عنه، قال: ((حدَّثَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حديثَينِ، رأيتُ أحدَهما، وأنا أنتظِرُ الآخَرَ: حدَّثَنا: أنَّ الأمانةَ نزَلَتْ في جَذرِ(١) قلوبِ الرجالِ، ثم علِموا منَ القرآنِ، ثم علِموا منَ السُّنَّةِ. وحدَّثَنا عن رفعِها قال: ينامُ الرجلُ النومةَ فتُقبَضُ الأمانةُ من قلبِه، فيظَلُّ أثرُها مثلَ أثرِ الوَكتِ(٢)، ثم ينامُ النومةَ فتُقبَضُ فيَبقى فيها أثرُها مثلَ أثرِ المَجْلِ(٣)، كجمرٍ دحرَجتَه على رِجلِك فنفِطَ(٤)، فترَاه مُنتبِرًا(٥)، وليس فيه شيءٌ، ويُصبِحُ الناسُ يتَبايَعونَ، فلا يَكادُ أحدٌ يؤدِّي الأمانةَ، فيُقالُ: إنَّ في بني فلانٍ رجلًا أمينًا، ويُقالُ للرجلِ: ما أعقَلَه! وما أظرَفَه! وما أجلَدَه! وما في قلبِه مِثقالُ حبةِ خَردَلٍ من إيمانٍ، ولقد أتى عليَّ زمانٌ، ولا أُبالي أيُّكم بايَعتُ، لئن كان مسلمًا ردَّه عليَّ الإسلامُ، وإن كان نصرانيًّا ردَّه عليَّ ساعيه، وأما اليومَ: فما كنتُ أُبايِعُ إلا فلانًا وفلانًا))(٦).

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه، أنَّ رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مِن

---

(١) الجَذرُ: الأصلُ مِن كلِّ شَيءٍ. يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (١/ ٤٤٨).

(٢) الوَكت: الأثرُ اليسيرُ، وقيل: هو سوادٌ يسيرٌ، وقيل: هو لونٌ يحدثُ مخالفٌ للونِ الذي كان قبلَه. يُنظر: ((مشارق الأنوار)) للقاضي عياض (٢/ ٢٨٥)، ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٦٨).

(٣) المَجْلُ: هو التنَفُّطُ الذي يصيرُ في اليَدِ مِن العمَلِ بفأسٍ أو نحوِها، ويصيرُ كالقبَّة فيه ماءٌ قليلٌ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٦٩).

(٤) نَفِطَ، أي: ظهَرَ برِجْلِه نفطةٌ، أي: بَثرةٌ مُجوَّفةٌ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٥/ ٣٤٨).

(٥) مُنتَبِرًا: أي: مُرتَفِعًا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٦٩).

(٦) رواه البخاري (٧٠٨٦) واللفظ له، ومسلم (١٤٣).

علاماتِ المنافقِ ثلاثةٌ: إذا حدَّث كذَب، وإذا وعَد أخلَف، وإذا اؤتُمِنَ خانَ))⁽١⁾.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: والحالُ أنَّكم تعلمونَ عِلمًا لا لَبْسَ فيه أنَّها أماناتٌ يجِبُ الوفاءُ بها، وعَدَمُ تَعمُّدِ التَّفريطِ فيها، وتعلمونَ مَفاسِدَ خِيانَتِها، وقُبْحَ ذلك⁽٢⁾.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان الدَّاعي إلى الإقدامِ على الخِيانةِ هو حُبَّ الأموالِ والأولادِ؛ نبَّه تعالى على أنَّه يجِبُ على العاقِلِ أن يَحترِزَ عن المضارِّ المُتولِّدةِ من ذلك الحُبِّ، فقال تعالى⁽٣⁾:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾.

أي: واعلَمُوا- أيُّها المُؤمِنونَ- أنَّ أموالَكم التي رزَقَكم اللهُ تعالى إيَّاها، وأولادَكم الذين وهَبَهم اللهُ لكم- اختبارٌ يَبتليكم اللَّهُ به؛ لِينظُرَ هل تؤدُّونَ حَقَّ اللهِ عليكم فيها: بامتثالِ أمْرِه واجتنابِ نَهْيِه فيها، وهل تَشْكُرونَه عليها، أم تَحمِلُكم محبَّةُ ذلك على تقديمِ هَوى أنفُسِكم على أداءِ ما ائتَمَنكم عليه، وتَشتغِلون بها عنه سبحانَه⁽٤⁾.

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ

---

(١) رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٦)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٧٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦٧).

فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٤-١٦].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: واعلَموا أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عِندَه ثوابٌ عظيمٌ، وهو خيرٌ لكم من الأموالِ والأولادِ؛ فآثِروا فَضلَه العظيمَ الباقيَ، على لذَّةٍ صَغيرةٍ فانيةٍ مُضمحِلَّةٍ(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه تعالى لَمَّا حذَّرَ عن الفِتنةِ بالأموالِ والأولادِ؛ رغَّبَ في التَّقوى التي تُوجِبُ تَركَ المَيلِ والهَوى في محبَّةِ الأموالِ والأولادِ(٢)، فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، إن تتَّقوا اللهَ بامتثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نَواهِيه، وترْكِ خيانَتِه، وخيانةِ رَسولِه، وخيانةِ أماناتِكم؛ يجعَلْ لكم علمًا، تُفرِّقون به بينَ الحقِّ والباطلِ، ومَخرجًا لكم مِن كُروبِ الدُّنيا ونجاةً، ونصرًا وتأييدًا(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦٧-٥٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٧٦)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢-٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٦٨-٥٦٩). =

قال الله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾.

أي: ويمحُ عَنكم ما تقَدَّمَ مِن ذُنوبِكم(١).

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾.

أي: ويستُرْ ذُنوبَكم عن النَّاسِ، ويتجاوَزْ عن مؤاخَذتِكم بها(٢).

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

أي: واللهُ- الذي يمنَحُكم كلَّ هذه الهِباتِ والمَكرُماتِ- صاحِبُ الأجرِ العَظيمِ، والثَّوابِ الجزيلِ لِمَن اتَّقاه، وله- وحدَه- الفَضلُ العظيمُ عليكم، وعلى غَيرِكم مِن خَلْقِه، فاكتفوا بطلبِه منه دونَ غيرِه(٣).

الفَوائدُ التربويَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ خِطابٌ لجميعِ المؤمنينَ إلى يومِ القيامةِ، وهو يجمعُ أنواعَ الخياناتِ كلِّها؛ قليلَها وكثيرَها(٤).

= قال الشنقيطيُّ في تفسيرِ قولِه: ﴿فُرْقَانًا﴾ : (معناه: يجعلْ لكم مخرجًا، وقال بعضُ العلماءِ: ﴿فُرْقَانًا﴾: نصرًا وتأييدًا؛ وقال بعضُ العلماءِ: فرقانًا: فَتْحًا. وقال بعضُ العلماءِ: يجعلِ الله لكم بسببِ تقوَى الله فُرْقَانًا، أي: علمًا تُفَرِّقُون به بينَ الحقِّ والباطلِ، والحسنِ والقبيحِ. والأقوالُ متقاربةٌ). ((العذب النمير)) (٤/ ٥٦٨) بتصرف، ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٢٧- ١٢٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥١٧).

٢- الفِتنةُ لا تكونُ بالشدَّةِ وبالحرمانِ وحْدَهما، بل تكونُ كذلك بالرَّخاءِ وبالعطاءِ أيضًا، ومِن الرَّخاءِ والعطاءِ هذه الأموالُ والأولادُ؛ قال الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾(١).

٣- سعاداتُ الآخرةِ خَيرٌ مِن سعاداتِ الدُّنيا؛ فهي أعظَمُ في الشَّرفِ، وأعظَمُ في الفَوزِ، وأعظَمُ في المدَّةِ؛ لأنَّها تبقَى بقاءً لا نهايةَ له؛ يُبَيِّن ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ بعد أنْ ذَكرَ الأموالَ والأولادَ(٢).

٤- امتثالُ العبدِ لِتقوى ربِّه، عُنوانُ السَّعادةِ، وعلامةُ الفلاحِ؛ فقد رتَّب اللهُ على التَّقوى مِن خيرِ الدُّنيا والآخرةِ شَيئًا كثيرًا؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فيه أنَّ ما خَفِيَ حُكمُه، فالجَهلُ له عُذرٌ؛ إذا لم يكُن ممَّا عُلِمَ مِن الدِّينِ بالضَّرورةِ، أو ممَّا يُعلم ببداهةِ العَقلِ، أو استفتاءِ القَلبِ(٤).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ جُعِلَ نَفسُ الأموالِ والأولادِ فتنةً؛ لكثرةِ حُدوثِ فِتنةِ المَرءِ مِن جرَّاءِ أحوالِهما، مبالغةً في التَّحذيرِ مِن تلك الأحوالِ وما ينشَأُ عنها، فكأنَّ وُجودَ الأموالِ والأولادِ نفسُ الفِتنةِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٤٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢٥).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ فيه بيانُ ارتباطِ الخيرِ والشَّرِّ بالعَملِ؛ فقد رتَّبَ اللهُ سُبحانَه حُصولَ الخَيراتِ في الدُّنيا والآخرةِ، وحصولَ السُّرورِ في الدُّنيا والآخرةِ في كتابِه، على الأعمالِ، ترتُّبَ الجزاءِ على الشَّرطِ، والمعلولِ على العِلَّةِ، والمسبَّبِ على السَّبَبِ⁽¹⁾.

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ تنكيرُ الفُرقانِ؛ للتَّنويعِ التَّابعِ لأنواعِ التقوى: كالفَتْنِ في السِّياسةِ والرِّياسةِ، والحَلالِ والحرامِ، والعَدلِ والظُّلمِ؛ فكلُّ مُتَّقٍ للهِ في شيءٍ، يؤتيه فرقانًا فيه⁽²⁾.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

- استئنافُ خِطابٍ للمُؤمنينَ يُحذِّرُهم مِن العِصيانِ الخفيِّ⁽³⁾.

- قَولُه: ﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ فيه عُدولٌ عن ذكرِ المَفعولِ الأصليِّ، إلى ذِكرِ المفعولِ المتَّسَعِ فيه؛ لِقَصدِ تَبشيعِ الخيانةِ بأنَّها نَقضٌ للأمانةِ؛ فإنَّ الأمانةَ وَصفٌ مَحمودٌ مَشهورٌ بالحُسنِ بين النَّاسِ، فما يكونُ نقضًا له يكونُ قَبيحًا فظيعًا؛ ولأجلِ هذا لم يَقُلْ: (وتخونُوا النَّاسَ في أماناتِهم) فهذا حذفٌ مِن الإيجازِ⁽⁴⁾.

- وقوله: ﴿وَتَخُونُوا﴾ عطفٌ على قَولِه: ﴿لَا تَخُونُوا﴾ فهو في حَيِّزِ النَّهيِ، والتَّقديرُ: (ولا تَخونوا أماناتِكم) وأُعيدَ فِعلُ (تَخونُوا) ولم يُكتفَ بحَرفِ

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٢٣).

العَطفِ الصَّالِحِ للنِّيابةِ عَن العامِلِ في المعطوفِ؛ للتَّنبيهِ على نوعٍ آخَرَ مِن الخيانةِ؛ فإنَّ خيانَتَهم اللهَ ورَسولَه نقضُ الوفاءِ لهما بالطَّاعةِ والامتثالِ، وخيانةَ الأمانةِ نقضُ الوفاءِ بأداءِ ما اؤتُمِنوا عليه⁽¹⁾.

- وجملة ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ في موضِعِ الحالِ مِن ضميرِ ﴿تخونوا﴾، وهي حالٌ كاشِفةٌ، والمقصودُ منها تشديدُ النَّهيِ، أو تشنيعُ المنهيِّ عنه؛ لأنَّ النَّهيَ عن القَبيحِ في حالِ مَعرفةِ المنهيِّ أنَّه قبيحٌ، يكونُ أشَدَّ، ولأنَّ القبيحَ في حالِ عِلمِ فاعِلِه بقُبحِه، يكونُ أشنَعَ، وليس المُرادُ تقييدَ النَّهيِ عن الخيانةِ بحالةِ العِلمِ بها؛ لأنَّ ذلك قليلُ الجدوى، فإنَّ كلَّ تكليفٍ مَشروطٌ بالعِلمِ، وكونُ الخيانةِ قَبيحةً أمرٌ مَعلومٌ⁽²⁾.

٢- قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

- جيءَ في الإخبارِ عن كَونِ الأموالِ والأولادِ فِتنةً بطريقِ القَصرِ قَصرًا ادعائيًّا؛ لِقَصدِ المبالغةِ في إثباتِ أنَّهم فِتنةٌ⁽³⁾.

- وقَدَّمَ الأموالَ؛ لأنَّها مَظِنَّةُ الحَملِ على الخيانةِ في هذا المقامِ، وعُطِفَ الأولادُ على الأموالِ؛ لاستيفاءِ أقوى دواعي الخِيانةِ؛ فإنَّ غَرَض جمهورِ النَّاسِ في جَمعِ الأموالِ أن يَترُكوها لأبنائِهم مِن بَعدِهم⁽⁴⁾.

٣- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

- قولُه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فيه تكريرُ الخطابِ والوَصفِ بالإيمانِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٢٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٢٤-٣٢٥).

لإظهارِ كمالِ العنايةِ بما بَعدَه، والإيذانِ بأنَّه مما يقتضي الإيمانُ مُراعاتَه والمُحافظةَ عليه(١).

- وفعلُ الشَّرطِ ﴿تَتَّقُوا﴾ مرادٌ به الدَّوامُ؛ فإنَّهم كانوا مُتَّقينَ، ولكنَّهم لَمَّا حُذِّروا مِن المخالفةِ والخيانةِ، ناسبَ أن تُفرَضَ لهم الطَّاعةُ في مُقابِلِ ذلك(٢).

- واختيارُ (الفُرقان) في قَولِه: ﴿يَجْعَل لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ هنا؛ لقَصدِ شُمولِه ما يصلُحُ لِلمقامِ مِن معانيه، لأنَّه اللَّفظُ الذي لا يؤدِّي غيرُه مُؤدَّاه في هذا الغَرَضِ، وذلك من تمامِ الفَصاحةِ(٣).

- وقوله: ﴿لكم﴾ يُشعِرُ أنَّ الفُرقانَ شَيءٌ نافِعٌ لهم، فالظَّاهِرُ أنَّ المُرادَ منه كلُّ ما فيه مَخرجٌ لهم ونجاةٌ مِن الْتباسِ الأحوالِ، وارتِباكِ الأمورِ، وانبِهامِ المقاصد، فيَؤُولُ إلى استقامةِ أحوالِ الحياةِ(٤).

- قولُه: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ تذييلٌ وتكميلٌ، وهو كنايةٌ عن حصولِ منافِعَ أخرى لهم مِن جرَّاءِ التَّقوى(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٢٧).

الآيات (٣٠-٣٥)

﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ (٣٠) وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ (٣٢) وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ (٣٣) وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ (٣٥)﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿يَمۡكُرُ﴾: المَكْرُ: صرفُ الغيرِ عمَّا يقصدُه بحيلةٍ، وأصلُ المكرِ: الاحتيالُ والخداعُ(١).

﴿لِيُثۡبِتُوكَ﴾: أي: لِيَحبِسوك ويَسجِنوك. وأصلُ (ثبت) يدلُّ على دوامِ الشَّيءِ(٢).

﴿أَسَٰطِيرُ﴾: أي: أباطيلُ وتُرَّهات؛ جمعُ أُسطورةٍ، وهي: ما سُطِرَ مِن أخبارِ الأوَّلينَ وكَذِبِهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٧٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٢)، ((مقاييس اللغة)) (١/ ٣٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

﴿أَوْلِيَاءَهُۥٓ﴾: الأولياءُ جمعُ وليٍّ، وأصلُ (ولي): يدلُّ على القُرْب، سواء مِن حيثُ: المكانُ، أو النِّسبةِ، أو الدِّينِ، أو الصَّداقةِ، أو النُّصرةِ، أو الاعتقادِ، وكلُّ مَن وَلِي أمرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه⁽¹⁾.

﴿مُكَاءً﴾: أي: صَفيرًا، وأصلُ (مكا) يدلُّ على شَيءٍ مِن الأصواتِ⁽²⁾.

﴿وَتَصْدِيَةً﴾: أي: تصفيقًا، وهو أن يضربَ بإحدَى يَدَيْه على الأُخرَى، فيخرجَ بينهمَا صَوتٌ، وقيل للتَّصفيقِ: تَصِديةٌ؛ لأنَّ اليدَينِ تَتصافقانِ، فيُقابِلُ صَفْقُ هذه صَفْقَ الأُخرى، وصَدُّ هذه صَدَّ الأُخرَى، وهما وَجْهاها⁽³⁾.

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: واذكُرْ - يا مُحمَّدُ - حين تمالأَ عليك كُفَّارُ قُريشٍ؛ لِيَسجُنوك أو يَقتُلوك أو يُخرِجوك مِن مكَّةَ، ويكيدونَ بك في خفاءٍ، ويكيدُ اللهِ بهم، فأنقَذَك اللهُ منهم وأهلَكَهم، واللهُ خيرُ مَن يُجازي بالسيئةِ العُقوبةَ، فيمكُرُ بمن كفَرَ به وعصاه، فيجازيهم بما يستحقُّونَه.

وإذا تُتلَى على هؤلاءِ الكُفَّارِ مِن قُريشٍ آياتُ القُرآنِ، قالوا: قد سَمِعْناها، ولو نَشاءُ لَقُلنا مِثلَ هذا، ما هذا القُرآنُ إلَّا أكاذيبُ سَطَرَها الأقدَمونَ مِن الأُمَمِ الماضيةِ.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٩)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٥/ ٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٨).

واذكُر - يا مُحمَّدُ - حين قال كُفَّارُ قُريشٍ: اللهُمَّ، إن كان ما يقولُه مُحمَّدٌ حَقًّا، فأنزِلْ علينا مِن السَّماءِ حِجارةً مُتتابعةً، أو عَذِّبْنا في الدُّنيا بعذابٍ مُوجِعٍ.

وما كان اللهُ لِيُعذِّبَهم وأنت فيهم - يا محمَّدُ - وما كان اللهُ مُعَذِّبَهم لو أنَّهم كانوا يَستغفرونَ اللهَ مِن كُفرِهم وذُنوبِهم، لكِنَّهم لا يفعلونَ، وما يمنَعُ أولئك الكُفَّارَ مِن أن يُعَذِّبَهم اللهُ وهم يمنَعونَ المُسلمينَ مِن الوُصولِ إلى المَسجدِ الحَرامِ، وما كانوا أولياءَ هذا المسجدِ الحرام، فأولياؤُه هم المُتَّقونَ، ولكِنَّ أكثَرَهم لا يَعلمونَ.

ثم أخبَرَ تعالى أنَّه ما كان صلاةُ كُفَّارِ قُرَيشٍ عند البَيتِ إلَّا صَفيرًا وتَصفيقًا، ثمَّ وجَّهَ الله تعالى الخِطابَ إلى كفَّارِ قُرَيشٍ قائلًا: فذُوقوا ألَمَ العَذابِ بِسَببِ كُفرِكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَّرَ اللهُ تعالى المؤمنينَ نِعَمَه عليهم بِقَولِه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾؛ فكذلك هنا: ذكَّرَ رسولَه نِعَمَه عليه، وهو دَفعُ كَيدِ المُشرِكينَ، ومَكرِ الماكرينَ عنه⁽¹⁾.

وأيضًا لَمَّا وعَدَ سُبحانَه في الآيةِ السَّابقةِ المُؤمنينَ بالفَضلِ العظيمِ، ذكَّرَهم من أحوالِ داعِيهم وقائِدِهم وهادِيهم - عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ - بما يدعوهم إلى مُلازمةِ أسبابِه في سياقِ المُخاطَبةِ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ تذكيرًا بنِعمَتِه، وإشارةً إلى دوامِ نُصرَتِه⁽²⁾، فقال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٦٧).

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾.

أي: واذكُرْ- يا مُحمَّدُ- نِعمَتي عليك حين كان كفَّارُ قُريشٍ يَكيدونَ لك، ويتآمَرونَ عليك في الخفاءِ؛ ليُقيِّدوك ويَسجِنوك، أو يَقتلُوك، أو يُخرِجوك مِن مكَّةَ⁽¹⁾.

قال تعالى: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ [التوبة: ١٣].

وقال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠].

وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣].

وقال سبحانه: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٣١، ١٤١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٧١ - ٥٧٣).

قال الشنقيطي: (قال بعضُ العُلَماءِ: هذه الآيةُ مِن سورةِ الأنفالِ مكيَّةٌ، مع أنَّ الأنفالَ مَدنيَّةٌ. والأظهَرُ أنَّ هذه الآيةَ كغَيرِها من سورةِ الأنفالِ مَدَنيَّةٌ؛ وذلك أنَّ الله لَمَّا فتح على نبيِّه، ونَصَره يومَ بَدرٍ، وأنزل سورةَ الأنفال في وقعةِ بَدرٍ؛ ذكَّرَ نبيَّه بنِعَمِه الماضيةِ عليه في مكَّةَ قبل هِجرَتِه منها، وعرَّفَه إنعامَه عليه؛ حيث أنجاه مِن مَكرِ أعدائه). ((العذب النمير)) (٤/ ٥٧١).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾.

أي: ويكيدُ بك كفَّارُ مكَّةَ في الخفاءِ، ويكيدُ اللهُ بهم أيضًا مِن حيثُ لا يَشعرونَ، فاسْتَنْقَذ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم منهم، وأهلَكهم(١).

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

أي: واللهُ تعالى هو أفضَلُ مَن يُجازي بالسَّيئةِ العُقوبةَ، فيمكُرُ بمن كفَرَ به وعصاه، فيُجازيهم بما يستحقُّونَه، ولا أحدَ أقدرُ على ذلك مِنه(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥-١٦].

وقال عزَّ وجلَّ عن اليهودِ الذين أرادوا المكرَ بنبيِّه عيسَى عليه السلامُ: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ * إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٤-٥٥].

وقال سبحانه: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٤١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٤٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٧٣، ٥٧٨).

قال الشنقيطي: (﴿وَاللَّهُ﴾ جلَّ وعلا ﴿خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ مكَر لك بهم، وأخرَجك، ونجَّاك، وأظفَرك بهم يومَ بدرٍ حتى قتلتَهم وأسرتَهم). ((العذب النمير)) (٤/ ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٤١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٧٨). وقد تقدَّم تفسيرُ نظيرِ هذه الآية من هذا التفسير المحرر (٢/ ٢٣٣)، الآية (٥٤).

وبيَّن بعضَ مكرِ قوم صالحٍ، بقوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٠-٥٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حكى اللهُ تعالى مَكْرَ المُشركينَ في ذاتِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- حكى مَكْرَهم في دِينِه(١)، فقال:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾.

أي: وإذا تُتلَى على هؤلاءِ الكُفَّارِ مِن قُريشٍ آياتُ كِتابِنا، قالوا قولًا يَغُرُّونَ به أنفُسَهم، ومَن اتَّبَعَهم على باطِلِهم؛ تمرُّدًا وعِنادًا منهم للحَقِّ، قالوا: قد سَمِعْناها، ولو نشاءُ لَقُلْنا مثلَ هذا الذي تُلِيَ علينا(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٤١)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٠)، =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢١ - ٢٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣].

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

أي: يقولُ الكفَّارُ إذا سَمِعوا القُرآنَ: ما هذا القرآنُ إلَّا أكاذيبُ، سَطَرَها الأقدمونَ مِن الأُمَمِ الماضيةِ في كُتُبِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

= ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢٩).

قال ابنُ عطيَّةَ: (والذي تواتَرَت به الرِّواياتُ عن ابنِ جُرَيجٍ والسُّدِّي وابنِ جُبَيرٍ: الذي قال هذه المقالةَ هو النَّضرُ بنُ الحارث، وذلك أنَّه كان كثيرَ السَّفَرِ إلى فارس والحِيرةِ، فكان قد سَمِعَ مِن قَصصِ الرُّهبانِ والأناجيلِ، وسَمِعَ من أخبارِ رُستُم وإسبنديار، فلما سَمِعَ القُرآنَ، ورأى فيه من أخبارِ الأنبياءِ والأُمَم، قال: لو شِئتُ لَقُلْتُ مثلَ هذا!). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢٠). ويُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٤١، ١٤٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٨١).

أي: واذكُر- يا مُحمَّدُ- حين قال كُفَّارُ قُريشٍ(١): اللَّهمَّ، إن كان ما يقولُه مُحمَّدٌ حَقًّا، مُنزَّلًا مِن عِندِك؛ فأنزِلْ علينا مِن السَّماءِ حِجارةً مُتتابعةً كما ينزِلُ المَطَرُ، أو عَذِّبْنا في الدُّنيا بعذابٍ مُؤلمٍ مُوجِعٍ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ [المعارج: ١-٣].

وعن أنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (قال أبو جهلٍ: اللهُمَّ، إن كانَ هذا هو الحَقَّ مِن عِندِك؛ فأمطِرْ علينا حجارةً مِن السَّماءِ، أو ائتِنا بعذابٍ أليمٍ، فنزَلَت: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَمَا

---

(١) قال الواحدي: (وجميعُ المُفَسِّرينَ على أنَّ هذا مِن قَولِ النَّضرِ بنِ الحارِثِ، ورُوِيَ في الصَّحيحينِ أنَّ هذا من قولِ أبي جهلٍ- لعَنَهما اللهُ). ((الوسيط)) (٢/ ٤٥٧).

وقال محمد رشيد رضا: (ولا ينافي ذلك ما في الصَّحيحِ؛ لاحتمالِ أن يكونَا قالاه، ولكِنَّ نِسبتَه إلى أبي جَهلٍ أَوْلَى). ((تفسير المنار)) (٩/ ٥٤٥).

وقال ابنُ عاشور: (وقائِلُ هذه المقالةِ هو النَّضرُ بنُ الحارِثِ صاحِبُ المقالةِ السَّابقة، وقالها أيضًا أبو جهلٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣١).

وقال ابن عطيَّة: (وترتُّبُ أن يقولَ النَّضرُ بن الحارث مقالةً، وينسُبَها القرآنُ إلى جميعِهم؛ لأنَّ النَّضرَ كان فيهم موسومًا بالنُّبلِ والفَهمِ، مسكونًا إلى قَولِه، فكان إذا قال قَولًا قاله منهم كثيرٌ، واتَّبعوه عليه حَسَبَما يفعَلُه النَّاسُ أبدًا بعُلَمائِهم وفُقَهائِهم). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٤٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤١١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٨٣).

وقد أتاهم الله عزَّ وجلَّ بعذابٍ أليمٍ، قال ابنُ جريرٍ: (وكان ذلك العَذابُ قَتْلَهم بالسَّيفِ يومَ بَدرٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٤٤).

لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...﴾ الآية)(١).

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾.

أي: وما كان اللهُ لِيُعذِّبَ كفَّارَ قُريشٍ، وأنت مُقيمٌ بين أظهُرِهم- يا محمَّدُ؛ لأنِّي لا أُهلِكُ أهْلَ بلدةٍ وفيها نبيُّهم، حتى يَخرُجَ منها(٢).

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

أي: وما كان اللهُ مُعذِّبَ أولئك الكُفَّارِ لو أنَّهم كانوا يستغفرونَ اللهَ مِن كُفرِهم وذُنوبِهم، لكنَّهم لا يَفعلونَ، وهم على ضَلالِهم مُصِرُّونَ، فهُم للعذابِ مُستحِقُّونَ(٣).

---

(١) رواه البخاري (٤٦٤٩)، ومسلم (٢٧٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٠).

قال ابنُ عطيةَ: (أجمعَ المتأوِّلونَ على أنَّ معنى قَولِه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ أنَّ الله عَزَّ وجلَّ لم يُعَذِّبْ قَطُّ أمَّةً ونبيُّها بين أظهُرِها، فما كان لِيُعَذِّبَ هذه وأنت فيهم، بل كرامَتُك لديه أعظَمُ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢١).

وقال ابنُ كثيرٍ: (ولهذا لَمَّا خرج من بينِ أظهُرِهم، أوقَعَ الله بهم بأسَه يومَ بَدرٍ، فقُتِلَ صناديدُهم، وأُسِرَت سَراتُهم). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٥٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٢٥، ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٨٧).

قال ابنُ تيميةَ: (فأخبَرَ أنَّه لا يُعَذِّبُ مُستغفِرًا؛ لأنَّ الاستغفارَ يمحو الذَّنبَ الذي هو سبَبُ العَذابِ، فيندفِعُ العذابُ). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ١٦٣).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (وأمَّا العذابُ المدفوعُ فهو يعُمُّ العذابَ السَّماويَّ، ويعمُّ ما يكونُ من العباد؛ وذلك أنَّ الجميعَ قد سمَّاه الله عذابًا، كما قال تعالى في النَّوعِ الثاني: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩] وقال =

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

هذه الآيةُ عَطفٌ على قَولِه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾، وهو ارتقاءٌ في بيانِ أنَّهم أحِقَّاءُ بتعذيبِ اللهِ إيَّاهم؛ بيانًا بالصَّراحةِ(١).

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.

أي: أيُّ شَيءٍ يمنَعُ أولئكَ المُشركينَ مِن أن يُعَذِّبهم اللهُ تعالى، والحالُ أنَّهم فعلوا ما يُوجِبُ عذابَهم، وهو مَنعُهم المسلمينَ من الوصولِ إلى المسجِدِ الحرامِ للصَّلاةِ فيه، والطَّوافِ، والعبادةِ(٢)؟!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤].

= تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٤] وكذلك: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢] إذ التَّقديرُ بعذابٍ مِن عِندِه أو بعذابٍ بِأيدينا، كما قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾. ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٦).

﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ﴾.

أي: وما كان كفَّارُ قُريشٍ أولياءَ المسجدِ الحرامِ، ولا أهلَه⁽¹⁾.

كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [التوبة: ١٧].

وقال سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾.

أي: ما أولياءُ هذا البيتِ في الحقيقةِ إلَّا المؤمنونَ بالله، المُتَّقونَ للشركِ والمعاصي⁽²⁾.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٨٩).

ومِمَّن اختارَ عوْدَ الضَّميرِ على المسجِدِ الحرامِ: الواحديُّ، وابنُ كثيرٍ، والشنقيطيُّ. ونسبَه ابنُ الجوزي للجُمهورِ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٨٩)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢٠٨).

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلف الحسنُ. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢٠٨).

وممن اختار عودَ الضَّميرِ ﴿أَوۡلِيَآءَهُۥٓ﴾ على اللهِ تعالى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٥٩).

وجمع ابنُ تيميَّةَ بين المعنيينِ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١١/ ١٦٤).

وقال ابنُ عطية: (والضَّميرُ في قَولِه: ﴿أَوۡلِيَآءَهُۥٓ﴾ عائدٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ مِن قَولِه: ﴿يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ أو على ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، كلُّ ذلك جَيِّدٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢٢). ويُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٨٩).

أي: ولكنَّ أكثَرَ مُشركي قُريشٍ لا يَعلمونَ أنَّ ولايةَ بيتِ الله لمَن هو مطيعٌ لله، لا مَن هو عاصٍ له، فلذلك ادَّعَوْا لأنفسِهم أمرًا، غيرُهم أولَى به(١).

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قال اللهُ تعالى في حَقِّ الكفَّارِ: إنَّهم ما كانوا أولياءَ البَيتِ الحرامِ، وقال: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾- بيَّنَ بعده ما به خَرَجوا من أن يكونُوا أولياءَ البَيتِ، وهو أنَّ صَلاتَهم عند البَيتِ، وتَقرُّبَهم وعبادَتَهم إنَّما كان بالمُكاءِ والتَّصديةِ(٢)، فقال:

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾.

أي: وما كان صلاةُ كفَّارِ قُريشٍ عند الكعبةِ إلَّا صفيرًا وتَصفيقًا(٣).

﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢٢)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٨٩).

قال الشنقيطي: (قال بعضُ العلماءِ: عبَّرَ هنا بالأكثَرِ عن الجميع، والعرَبُ تعبِّرُ بالأكثَرِ عن الجميعِ، وبالقِلَّةِ عن لا شَيءٍ، وهو أسلوبٌ معروفٌ. وقال بعض العلماء: الأكثَرُ على ظاهِرِه؛ لأنَّ بَعضَهم يعلَمُ أنَّ وِلايةَ بَيتِ اللهِ لِمَن هو مطيعٌ لله، لا مَن هو عاصٍ له). ((العذب النمير)) (٤/ ٥٨٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٦١)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٣٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٠).

قال ابنُ عطية: (المُكاءُ والتَّصديةُ كان مِن فِعلِ العرب قديمًا قبل الإسلامِ، على جهةِ التقَرُّب به والتشَرُّع، .. وعلى هذا يستقيمُ تَعييرُهم وتنقُّصُهم بأنَّ شَرْعَهم وصلاتَهم وعبادتَهم، لم تكُن رَهبةً ولا رغبةً، إنما كانت مُكاءً وتَصديةً مِن نوعِ اللَّعِب، ولكنَّهم كانوا يتزيَّدونَ فيها وقتَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِيَشغَلوه وأمَّتَه عن القِراءةِ والصَّلاةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢٤، ٥٢٥). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤١٢)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨١)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٤٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٩٠).

أي: قال اللهُ تعالى لِمُشركي قُريشٍ: فاطْعَموا(١) ألَمَ العَذابِ(٢) بسبَبِ كُفرِكم(٣).

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ دلَّت هذه الآيةُ على أنَّ الاستغفارَ أمانٌ وسلامةٌ مِن العذابِ(٤).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، ولم يَقُلْ: (ويَمكُرونَ بك)؛ لِيُبيِّنَ حالَتَهم العامَّةَ الدَّائمةَ في مُعامَلتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو ومَن اتَّبَعه مِن المُؤمنينَ، أي: وهكذا دأْبُهم معك، ومع مَن اتَّبَعك مِن المُؤمِنينَ؛ يمكرونَ بكم، ويمكُرُ اللهُ لكم بهم، كما فَعَلَ مِن قبلُ إذ أحبَطَ مَكْرَهم، وأخرجَ رَسولَه مِن بَينِهم إلى حيثُ مَهَّدَ له في دارِ الهِجرةِ، ووطَنِ السُّلطانِ والقُوَّةِ(٥).

---

(١) قال ابنُ جرير: (ليس بِذَوقٍ بفَمٍ، ولكنَّه ذَوقٌ بالحِسِّ، ووجودُ طَعمِ ألَمِه بالقُلوبِ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٦٨).

(٢) ذهب ابنُ جريرٍ وابنُ عاشورٍ إلى أنَّ المرادَ بالعَذابِ هاهنا: ما حلَّ بالمُشركينَ يَومَ بَدرٍ؛ مِن قَتلٍ وأسْرٍ ونحو ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٩).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف: ابنُ إسحاقَ، وابنُ جريجٍ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٦٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٦٩).
وقال الرازي: (قيل: يقالُ لهم في الآخرة: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨١).
وقال الشَّوكاني: (والمرادُ به: عذابُ الدُّنيا كيومِ بَدرٍ، وعذابُ الآخرةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥٤١).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على أنَّ لكُفَّارِ مكَّةَ أمانَينِ، يدفَعُ اللهُ عنهم العذابَ بِسَبَبِهما:

أحدُهما: كونُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيهم.

والثاني: استِغفارُهم اللهَ، لكِنَّ قَولَه تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يدلُّ على خلافِ ذلك، والجوابُ عن ذلك مِن عِدَّةِ أوجُهٍ؛ أظهَرُها وجهانِ:

الأول: أنَّ الأمانينِ مُنتَفيانِ؛ فالنبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خرَجَ مِن بينِ أظهُرِهم مُهاجِرًا، واستِغفارُهم مَعدومٌ؛ لإصرارِهم على الكُفرِ، وبعد انتفاءِ الأمرَينِ عَذَّبَهم بالقَتلِ والأسْرِ يومَ بدرٍ، كما يُشيرُ إليه قَولُه تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١].

الثاني: أنَّ المُرادَ بِقَولِه: ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ استغفارُ المُؤمِنينَ المُستضعَفينَ بمكَّةَ، وعليه فالمعنى أنَّه بعد خُروجِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان استغفارُ المؤمنينَ سَببًا لِرَفعِ العَذابِ الدُّنيويِّ عن الكُفَّارِ المُستَعجِلينَ للعذابِ بِقَولِهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ...﴾ الآية، وعلى هذا القَولِ فقد أسنَدَ الاستغفارَ إلى مجموعِ أهلِ مَكَّةَ، الصَّادِقَ بخُصوصِ المؤمنينَ منهم(١).

٣- اتِّخاذُ التَّصفيقِ والغِناءِ والمزاميرِ قربةً وطاعةً وطريقًا إلى اللهِ، هذا مِن جِنسِ دِينِ المُشركينَ الذين قال اللهُ فيهم: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ والمُكاءُ: هو التَّصويتُ بالفَمِ، كالصَّفيرِ والغِناءِ، والتَّصديةُ: التَّصفيقُ باليَدِ، فذمَّ اللهُ هؤلاءِ المُشركينَ الذين يجعلونَ هذا قائمًا مقامَ الصَّلاةِ(٢)،

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (١/ ٩٠).

فالتَّصفيق والتَّصفير ليسا من العبادةِ في شَيءٍ، وبه يُعلَمُ أنَّ ما يفعَلُه كثيرٌ مِن الجَهَلةِ المُدَّعينَ للتَّصوُّفِ كَذِبًا؛ مِن الرَّقصِ والتَّصفيقِ والصُّراخِ، زاعمينَ أنَّه عِبادةٌ- أنَّ ذلك مِن الخِذلانِ، وتَلبيسِ الشَّيطانِ، وأنَّ ذلك لا يكونُ عبادةً أبدًا، بل أوَّلُ مَن رَقَص وصَفَّقَ في شيءٍ يَظُنُّه عبادةً، هم عَبَدةُ العِجلِ، وكان ذلك مِن أفعالِ الكُفَّارِ؛ فالنبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلم وأصحابُه كانوا في مجالِسِهم كأنَّما على رُؤُوسِهم الطَّيرُ، فالذينَ يُصَفِّقونَ ويَضرِبونَ بالمَعازِفِ، ويزعمونَ أنَّ هذا دِينٌ وأحوالٌ ووِجْدان؛ هم في غُرورٍ مِن الشَّيطان، فلا ينبغي أن يُغتَرَّ بهم(١).

بلاغة الآيات:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾

- أُسنِدَ المَكرُ إلى جميعِ الكافرينَ- وإن كان الذينَ تَوَلَّوا المكرَ هُم سادةَ المُشرِكينَ وكُبَراءَهم- لأنَّ البَقيَّةَ كانوا أتباعًا للزُّعَماءِ؛ يأتَمِرونَ بأمْرِهم(٢).

- والإتيانُ بالمُضارعِ ﴿يَمْكُرُ﴾ في مَوضِعِ الماضي، الذي هو الغالِبُ مع ﴿إِذْ﴾؛ لاستحضارِ الحالةِ التي دبَّرُوا فيها المَكرَ(٣).

- والتَّعبيرُ بالمضارعِ في ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾، و﴿يَقْتُلُوكَ﴾، و﴿يُخْرِجُوكَ﴾؛ لأنَّ تلك الأفعالَ مُستقبَلةٌ بالنِّسبةِ لفِعلِ المَكرِ؛ إذ غايةُ مَكرِهم تحصيلُ واحدٍ مِن هذه الأفعالِ(٤).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٩٢-٥٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

- دُعاؤُهم على أنفُسِهم كنايةٌ منهم عَن كَونِ القُرآنِ ليسَ كما يُوصَفُ به؛ للتَّلازُمِ بين الدُّعاءِ على أنفُسِهم، وبين الجَزمِ بانتفاءِ ما جَعَلوه سببَ الدُّعاءِ، بحسَبِ عُرفِ كَلامِهم واعتقادِهم، والمرادُ منه التهَكُّم، وإظهارُ اليَقينِ والجزمُ التَّامُّ على كونِه باطلًا⁽¹⁾.

- وتَعليقُ الشَّرطِ بحَرفِ (إنْ) في ﴿إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ﴾ لأنَّ الأصلَ فيها عدَمُ اليَقينِ بوقوعِ الشَّرطِ؛ فهم غَيرُ جازمينَ بأنَّ القُرآنَ حَقٌّ، ومُنَزَّلٌ مِن اللهِ، بل هم موقنونَ بأنَّه غيرُ حَقٍّ، واليقينُ بأنَّه غيرُ حَقٍّ أخَصُّ مِن عَدمِ اليَقينِ بأنَّه حَقٌّ⁽²⁾.

- والضميرُ (هو) ضميرُ فَصلٍ؛ فهو يقتضي تقَوِّي الخبَرِ، أي: إن كان هذا حقًّا، ومِن عِندِك بلا شَكٍّ⁽³⁾.

- وتعريفُ المُسنَد ﴿الْحَقَّ﴾ بلامِ الجِنسِ، يقتَضي الحَصرَ، فاجتمَعَ في التركيبِ تقَوٍّ وحصرٌ⁽⁴⁾.

- وقَولُهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ذَكَروا عذابًا خاصًّا وهو مَطرُ الحِجارةِ، ثم عَمَّموا فقالوا: ﴿أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ويريدونَ بذلك كُلِّه عذابَ الدُّنيا؛ لأنَّهم لا يُؤمِنونَ بالآخرةِ⁽⁵⁾.

- وتَقييدُه بِقَولِه: ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ مع أنَّ الإمطارَ لا يكونُ إلَّا منها؛ لإزالةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٣٣).

وَهِم مَن يتوهَّمُ أنَّ الإمطارَ مَجازٌ عن مُطلَقِ الرَّجمِ، وأنَّه إنَّما ذُكِرَ لِبَيانِ أنَّ الحِجارةَ المَرجومَ بها في الكثرةِ، مِثلُ المَطَرِ⁽¹⁾، وقيل غير ذلك⁽²⁾.

- ووصفوا العذابَ بالأليمِ؛ زيادةً في تحقيقِ يَقينِهم بأنَّ المَحلوفَ عليه بهذا الدُّعاءِ ليس مُنَزَّلًا من عندِ الله؛ فلذلك عَرَّضُوا أنفُسَهم لخَطَرٍ عظيمٍ، على تقديرِ أن يكونَ القُرآنُ حَقًّا، ومُنَزَّلًا مِن عندِ الله⁽³⁾.

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾

- لَمَّا كانت كينونَتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيهم سببًا لانتفاءِ تَعذيبِهم، جعَلَ خَبَرَ كان الإرادةَ المنفِيَّةَ- أي: ما كان الله مُرِيدًا لِتَعذيبِهم- وانتفاءُ الإرادةِ للعَذابِ أبلَغُ مِن انتفاءِ العَذابِ. ولَمَّا كان استِغفارُهم دونَ تلك الكَينونةِ الشَّريفةِ، لم يؤكِّدْ باللَّامِ، بل جاء قولُه ﴿مُعَذِّبَهُمْ﴾ خبرَ كان، فشتَّانَ ما بينَ استِغفارِهم وكَينونَتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيهم⁽⁴⁾.

- وقَولُه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ كنايةٌ عن استحقاقِهم العذابَ، وإعلامٌ بكرامةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عِندَه؛ لأنَّه جعَلَ وُجودَه بين ظَهرانَي المُشرِكينَ مع استحقاقِهم العقابَ سببًا في تأخيرِ العَذابِ عنهم⁽⁵⁾.

- وتوجيهُ الخِطابِ بهذا إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، واجتلابُ ضَميرِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٣-٣٣٤).

خِطابِه بقَولِه: ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ لطيفةٌ مِن التَّكرِمةِ؛ إذ لم يقُل: (وما كان اللهُ لِيُعذِّبَهم وفيهم رَسولُه)⁽¹⁾.

- وقَولُه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فيه تعريضٌ بأنَّه يُوشِكُ أن يُعَذِّبَهم إن لم يستغفِرُوا، وهذا مِن الكِنايةِ العُرْضِيَّةِ⁽²⁾.

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- (مَا) في قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ...﴾ استفهاميَّةٌ، والاستِفهامُ إنكاريٌّ، والتَّقديرُ: ما الذي ثبَت لهم لِأنْ ينتفِيَ عنهم عذابُ اللهِ، والمعنى: لم يثبُتْ لهم شيءٌ⁽³⁾.

- ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿يَصُدُّونَ﴾، مفيدةٌ لِكمالِ قُبحِ ما صَنَعوا من الصَّدِّ؛ فإنَّ مُباشَرتَهم للصَّدِّ عنه مع عَدمِ استحقاقِهم لولايةِ أمرِه؛ في غايةِ القُبحِ، وهو ردٌّ لِما كانوا يقولونَ: نحنُ ولاةُ البيتِ والحَرَمِ، فنصُدُّ مَن نشاءُ، ونُدخِلُ مَن نَشاءُ⁽⁴⁾.

- وجملةُ: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ تَعيينٌ لأوليائِه الحقِّ، وتقريرٌ لِمَضمونِ ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ مع زيادةِ ما أفادَه القَصرُ مِن تَعيينِ أوليائِه، فهي بمنزلةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٣٥).

والكِنايةُ العُرْضيَّةُ: هي المَسوقةُ لأجْلِ موصوفٍ غيرِ مَذكورٍ، كما يُقال في عُرْضِ مَن يُؤذي المُؤمِنين: المؤمِنُ هو الذي يُصلِّي ويُزكِّي، ولا يُؤذِي أخاه المسلِمَ، ويُتوصَّلُ بذلك إلى نفيِ الإيمانِ عن المؤذِي، ومتى كانتِ الكنايةُ عُرْضيَّة كان إطلاقُ اسمِ التَّعريضِ عليها مناسبًا. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤١٠- ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٠).

الدَّليلِ على نَفيِ وِلايةِ المُشركينَ؛ ولِذلك فُصِلَت(١).

- قولُه: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ نفى العِلمَ عن أكثرِهم دونَ أن يُقالَ: (ولكنَّهم لا يعلمونَ) فاقتضى أنَّ منهم من يعلَمُ أنَّهم ليسُوا أولياءَ المسجِدِ الحرامِ، وهم من أيقَنوا بصِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم واستَفاقُوا من غَفلَتِهم القديمةِ، ولكِن حمَلَهم على المُشايَعةِ للصَّادِّينَ عن المسجِدِ الحرامِ، العنادُ وطَلَبُ الرِّئاسة، وموافقةُ الدَّهماءِ على ضلالِهم(٢).

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

- مَساقُ هذه الجُملةِ؛ لتَقريرِ استحقاقِهم العذابَ، أو عدمِ وِلايتِهم للمَسجِد؛ فإنَّها لا تليقُ بمن هذه صلاتُه(٣).

- قوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ الأمرُ هنا للتَّوبيخِ والتَّغليظِ(٤).

- وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ... فَذُوقُوا﴾ فيه التفاتٌ إلى مُخاطبةِ الكُفَّار؛ تهديدًا لهم، ومبالغةً في إدخالِ الرَّوعةِ في قُلوبِهم(٥).

- قوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أُتِيَ بخبَرِ (كان) جملةً مُضارعيَّةً ﴿تَكْفُرُونَ﴾ فأفادَتِ الاستمرارَ والعادةَ(٦).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٤٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤٠).

الآيتان (٢٦-٢٧)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿حَسْرَةً﴾: أي: ندامةً واغتمامًا. وأصلُ (حسر): يدلُّ على كَشْفِ الشَّيءِ، فالحسرةُ انكشافٌ عن حالِ النَّدامةِ[1].

﴿لِيَمِيزَ﴾ أي: لِيَفصِلَ ويُخَلِّصَ. وأصلُ (ميز) يدلُّ على انفصالِ شَيءٍ مِن شَيءٍ[2].

﴿فَيَرْكُمَهُۥ﴾: أي: فيَجمَعَه، ويَضُمَّ بَعضَه إلى بعضٍ، والرُّكامُ: ما يُلقى بعضُه على بعضٍ. وأصل (ركم) يدلُّ على تجمُّعِ الشيءِ[3].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ الذينَ كفَروا يُنفِقونَ أموالَهم؛ ليَتَقَوَّوا بها على قِتالِ المُسلمينَ، ولِيَصرِفوا النَّاسَ عن دينِ الله، هذه الأموالَ سَيُنفِقونَها، ثم تكونُ عليهم حَسرةً وندامةً، حين تذهَبُ بلا فائِدةٍ، ثمَّ يُهزَمونَ ويُقهَرونَ، والذينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٢)، ((تفسير الرازي)) (٤/ ١٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩١).

كَفَروا يحشُرُهم اللهُ إلى جهنَّمَ؛ ليتعذَّبوا فيها، لِيَفصِلَ اللهُ بين المؤمنينَ الطَّيبينَ وبَين الكافرينَ الخبيثينَ؛ فالمؤمنونَ في الجنَّةِ، والكفَّارُ في النَّارِ، ويجعَلُ اللهُ الكفَّارَ الخَبيثينَ بعضَهم فوقَ بعضٍ حتى يتراكَموا، فيجعَلهم كلَّهم في جهنَّمَ، وأولئك هم الذينَ خَسِروا أعظمَ الخسرانِ في الدُّنيا والآخرةِ.

تَفسيرُ الآيتين:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى مِن شرْحِ أحوالِ الكفارِ في الطَّاعاتِ البدنيَّةِ، وهي صلاتُهم- شرَحَ حالَهم في الطَّاعاتِ الماليَّةِ، وهي إنفاقُهم أموالَهم للصَّدِّ عن سبيلِ اللهِ⁽¹⁾.

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى صَدَّهم المُسلمينَ عن المَسجِدِ الحرامِ، الموجِبَ لِتَعذيبِهم- عقَّبَ بذِكرِ مُحاوَلتِهم استئصالَ المُسلمينَ، وصَدِّهم عن الإسلامِ⁽²⁾، فقال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: إنَّ الكفَّارَ مِن مُشرِكي قُريشٍ، يُنفِقونَ أموالَهم ليتقَوَّوا بها على قتالِ المُسلمينَ، ولِيَصرِفوا النَّاسَ عن دِينِ اللهِ⁽³⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٦٩، ١٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٩٤).
قال ابن جرير: (جائزٌ أن يكونَ عنى المُنفِقينَ أموالَهم لِقِتالِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه بأحُدٍ، وجائزٌ أن يكونَ عَنى المُنفِقينَ منهم ذلك ببَدرٍ، وجائزٌ أن يكونَ عَنى =

﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾.

أي: فَسيُنفِقُ الكفَّارُ أموالَهم لمحاربةِ المُسلمينَ، وصَدِّ النَّاسِ عن دينِ اللهِ، ثمَّ تَصيرُ نَفَقتُهم ندامةً شديدةً عليهم، حين تذهَبُ أموالُهم سُدًى بلا طائلٍ، فلا يظفَرونَ بما كانوا فيه يَطمَعونَ، وهم في آخِرِ الأمرِ يُغلَبونَ ويُقهَرونَ⁽¹⁾.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ * كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢٠-٢١].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبرَ تعالى بما آلَ إليه حالُ الكُفَّارِ في الدُّنيا، مِن حَسرَتِهم، وكَونِهم

= الفريقينِ، وإذا كان ذلك كذلك فالصَّوابُ في ذلك أن يَعُمَّ كما عمَّ جَلَّ ثناؤه الذين كَفَروا من قُريشٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٧٤).

وقال الشنقيطي: (الذي عليه جُمهورُ العُلَماءِ مِن المُفَسِّرين وأصحاب المغازي والتَّاريخ: أنَّ هذه الآيَةَ مِن سُورةِ الأنفال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ نزلت في قضيَّةِ قُريشٍ مع عيرِ أبي سُفيانَ؛ لأنَّ عِيرَ أبي سُفيانَ لَمَّا نجَتْ، وقُتِلَ مَن قُتِلَ من أشرافِهم يومَ بَدرٍ، اجتمَعَ أشرافُ قُريشٍ، وطلَبُوا كلَّ مَن كانت له تجارةٌ في تلك العيرِ أن يَمنَحَهم ذلك المالَ؛ لِيَستعِينوا به، ويَستَعْدُوا على حربِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، طالبينَ منهم إدراكَ الثَّأرِ، فكانت إمكانيَّاتُ أُحُدٍ هي من أموالِ تجاراتِ تلك العيرِ، وأنَّ ذلك هو معنى إنفاقِهم لِيَصُدُّوا عن سبيلِ اللهِ. هذا هو الأصوَبُ إن شاء الله، وعليه جماهيرُ العُلَماءِ). ((العذب النمير)) (٤/ ٥٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٩٥، ٥٩٦).

مَغلوبينَ- أخبَرَ بما يَؤُولُ إليه حالُهم في الآخرةِ، مِن حَشْرِهم إلى جَهنَّمَ(١).

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

أي: والكُفَّارُ يجمَعُهم اللهُ تعالى يومَ القِيامةِ إلى نارِ جَهنَّمَ؛ ليُعذِّبوا فيها(٢).

﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى حَشْرَ الكافِرينَ، ذكَرَ عِلَّتَه، فقال(٣):

﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾.

أي: يحشُرُ اللهُ الكفَّارَ الخَبيثينَ إلى جهنَّم؛ ليُفرِّقَ بينهم وبين المؤمنين الطيِّبينَ، فيكونَ الكفَّارُ في جهنَّم، والمؤمنونَ في الجنَّةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٦٠٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٧٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٦٠١).

ومِمَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والسعديُّ، وابنُ عاشورٍ، والشنقيطيُّ. يُنظر: المصادر السابقة.

وقال ابنُ كثيرٍ: (وقولُه تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾... يحتملُ أن يكونَ هذا التميزُ في الآخرةِ، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤]، وقال في الآية الأخرى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]. ويحتملُ أن يكونَ هذا التَّميزُ في الدُّنيا، بما يظهرُ مِن أعمالِهم للمُؤمنينَ، وتكونَ اللَّامُ معلَّلةً لِما جَعلَ اللهُ للكُفَّارِ مِن مالٍ يُنفِقونَ في الصَّدِّ عن سبيل الله، أي: إنَّما أقدَرْناهم على ذلك؛ ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي: مَن يُطيعُه بقِتالِ أعدائِه الكافرين، أو يَعصيه =

﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾.

أي: ويجعَلَ اللهُ الكُفَّارَ الخبيثينَ بعضَهم فوقَ بَعضٍ، فيجمَعَهم جميعًا؛ حتى يتَراكَموا ويَكثُروا، فيجعَلَهم كلَّهم في نارِ جَهنَّمَ(١).

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

أي: أولئك الكفَّارُ الخبيثونَ، الذين يُجمعون كلُّهم، فيُركَمون في جهنَّمَ، هم الذين خسِروا أنفسَهم وأهْليهم يومَ القيامةِ، وخسِروا الدُّنيا والآخرةَ، وذلك هو الخسرانُ المبينُ(٢).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ

= بالنُّكولِ عَن ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٦، ١٦٧] الآية، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩] الآية، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ونظيرَتُها في براءة أيضًا. فمَعنى الآيةِ على هذا: إنَّما ابتَلَيناكم بالكُفَّارِ يُقاتِلونكم، وأقدَرْناهم على إنفاقِ الأموالِ وبَذْلِها في ذلك؛ ليتميَّزَ الخبيثُ من الطيِّبِ، فيُجعَلَ الخبيثُ بعضُه على بعضٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤). ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٦٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٧٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٦٠٢).

قال ابن عاشور: (وجَعْلُ الخَبيثِ بَعضَه على بعضٍ: عِلَّةٌ أخرى لِحَشرِ الكافرينَ إلى جهنَّم؛ ولذلك عُطِفَ بالواو، فالمقصودُ جَمعُ الخبيثِ- وإن اختلَفَت أصنافُه- في مَجمَعٍ واحِدٍ؛ لزيادةِ تَمييزِه عن الطَّيِّب، ولتشهيرِ مَن كانوا يُسِرُّون الكُفرَ ويُظهِرونَ الإيمانَ، وفي جَمعِه بهذه الكيفيَّةِ تَذليلٌ لهم وإيلامٌ؛ إذ يُجعَلُ بعضُهم على بعضٍ حتى يصيرُوا ركامًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٦٠٢).

الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هكذا هو دَيدَنُ أعداءِ هذا الدِّينِ؛ إنَّهم يُنفِقونَ أموالَهم، ويَبذُلونَ جُهودَهم، ويَستنفِدونَ كَيدَهم، في الصَّدِّ عن سبيلِ الله، وفي إقامةِ العَقَباتِ في وجهِ هذا الدِّينِ، وفي حربِ العُصبةِ المُسلِمة في كلِّ أرضٍ وفي كلِّ حينٍ، إنَّ المعركةَ لن تَكُفَّ، وأعداء هذا الدِّينِ لن يَدَعُوه في راحةٍ، ولن يترُكوا أولياءَ هذا الدِّينِ في أمنٍ. واللهُ سبحانه يُنذِرُ الكُفَّارَ الذين يُنفِقونَ أموالَهم لِيَصُدُّوا عن سبيل اللهِ بأنَّها ستَعودُ عليهم بالحَسرةِ، إنَّهم سيُنفِقونَها لِتَضيعَ في النِّهايةِ، ولِيُغلَبوا هم، وينتصِرَ الحقُّ في هذه الدُّنيا، وسيُحشَرونَ في الآخرةِ إلى جهنَّمَ، فتتِمُّ الحَسرةُ الكُبرى⁽¹⁾.

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ مِن العِبرةِ في هذا للمُؤمنينَ أنَّهم أَولى مِن الكفَّارِ ببَذلِ أموالِهم وأنفُسِهم في سبيلِ الله؛ لأنَّ لهم بها مِن حيثُ جُملَتُهم سعادةَ الدَّارينِ، ومن حيثُ أفرادُهم الفَوزَ بإحدى الحُسنَيَينِ، هكذا كان في كلِّ زمانٍ قام المسلمونَ فيه بحقوقِ الإسلامِ والإيمانِ، وهكذا سيكونُ إذا عادُوا إلى ما كان عليه سَلَفُهم الصَّالحون، فالكفَّارُ في هذا الزَّمانِ يُنفِقونَ القناطيرَ المُقنطَرةَ مِن الأموالِ؛ للصَّدِّ عن الإسلامِ، وفتنةِ الضُّعفاءِ مِن العوامِّ⁽²⁾!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ هذا من

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٥٠٦، ١٥٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥٥٠).

إخبارِ القُرآنِ بالغُيوبِ؛ لأنَّه أخبَرَ بما يكونُ قبلَ أن يكونَ، فكان كما أخبَرَ(١).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ عبَّرَ بعبارةٍ ظاهرةٍ في مَضرَّتِها، فقال: ﴿عَلَيْهِمْ﴾، وأبلَغَ في ذلك بأنْ أوقَعَ عليها المَصدرَ، فقال: ﴿حَسْرَةً﴾ أي: لضياعِها وعَدمِ تأثيرِها(٢).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ قولُه: ﴿فَيَرْكُمَهُ﴾ عطفُ تَفسيرٍ، يؤكِّدُ الذي قَبلَه في إرادةِ الحقيقةِ، مع إفهامِ شِدَّةِ الاتِّصالِ، حتى يصيرَ الكُلُّ كالشَّيءِ الواحِدِ، كالسَّحابِ المرَكومِ(٣).

بلاغة الآيتين:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾

- أتى بِصيغةِ المُضارِعِ في ﴿يُنْفِقُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ ذلك دأْبُهم، وأنَّ الإنفاقَ مُستمِرٌّ؛ لإعدادِ العُدَدِ لِغَزوِ المُسلمينَ، فإنفاقُهم حصلَ في الماضي، ويحصُلُ في الحالِ والاستقبالِ، وأشعَرَت لامُ التعليلِ في ﴿لِيَصُدُّوا﴾ بأنَّ الإنفاقَ مُستمِرٌّ؛ لأنَّه مَنوطٌ بعلَّةٍ ملازِمةٍ لِنُفوسِهم، وهي بُغْضُ الإسلامِ، وصَدُّهم النَّاسَ عنه(٤).

- والفاءُ في ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا﴾ تَفريعٌ على العلَّةِ؛ لأنَّهم لَمَّا كان الإنفاقُ دَأْبَهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤٠).

لتلك العِلَّةِ المذكورةِ، كان ممَّا يتفرَّعُ على ذلك تكَرُّرُ هذا الإنفاقِ في المُستقبَلِ، أي: ستكونُ لهم شَدائِدُ مِن بأسِ المُسلمينَ تَضطرُّهم إلى تكريرِ الإنفاقِ على الجُيوشِ؛ لِدفاعِ قُوَّةِ المُسلمينَ(١).

- قوله: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ جعَلَ ذاتَ الأموالِ حَسرةً- وهي عاقبةُ إنفاقِها- مُبالغةً(٢).

- قَولُه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ فيه عُدولٌ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ- فلم يَقُلْ: (وإلى جهنَّمَ يُحشَرونَ)؛ للإفصاحِ عن التَّشنيعِ بهم في هذا الإنذارِ، حتى يُعادَ استحضارُ وَصْفِهم بالكُفرِ بأصرَحِ عبارةٍ(٣).

- وعُرِّفوا بالمَوصوليَّةِ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ إيماءً إلى أنَّ عِلَّةَ استِحقاقِهم الأمرَينِ في الدُّنيا والآخِرةِ، هو وَصفُ الكُفرِ، فيُعلَمُ أنَّ هذا يحصُلُ لِمَن لم يُقلِعوا عن هذا الوَصفِ قبل حُلولِ الأمرَينِ بهم(٤).

٢- قولُه تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

- ﴿لِيَمِيزَ﴾ مُتعَلِّقٌ بـ ﴿يُحْشَرُونَ﴾ لبيانِ أنَّ مِن حِكمةِ حَشْرِهم إلى جهنَّمَ أنْ يتميَّزَ الفريقُ الخَبيثُ مِن النَّاسِ، من الفَريقِ الطَّيِّبِ، في يومِ الحَشرِ(٥).

- وقَولُه: ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ﴾ المقصودُ منه جمعُ الخَبيثِ، وإن اختلَفَت أصنافُه في مجمعٍ واحدٍ؛ لزيادةِ تَمييزِه عن الطيِّبِ، ولتشهيرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَن كانوا يُسِرُّونَ الكُفرَ، ويُظهِرونَ الإيمانَ، وفي جَمعِه بهذه الكيفيَّةِ تذليلٌ لهم وإيلامٌ؛ إذ يُجعَلُ بَعضُهم على بعضٍ، حتى يصيرُوا رُكامًا(١).

- قولُه: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: الإشارةُ بـ ﴿أُولَئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ استحقاقَهم الخبَرَ الواقعَ عن اسمِ الإشارةِ، كان بسبَبِ الصِّفاتِ التي ذُكِرَت قبل اسمِ الإشارةِ؛ فإنَّ من كانت تلك حالَه، كان حقيقًا بأنَّه قد خسِرَ أعظَمَ الخُسرانِ، لأنَّه خَسِرَ منافِعَ الدُّنيا، ومنافِعَ الآخرةِ(٢).

- وصيغةُ القَصرِ في قَولِه: ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ هي للقَصرِ الادِّعائيِّ؛ للمُبالغةِ في اتِّصافِهم بالخُسرانِ، حتى يُعَدَّ خُسرانُ غَيرِهم كَلَا خُسرانٍ، وكأنَّهم انفَرَدوا بالخُسرانِ مِن بينِ النَّاسِ(٣).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٣٨-٤٠)

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ (٣٨) وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ (٣٩) وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ (٤٠)﴾.

غريبُ الكَلماتِ:

﴿سَلَفَ﴾: أي: مضَى، والسَّلَفُ: المتقدمُ، وأصلُ (سلف): تَقَدُّم وَسَبْق[1].

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ نَبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُخبِرَ الذين كفَروا مِن قريشٍ أنَّهم إنْ يَنتَهوا عن الكُفرِ، وقتالِ المُؤمنينَ، يَغفِرِ اللهُ لهم ما تقدَّمَ، وإن يَعودُوا فقد سبقَت طريقَتُه في إهلاكِ كُفَّارِ قريشٍ يومَ بَدرٍ، وإهلاكِ غَيرِهم مِن الأُمَمِ المُكَذِّبةِ.

وأمرَ اللهُ عبادَه المُؤمنينَ أن يُقاتِلوا الكفَّارَ؛ حتى لا يكونَ في الأرضِ شِركٌ يُفتَنُ بِسَببِه النَّاسُ، ويكونَ الدِّينُ كُلُّه خالصًا لله، فإنِ انتَهى الكُفَّارُ فإنَّ اللهَ بما يَعمَلونَ بَصيرٌ، وإن أعرَضُوا وأصَرُّوا على الكُفرِ والقتالِ، فلْيُوقِنِ المُؤمِنونَ أنَّ اللهَ وَلِيُّهم وسَيِّدُهم، الذي يُعينُهم وينصُرُهم عليهم، هو سُبحانَه نِعمَ المُعينُ لأوليائِه، ونِعمَ النَّاصِرُ لهم على أعدائِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ (٣٨)﴾.

---

[1] يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢ / ٤٨٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ ضلالَ الكافِرينَ في عِباداتِهم البَدَنيَّةِ، وعِباداتِهم الماليَّةِ؛ أرشَدَهم إلى طريقِ الصَّوابِ(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى ما يحُلُّ بالكافِرينَ مِن حَشْرِهم إلى النَّارِ، وجَعْلِهم فيها، وخُسْرِهم- تلطَّفَ بهم، وأنَّهم إذا انتَهَوا عن الكُفرِ وآمَنوا، غُفِرَت لهم ذُنوبُهم السَّالِفةُ(٢).

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ تعالى حالَ الكُفَّارِ الذين يُصِرُّونَ على كُفرِهم، وصَدِّهم عن سَبيلِ الله، وقتالِ رَسولِه والمؤمنينَ، وما لهم في الدُّنيا والآخرةِ- قفَّى عليه ببيانِ حُكمِ الذينَ يَرجِعونَ عنه، ويَدخُلونَ في الإسلامِ؛ لأنَّ الأنفُسَ صارت تتشَوَّفُ إلى هذا البَيانِ(٣)، فقال:

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ ﴾.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- لكُفَّارِ قُريشٍ: إنْ يَترُكوا الكُفرَ، وقِتالَ المؤمنينَ، يَغفِرِ اللهُ لهم ما قد تقدَّمَ مِن كُفرِهم ومَعاصيهم(٤).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٢)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٧٦، ١٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥).
قال ابنُ تيميةَ: (قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ يتناولُ كلَّ كافرٍ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٢/ ٤٧).

وعَن عَمرِو بنِ العاصِ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال له: ((أَمَا عَلِمتَ أنَّ الإسلامَ يَهدِمُ ما كان قَبلَه))(١).

﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

أي: وإنْ يَعُدْ هؤلاءِ المُشرِكونَ مِن قُريشٍ إلى قتالِك، ويستمِرُّوا على كُفرِهم؛ فقد مَضَت طريقَتُنا في إهلاكِ كُفَّارِ قُريشٍ في يومِ بَدرٍ، وإهلاكِ غَيرِهم مِن الأُمَمِ الماضيةِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فاطر: ٤٣-٤٤].

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ أنَّ هؤلاءِ الكفَّارَ إن انتَهَوا عن كُفرِهم، حصَلَ لهم الغُفرانُ، وإن عادُوا فهم مُتوَعَّدونَ بسُنَّةِ الأوَّلينَ- أتبَعَه بأنْ أمَرَ بقتالِهم إذا أصَرُّوا(٣).

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾.

---

(١) رواه مسلم (١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢٧)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢١٠)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦، ٧).

قال ابنُ عطيةَ: (والتخويفُ عليهم بقصَّة بدرٍ أشدُّ؛ إذ هي القريبةُ منهم والمعايَنة عندَهم). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٣)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٧٠).

أي: وقاتِلوا- أيُّها المُؤمِنونَ- الكُفَّارَ؛ حتَّى لا يكونَ في الأرضِ شِركٌ يُفتَنُ بِسَبَبِه النَّاسُ(١).

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أُمِرتُ أن أقاتِلَ النَّاسَ حتى يَشهَدُوا أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحمَّدًا رسولُ اللهِ، ويُقيمُوا الصَّلاةَ، ويُؤتُوا الزَّكاةَ، فإذا فَعَلوا ذلك عَصَموا منِّي دِماءَهم وأموالَهم إلَّا بحَقِّ الإسلامِ، وحِسابُهم على اللهِ))(٢).

وعنِ ابنِ عُمرَ رَضِيَ اللهُ عنهما أيضًا، (أنَّه أتاه رَجُلانِ في فتنةِ ابنِ الزُّبيرِ، فقالا: إنَّ النَّاسَ صَنَعوا وأنت ابنُ عُمرَ، وصاحِبُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فما يمنَعُك أن تخرُجَ؟! فقال: يمنَعُني أنَّ اللهَ حرَّمَ دمَ أخي. فقالا: ألَمْ يقُلِ اللهُ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؟! فقال: قاتَلْنا حتَّى لم تكُنْ فِتنةٌ، وكان الدِّينُ للهِ، وأنتم تريدونَ أن تُقاتِلوا حتى تكونَ فِتنةٌ، ويكونَ الدِّينُ لِغَيرِ اللهِ!)(٣).

﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾.

أي: وقاتِلوا الكفَّارَ حتى تكونَ الطَّاعةُ والعبادةُ كُلُّها خالصةً لله وَحدَه، وينتشِرَ الإسلامُ، فلا يُعبَد إلَّا اللهُ وَحدَه لا شَريكَ له(٤).

عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سُئِلَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الرَّجُلِ يُقاتِلُ شَجاعةً، ويُقاتِلُ حَمِيَّةً، ويقاتِلُ رِياءً، أيُّ ذلك في سبيلِ اللهِ؟ فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: مَن قاتَلَ لِتَكونَ كَلِمةُ اللهِ هي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧، ٨).

(٢) رواه البخاري (٢٥) واللفظ له، ومسلم (٢٢).

(٣) رواه البخاري (٤٥١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٧٨)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٨).

العُليا فهو في سبيلِ اللهِ))(١).

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾.

أي: فإن انتَهى الكُفَّارُ عن الشِّركِ وأسلَموا؛ فإنَّ اللهَ لا يخفى عليه ما يَعمَلونَ في الظَّاهِرِ والباطِنِ، فيُجازيهم عليه، فكُفُّوا عن قِتالِهم، وإنْ لم تعلَموا بواطِنَهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

وعن أُسامةَ بنِ زَيدٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((بَعَثَنا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في سَرِيَّةٍ، فصَبَّحْنا الحُرُقاتِ(٣) مِن جُهَينةَ، فأدركْتُ رجلاً، فقال: لا إلهَ إلَّا اللهُ، فطَعَنْتُه فوقَعَ في نفسي مِن ذلك، فذَكَرْتُه للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أقالَ: لا إلهَ إلَّا اللهُ وقَتَلْتَه؟! قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّما قالها خوفًا مِن السِّلاحِ، قال: أفَلَا شقَقْتَ عن قَلْبِه، حتى تعلَمَ أقالَها أم لا؟! فما زالَ يكرِّرُها عليَّ حتى تمنَّيتُ أنِّي أسلَمْتُ يومَئذٍ))(٤).

﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٤٠﴾.

﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾.

---

(١) رواه البخاري (١٢٣) ومسلم (١٩٠٤)، واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٨٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٩٢، ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٨).

(٣) فصَبَّحْنا الحُرُقاتِ: أي: أتوهم وهَجَموا عليهم صباحًا، قبلَ أنْ يَشْعُروا بهم. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٦)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٢/ ١٩٥).

والحرقات: قبيلةٌ مِن جهينةَ، والظاهرُ أنَّه جمعُ حرقة، واسمُه: جهيشُ بنُ عامرٍ، قيل: سُمِّي الحرقة؛ لأنَّه حرقَ قومًا بالنبلِ فبالَغ في ذلك. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٧/ ٢٧١).

(٤) رواه البخاري (٤٢٦٩) ومسلم (٩٦)، واللفظ له.

أي: وإنْ أعرَضَ الكُفَّارُ عن الإيمانِ، وأصَرُّوا على الكُفرِ والقتالِ، فقاتِلوهم، وأيقِنُوا أنَّ اللهَ وليُّكم وسيِّدُكم، الذي يُعينُكم، ويَنصُرُكم عليهم(١).

﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾.

أي: الله عزَّ وجلَّ هو نِعْمَ المُعينُ لأوليائِه، ونِعْمَ النَّاصِرُ لهم، الذي ينصُرُهم على أعدائِهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥].

وقال سبحانه: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

مَن كان في حمايةِ اللهِ تعالى وفي حِفظِه وكِفايتِه، كان آمِنًا من الآفاتِ، مَصونًا عن المُخالفاتِ، قال تعالى:﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- مِن لُطفِ اللهِ تعالى بعبادِه أنَّه لا يمنَعُه كُفرُ العبادِ، ولا استمرارُهم في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٨٣)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٨).

قال ابنُ عطيةَ: (وقولَه تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا...﴾ الآيةَ، معادلٌ لقولِه: ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا﴾، والمعنى: فإنِ انْتَهوا عن الكفرِ، فاللهُ مجازيهم... وإن تولَّوْا، ولم ينتهوا، فاعلموا أنَّ الله ينصرُكم عليهم، وهذا وعدٌ محضٌ بالنصرِ والظَّفرِ، أي: فجدُّوا). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٨٣)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٧٠).

العنادِ، مِن أن يَدعُوَهم إلى طريقِ الرَّشادِ والهُدى، وينهاهم عما يُهلِكُهم من أسبابِ الغَيِّ والرَّدَى؛ قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾(١).

٢- الإسلامُ يَهدِمُ ما كان قَبلَه بنَصِّ الكتابِ العزيزِ؛ قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾(٢).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ احتجَّ به أبو حنيفةَ رحمه الله، على أنَّ المُرتَدَّ إذا أسلَمَ لا يلزَمُه قَضاءُ العِباداتِ المتروكةِ في حالِ الرِّدَّةِ وقَبلَها(٣).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ فيه حُجَّةٌ لِمَن رأى الاستتابةَ واجِبةً؛ فقد أمرَ اللهُ رَسولَه أن يُخبِرَ جَميعَ الذين كفَروا أنَّهم إن انتَهَوا غُفِرَ لهم ما سلفَ، وهذا معنى الاستِتابةِ، والمرتَدُّ مِن الذين كَفَروا، والأمرُ للوُجوبِ، فعُلمَ أنَّ استتابةَ المُرتَدِّ واجبةٌ، ولا يقالُ: فقد بلَغَهم عُمومُ الدَّعوةِ إلى الإسلامِ؛ لأنَّ هذا الكُفرَ أخصُّ من ذلك الكفرِ، فإنَّه يُوجِبُ قَتلَ كُلِّ مَن فَعَله، ولا يجوزُ استبقاؤه وهو لم يُستَتَبْ مِن هذا الكُفرِ(٤).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ فيه دليلٌ على قَبولِ توبةِ الزِّنديقِ؛ فإنَّ قَولَه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يتناوَلُ جمَيعَ أنواعِ الكُفرِ، فإنْ قيلَ: الزِّنديقُ لا يُعلَمُ مِن حالِه أنَّه هل انتَهى مِن زَندقَتِه أم لا؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٢١).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٤/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣١٩)، ويُنظر أيضًا: ((شرح مختصر الطحاوي)) للجصاص (١/ ٧٣٥) (٦/ ١٤٠)، ((بدائع الصنائع)) للكاساني (٢/ ١١٧).

(٤) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣٢٢).

فالجوابُ: أحكامُ الشَّرعِ مَبنيَّةٌ على الظَّواهِرِ، فلما رجَعَ وجَبَ قَبولُ قَولِه فيه⁽¹⁾.

٦- الكُفرُ الذي يَعقُبُه الإيمانُ الصَّحيحُ، لا يَبقى على صاحِبِه منه ذَمٌّ، هذا معلومٌ بالاضطرارِ مِن دِينِ الإسلامِ، بل مِن دِينِ الرُّسُلِ كُلِّهم، كما قال اللهُ تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾⁽²⁾.

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ فيه أنَّ الحَربيَّ إذا أسلَمَ لم يُؤخَذْ بِشَيءٍ ممَّا عَمِلَه في الجاهليَّة: لا مِن حُقوقِ اللهِ، ولا مِن حُقوقِ العبادِ⁽³⁾.

٨- قَوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ هذه لطيفةٌ مِنَ اللهِ سُبحانَه مَنَّ بها على الخَليقةِ؛ وذلك أنَّ الكُفَّارَ يقتَحِمونَ الكُفرَ والجرائِمَ، ويَرتكبونَ المعاصِيَ، ويَرتكبونَ المآثِمَ، فلو كان ذلك يُوجِبُ مُؤاخَذتَهم لَما استدرَكوا أبدًا توبةً، ولا نالَتْهم مغفرةٌ، فيسَّرَ اللهُ عليهم قَبولَ التَّوبةِ عند الإنابةِ، وبذَلَ المَغفرةَ بالإسلامِ، وهَدَمَ جَميعَ ما تقَدَّمَ؛ ليكونَ ذلك أقرَبَ إلى دخولِهم في الدِّينِ، وأدعَى إلى قَبولِهم كلمةَ الإسلامِ، وتأليفًا على المِلَّةِ، وترغيبًا في الشَّريعةِ؛ فإنَّهم لو عَلِموا أنَّهم يُؤاخَذونَ لَما أنابوا ولا أسلَموا⁽⁴⁾.

٩- أُطلِقَت الوَلايةُ في القُرآنِ بالنِّسبةِ إلى الله جلَّ وعلا إطلاقَينِ:

أُطلِقَ المولى بمعنى الوَلايةِ الخاصَّةِ، وهي: النَّصرُ والتَّمكينُ والتَّوفيقُ، كقوله هنا: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾ وقولِه: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ﴾ [التحريم: الآية ٤] وهذا كثيرٌ في القُرآنِ؛ ولذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا

---

(1) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٣).

(2) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٢٨٣).

(3) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ١٥٣).

(4) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٣٩٨).

وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ [محمد: الآية ١١] أي: لا مَولى لهم وَلايةَ نَصرٍ وتَمكينٍ.

وأُطلِقَ المولى بمعنَى ولايةِ خَلقٍ وقُدرةٍ ورُبوبيَّةٍ ومِلكٍ، وهو في قَولِه: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ﴾ [الأنعام: ٦٢] وهي في الكفَّارِ؛ لأنَّه مولى الكُفَّارِ ولايةَ مِلكٍ وتصرُّفٍ ونُفوذٍ وقُدرةٍ، ومولى المؤمنينَ ولايةَ نَصرٍ وتمكينٍ وثوابٍ⁽¹⁾.

بلاغةُ الآياتِ:

١ - قَولُه تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾

هذا كلامٌ جارٍ على عادةِ القُرآنِ في تَعقيبِ التَّرهيبِ بالتَّرغيبِ، والوعيدِ بالوَعدِ، والعَكس، فأنذَرَهم بما أنذَرَ، وتوعَّدَهم بما تَوعَّد، ثم ذكَّرَهم بأنَّهم مُتمَكِّنونَ مِن التَّدارُكِ، وإصلاحِ ما أفسَدُوا، فأمَرَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن يَقولَ لهم ما يفتَحُ لهم بابَ الإنابةِ⁽²⁾.

- وقَولُه: ﴿وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ تَعريضٌ بالوعيدِ بأنَّهم سيَلقَونَ ما لَقِيَه الأوَّلونَ، والقَرينةُ على إرادةِ التَّعريضِ بالوعيدِ أنَّ ظاهِرَ الإخبارِ بمُضِيِّ سُنَّةِ الأوَّلينَ، وهو من الإخبارِ بشَيءٍ مَعلومٍ للمُخبَرينَ به، وبهذا الاعتبارِ حَسُنَ تأكيدُه بـ(قد)؛ إذ المرادُ تأكيدُ المعنى التَّعريضي⁽³⁾.

٢ - قوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٤٦).

- عَمَّمَ الخِطابَ في قوله ﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾ لزيادةِ تَرغيبِ المؤمنينَ في القِتالِ⁽¹⁾.

- وقولُه: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ كنايةٌ عن حُسنِ مُجازاتِه إيَّاهم؛ لأنَّ القادِرَ على نَفعِ أوليائِه ومُطيعِيه لا يحولُ بينه وبين إيصالِ النَّفعِ إليهم إلَّا خفاءُ حال مَن يُخلِصُ إليه، فلما أُخبِرُوا بأنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ على انتهائِهم عن الكُفرِ إنِ انتَهَوا عنه، وكان ذلك لا يُظَنُّ خلافُه؛ عُلِمَ أنَّ المقصودَ لازِمُ ذلك⁽²⁾.

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾

- افتتاحُ جُملةِ جوابِ الشَّرطِ بـ ﴿فَاعْلَمُوا﴾؛ لقَصدِ الاهتمامِ بهذا الخَبرِ وتحقيقِه⁽³⁾.

- وقولُه: ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ جملةٌ مُستأنفةٌ؛ لأنَّها إنشاءُ ثناءٍ على اللهِ، فكانت بمَنزلةِ التَّذييلِ⁽⁴⁾.

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٣٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (٤١-٤٢)

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ (٤١) إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿غَنِمْتُمْ﴾: المَغنَمُ والغنيمةُ: ما أُصيبَ مِن أموالِ المُحاربينَ قهرًا. وأصلُ (غنم) يدلُّ على إفادةِ شَيءٍ لم يُملَك مِن قَبلُ(١).

﴿بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾: أي: بِجانب الوادي ممَّا يلي المدينةَ. وأصلُ (عدو) يدلُّ على تَجاوُزٍ في الشَّيءِ(٢).

﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾: أي: بالجانِبِ الأبعدِ مِن المدينةِ. وأصلُ (قصو) يدلُّ على بُعدٍ وإبعادٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٨٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٨)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٤، ٦٧٣). ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٠).

﴿وَالرَّكْبُ﴾: أي: راكِبو الإبِلِ، والمقصودُ عِيرُ أبي سفيانَ أي: ركبُ التجارةِ. وَأصلُ (ركب): يدلُّ على عُلوِّ شيءٍ شَيئًا⁽¹⁾.

﴿بَيِّنَةٍ﴾: أي: حُجَّةٍ. والبيِّنةُ كذلك: الدَّلالةُ الواضِحةُ؛ يقالُ: بان الشيءُ وأبان، إذا اتَّضَحَ وانكَشَفَ⁽²⁾.

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾

﴿أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾: (ما) في ﴿أَنَّما﴾ اسمُ أنَّ، وهي موصولةٌ بمعنى (الذي)، و﴿غَنِمْتُمْ﴾ صِلَتُها، وعائِدُها محذوفٌ، أي: غَنِمتُموه. و﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ جارٌّ ومجرورٌ مُتعَلِّقٌ بمحذوفٍ، حالٌ مِن عائِدِ الصِّلةِ، والتقديرُ: ما غَنِمتُموه كائنًا من شَيءٍ، أي: قليلًا أو كثيرًا. ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾: الفاءُ داخلةٌ تشبيهًا للموصولِ بالشَّرطِ، و(أنَّ) وما عَمِلَتْ فيه في محلِّ رفعٍ، خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، تقديرُه: فحُكمُه أنَّ لِلَّه خُمُسَه، والجملةُ مِن هذا المبتدأِ والخَبرِ في محَلِّ رَفعٍ، خَبرُ (أنَّ). و﴿أنَّما غَنِمْتُمْ﴾ وما بعدَها سدَّ مسدَّ مفعولَي ﴿اعْلَمُوا﴾⁽³⁾.

المَعنى الإجماليُّ:

اعلَموا- أيُّها المؤمنونَ- أنَّ ما تظفرونَه مِن الكُفَّارِ غنيمةً بعدَ انتِصارِكم عليهم؛ فحُكمُه أنَّ لله خُمُسَه، وللرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولِقرابَتِه مِن بني هاشمٍ وحُلفائِهم من بني المطَّلبِ، ولليتامى والمساكينِ، وللمُسافِرِ الذي يحتاجُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٤).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣١٥). ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٦٢٣-٦٢٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٦٠٥-٦٠٦).

المالَ في سَفَرِه، وأمَّا بقيةُ الأخماسِ الأربعةِ فهي للمقاتلينَ، إن كُنتم آمَنتُم باللهِ تعالى، وما أنزَلَ على عبدِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن آياتِ القرآنِ، يومَ فَرَقَ اللهُ بين الحقِّ والباطِلِ، وذلك يوم التقى جمعُ المسلمينَ وجمعُ الكفَّار ببدرٍ، واللهُ على كلِّ شَيءٍ قديرٌ حيثُ نصَركم أيُّها المسلمونَ على قلةِ عددِكم، وخذَل الكفارَ على كثرتِهم.

فاذكروا - أيُّها المُؤمنونَ- حين كنتم على جانِبِ وادي بدرٍ الأقرَبِ للمدينةِ، وهم على الجانِبِ الأبعَدِ، وأصحابُ الإبِلِ الذين معهم تجارةُ المُشركينَ أسفَلَ منكم ممَّا يلي ساحِلَ البَحرِ، ولو تواعَدْتُم- أنتم والمشركونَ- على مكانٍ وزمانٍ تتقاتلونَ فيه، لَما اجتمَعتُم في ذلك المَوعِد، ولكنَّ الله دبَّر لهذا التلاقي لِيَقضيَ أمرًا مُقَدَّرًا لا بدَّ مِن وقوعِه، لِيَهلِكَ مَن هلكَ باستمرارِه على الكُفرِ بعد قيامِ الحجَّةِ عليه، ويؤمِنَ مَن آمنَ بعد ظهورِ الحُجَّة له، وإنَّ اللهَ لَسميعٌ عليمٌ.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أمَرَ بالمُقاتلةِ في قَولِه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ﴾ وكان مِن المَعلومِ أنَّ عند المُقاتلةِ قد تحصُلُ الغنيمةُ؛ لا جرَمَ ذَكَرَ تعالى حُكمَ الغنيمةِ(١).

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٤).

أي: واعلَمُوا[١]- أيُّها المؤمنونَ الغانِمونَ- أنَّ أيَّ مالٍ تأخذونَه مِن الكفَّارِ قَهرًا، إذا انتصَرتُم عليهم[٢]، فحقُّه أنَّ للَّهِ خُمُسَه، يُصرَفُ فيما أمَرَ اللهُ به[٣].

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((قَدِمَ وَفدُ عبدِ القَيسِ على رسولِ اللهِ

---

[١] قال الشنقيطي: (﴿وَاعْلَمُوا﴾ معناه: تيقَّنُوا؛ لأنَّ العِلمَ إذا أُطلِقَ في القرآنِ: معناه اليَقينُ في جميعِ القرآنِ، وقد جاء في حَرفٍ في سورة الممتحنة إطلاقُ العِلمِ مُرادًا به الظنُّ الغالِبُ، وهو قولُه تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾ [الممتحنة: ١٠] أي: غلَبَ على ظَنِّكم ظنًّا قويًّا مُزاحِمًا لليَقينِ، ولا يكادُ العِلمُ في غيرِ هذا الموضِعِ يُطلَقُ في القرآنِ إلا مُرادًا به اليقينُ الجازِمُ، الذي لا يُخالِجُه ظَنٌّ ولا وَهْمٌ ولا شَكٌّ). ((العذب النمير)) (٥/ ١٢) بتصرف يسير.

[٢] قال الكِيا الهراسيُّ: (واعلَمْ أنَّ الاتِّفاقَ حاصِلٌ على أنَّ المُرادَ بقَولِه: ﴿غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾: مالُ الكُفَّارِ، إذا ظهرَ به المسلمونَ على وَجهِ الغَلَبةِ، ولا تقتضي اللُّغةُ هذا التَّخصيصَ، ولكِنَّ عُرفَ الشَّرعِ قيَّدَ اللَّفظَ بهذا النَّوعِ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ١٥٦).

وقال القُرطبي: (لم يختلِفِ العُلَماءُ أنَّ قَولَه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ ليس على عُمومِه، وأنَّه يدخُلُه الخصوصُ، فمِمَّا خَصَّصوه بإجماعٍ أنْ قالوا: سَلَبُ المقتولِ لِقاتِلِه إذا نادى به الإمامُ. وكذلك الرِّقابُ- أعني الأُسارى- الخِيَرةُ فيها إلى الإمامِ بلا خلافٍ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٤).

[٣] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٨٤، ١٨٧)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦، ٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٣، ١٦).

قال الشِّنقيطي: (التَّحقيقُ أنَّ نَصيبَ اللهِ جلَّ وعلا، ونصيبَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ واحدٌ، وذِكْرُ اسمِه جلَّ وعلا استفتاحُ كلامٍ للتَّعظيمِ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٥٩). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٩١).

وعزاه البغويُّ إلى أكثرِ المفسِّرين والفقهاءِ، وقال: (وهو قولُ الحسنِ وقتادةَ وعطاء وإبراهيمَ والشعبيِّ، قالوا: سهمُ الله وسهمُ الرسولِ واحدٌ، والغنيمةُ تُقسمُ خمسةَ أخماسٍ، أربعةُ أخماسٍ لمَن قاتَل عليها، وخُمسٌ لخمسةِ أصنافٍ، كما ذكَر الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾). ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢٩٢).

وقال ابنُ عاشورٍ: (الابتداءُ باسمِ اللهِ تعالى للإشارةِ إلى أنَّ ذلك الخُمُسَ حَقُّ اللهِ يَصرِفُه حيث يشاءُ، وقد شاء فوكَّلَ صَرْفَه إلى رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولِمَن يَخلُف رسولَه من أئمَّةِ المُسلمينَ، وبهذا التَّأويلِ يكونُ الخُمُسُ مَقسومًا على خمسةِ أسهُمٍ، وهذا قولُ عامَّةِ عُلَماءِ الإسلامِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٨).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقالوا: يا رسولَ اللهِ، إنَّا- هذا الحيَّ- مِن ربيعةَ، وقد حالتْ بينَنا وبَينَك كُفَّارُ مُضَرَ، فلا نَخلُصُ إليك إلَّا في شَهرِ الحرام، فمُرْنا بأمرٍ نَعمَلُ به، وندعو إليه مَن وَراءَنا، قال: آمُرُكم بأربَعٍ، وأنهاكم عن أربَعٍ: الإيمانُ باللهِ، ثمَّ فَسَّرَها لهم فقال: شهادةُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، وإقامُ الصَّلاةِ، وإيتاءُ الزَّكاةِ، وأنْ تُؤَدُّوا خُمُسَ ما غَنِمْتُم))(١).

وعن عبدِ اللهِ بنِ شَقيقٍ، عن رجُلٍ مِن بُلقينَ، قال: ((أتيتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو بوادي القُرى، وهو يَعرِضُ فَرَسًا، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، ما تقولُ في الغنيمةِ؟ فقال: لِلَّه خُمُسُها، وأربعةُ أخماسٍ للجَيشِ. قلتُ: فما أحدٌ أَوْلَى به مِن أحَدٍ؟ قال: لا، ولا السَّهمُ تَستخرِجُه مِن جَنبِك، ليس أنت أحَقَّ به مِن أخيك المُسلِمِ))(٢).

﴿وَلِلرَّسُولِ﴾.

أي: ولِمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ يتصَرَّفُ فيما جعَلَه اللهُ له من الخُمُسِ بما شاء في مصالِحِه ومصالِحِ المُسلمين(٣).

---

(١) رواه البخاري (٨٧) ومسلم (١٧)، واللفظ له.

(٢) أخرجه أبو يعلى في ((المسند)) (٧١٧٩)، والطحاوي في ((شرح معاني الآثار)) (٥١٩٨)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (١٨٠١٢).
قَوَّى إسنادَه النوويُّ في ((المهذب)) (٧/ ٣٥٨٤)، وصحَّح إسنادَه ابنُ كثيرٍ في ((إرشاد الفقيه)) (٢/ ٣٢٨)، والهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (١/ ٥٣)، والألباني في ((إرواء الغليل)) (٥/ ٦٠)، وقال البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (١/ ٩٧): إسنادُه رجالُه ثقاتٌ.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٤).
قال ابنُ تيميةَ: (الرسولُ مبلغٌ عن الله أمرَه ونهيَه، فالمالُ المضافُ إلى الله ورسولِه هو المالُ الذي يصرفُ فيما أمَرَ الله به ورسولُه مِن واجبٍ ومستحبٍّ، بخلافِ الأموالِ التي ملَّكها الله لعبادِه، فإنَّ لهم صرفَها في المباحاتِ... فالأنفالُ لله والرسولِ؛ لأنَّ قسمتَها إلى الله والرسولِ ليست كالمواريثِ التي قسَمها الله بينَ المستحقِّين)) (٤/ ٢١١). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٢).=

عن عمرِو بنِ عَبَسةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: صلَّى بنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى بَعيرٍ مِن المَغنمِ، فلمَّا سلَّم أخَذَ وَبرةً مِن جَنبِ البَعيرِ، ثمَّ قال: ((ولا يحِلُّ لي مِن غَنائِمِكم مِثلُ هذا إلَّا الخُمُسُ، والخُمُسُ مَردودٌ فيكم))[1].

﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

أي: ولقرابةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن بني هاشمٍ وبني المطَّلِبِ[2].

= قال الشِّنقيطي: (والتَّحقيقُ: أنَّ نَصيبَ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الخُمُسِ، كان يَرُدُّه على مصالِحِ المُسلمينَ لا يأخُذُ منه شيئًا؛ لأنَّه كان يأخُذُ خَلَّتَه الضَّروريَّةَ مِن فَيْءِ بني النَّضيرِ، وربَّما أخذ منه بعضًا مِن فيءِ قُريظةَ، وأنَّ نَصيبَه إنَّما يجعَلُه في مصالحِ المُسلمينَ). ((العذب النمير)) (٥/ ٤٤).

وقال ابنُ عاشور: (عند الجمهورِ أنَّ سَهمَ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَخلُفُه فيه الإمامُ؛ يبدأُ بنَفَقتِه ونَفَقةِ عيالِه بلا تقديرٍ، ويَصرِفُ الباقيَ في مصالِحِ المُسلمينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٢). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٦٠، ٦١).

وقال ابنُ جرير: (والصَّوابُ مِنَ القول في ذلك عندنا: أنَّ سَهمَ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَردودٌ في الخُمُسِ، والخُمُسُ مقسومٌ على أربعةِ أسهُمٍ على ما رُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ: للقرابةِ سَهمٌ، ولليتامى سَهمٌ، وللمَساكينِ سَهمٌ، ولابنِ السَّبيلِ سَهمٌ؛ لأنَّ اللهَ أوجَبَ الخُمسَ لأقوامٍ مَوصوفينَ بِصفاتٍ، كما أوجَبَ الأربعةَ الأخماسِ الآخَرينَ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٩٩).

[1] أخرجه أبو داود (٢٧٥٥)، والطبراني في ((مسند الشاميين)) (٨٠٥)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (١٢٩٤٣).
صحَّحه ابنُ دقيق العيدِ في ((الاقتراح)) (١٠٠)، ووثَّق رجالَه الشوكانيُّ في ((نيل الأوطار)) (٨/ ٨٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح أبي داود)) (٢٧٥٥).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٤٥).
ونَسبَ ابنُ كثيرٍ القَولَ بأنَّ قَرابَته هم بنو هاشمٍ وبنو المطَّلِبِ، إلى جمهورِ العُلماء. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٤).
وقال ابنُ كثيرٍ: (وأمَّا سَهمُ ذوي القُربى فإنَّه يُصرَفُ إلى بني هاشمٍ وبني المُطَّلِب؛ لأنَّ بني المطَّلِب وازَرُوا بني هاشمٍ في الجاهليَّةِ وفي أوَّلِ الإسلامِ، ودخلوا معهم في الشِّعبِ غضبًا لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وحمايةً له: مُسلِمُهم طاعةً لله ولِرَسولِه، وكافِرُهم حَمِيَّةً =

عن جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((مَشَيتُ أنا وعثمانُ بنُ عُفَّانَ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقُلنا: يا رسولَ اللهِ، أعطيتَ بني المُطَّلِب وتركتَنا، ونحنُ وهم منكَ بِمَنزلةٍ واحدةٍ! فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّما بنو المُطَّلِبِ وبنو هاشمٍ شَيءٌ واحِدٌ)). ولم يقسِمِ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لبني عبدِ شَمسٍ، ولا لبني نَوفَل، قال ابنُ إسحاقَ: عبدُ شمسٍ وهاشمٌ والمُطَّلِبُ: إخوةٌ لأمٍّ، وأمُّهُم عاتكةُ بنتُ مُرَّةَ، وكان نَوفَل أخاهم لأبيهم(١).

﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾.

أي: ولِيَتامى المُسلمينَ، الذين مات آباؤُهم وهم أطفالٌ(٢).

﴿وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾.

أي: وللمُحتاجينَ مِن المُسلِمينَ(٣).

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

أي: وللمُسافِرِ المُحتاجِ للمالِ في سَفَرِه(٤).

= للعشيرةِ، وأنَفةً وطاعةً لأبي طالبٍ عمِّ رَسولِ اللهِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٣).

وقال القاسمي: ((أجمَعوا على أنَّ المُرادَ بـ (ذوي القُربى) قرابتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم)). ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٢٩٧).

(١) رواه البخاري (٣١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١).

قال الواحديُّ: (قال أهلُ المعاني: كلُّ من مات أبوه وهو صَغيرٌ، فهو يتيمٌ، ولا يُتْمَ بعد البُلوغِ، وكلُّ ولدٍ يتيمٌ مِن قِبَلِ أُمِّه إلَّا الإنسانَ فإنَّه يتيمٌ مِن قِبَلِ أبيه). ((البسيط)) (١٠/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١).

﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾.

أي: امتَثِلوا- أيُّها المؤمنونَ- ما شَرَعْناه لكم في قِسمةِ الغَنائِمِ، إن كُنتُم آمَنتُم باللهِ تعالى، وآمَنتُم بما أنزَلْنا على عَبدِنا محمَّدٍ، مِن آياتِ كِتابِنا(١)، يومَ فرَقَ اللهُ بين الحَقِّ والباطِلِ، يومَ الْتَقى جمعُ المُسلمينَ وجَمعُ الكُفَّارِ بِبَدرٍ(٢).

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: واللهُ على كلِّ شَيءٍ قديرٌ، لا يُعجِزُه شَيءٌ، ومِن ذلك قُدرَتُه على نَصرِ المُؤمنينَ على الكافرينَ، وإن كانوا قِلَّةً أذِلَّةً، كما وقع يومَ بَدرٍ(٣).

---

(١) قال الشنقيطيُّ: (إن كُنتُم آمَنتُم باللهِ، وآمَنتُم بالذي أنزَلْنا على عَبْدِنا مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ من هذه الآياتِ القُرآنيَّةِ؛ لأنَّ اللهَ أنزَلَها عليكم، ونَصَرَكم عندَ نُزولِها، وأمَرَكم فيها بأداءِ الخُمُسِ). ((العذب النمير)) (٥/ ٥٤).

قال ابنُ عاشورٍ: (والإنزالُ: هو إيصالُ شَيءٍ مِن عُلوٍ إلى سُفلٍ... فيجوز أن يكونَ هذا المُنَزَّل من قَبيلِ الوَحيِ، أي: والوحي الذي أنزَلْناه على عَبدِنا يومَ بَدرٍ... ويجوزُ أن يكونَ مِن قَبيلِ خَوارِقِ العاداتِ، والألطافِ العَجيبةِ، مثل إنزال الملائكةِ للنَّصرِ، وإنزالِ المطَرِ عند حاجةِ المُسلمين إليه، لتعبيدِ الطَّريقِ، وتثبيتِ الأقدامِ، والاستِقاءِ... ولا مانِعَ من إرادةِ الجَميعِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٤). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٠)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٥٤).

قال ابن عطية: (ويومُ الفُرقانِ: معناه يومُ الفَرْقِ بين الحقِّ والباطِلِ، بإعزازِ الإسلام وإذلالِ الشِّركِ، والفُرقانُ مصدَرٌ: مِن فَرَقَ يَفرُقُ، والجَمْعانِ: يريدُ جَمعَ المُسلِمينَ، وجمعَ الكُفَّارِ، وهو يومُ الوقعةِ التي قُتِلَ فيها صناديدُ قُريشٍ ببَدرٍ، ولا خلافَ في ذلك، وعليه نصَّ ابنُ عبَّاسٍ ومجاهدٌ ومِقْسَمٌ، والحسنُ بن علي وقتادةُ وغيرهم). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٢).

وقال ابنُ عاشور: (كان يومُ بَدرٍ فارقًا بين الحَقِّ والباطِلِ؛ لأنَّه أوَّلُ يوم ظَهَرَ فيه نصرُ المُسلمين الضُّعفاءِ على المُشركينَ الأقوياءِ، وهو نَصرُ المُحِقِّينَ الأذلَّةِ على الأعزَّةِ المُبطِلينَ، وكفى بذلك فُرقانًا وتَمييزًا بين مَن هم على الحَقِّ، ومَن هم على الباطِلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦١).

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ لهم يومَ مُلتَقاهم، صوَّرَ لهم حالَتَهم الموضِّحةَ للأمرِ، المُبَيِّنةَ لِمَا كانوا فيه مِن اعترافِهم بالعَجزِ؛ تذكيرًا لهم بذلك، رَدعًا عن المُنازَعةِ، وردًّا إلى المُطاوَعةِ، فقال(١):

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾.

أي: فرَقَ اللهُ بينَ الحَقِّ والباطِلِ حينَ(٢) كُنتم نازلينَ بِضَفَّةِ وادي بَدرٍ، التي هي أقرَبُ إلى المدينةِ، ومُشرِكو قُرَيشٍ نازِلونَ بِضَفَّةِ وادي بَدرٍ، التي هي أبعَدُ من المدينةِ، وأصحابُ الإبِلِ الذين معهم تجارةُ المُشركينَ؛ في موضعٍ أسفَلَ منكم ممَّا يلي ساحِلَ البَحرِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٦).
وقيل: إنَّ ﴿إِذْ﴾ بدَلٌ مِن ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ وممَّن قال بهذا: الزَّمخشريُّ والشِّنقيطيُّ. وقيل: إنَّه منصوبٌ بـ (اذكروا) مُقَدَّرًا، وهو قَولُ الزَّجَّاجِ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٢٣)، ((الدر المصون)) للسَّمين الحلبي (٥/ ٦٠٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٦٦، ١٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٢).
قال ابنُ عطيَّةَ: (وادي بدرٍ آخِذٌ بين الشَّرقِ والقبلةِ، مُنحَرِفٌ إلى البَحرِ الذي هو قريبٌ مِن ذلك الصُّقعِ، والمدينةُ مِن الوادي مِن مَوضِعِ الوقعةِ منه في الشَّرقِ، وبينهما مرحلتانِ... والركبُ بإجماعِ مِن المفسِّرينَ عِيرُ أبي سُفيانَ، ولا يقال: ركْبٌ إلا لرُكَّابِ الإبِلِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٢).=

﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾.

أي: ولو اتَّفَقتُم- أيُّها المؤمنونَ- مع المُشركينَ على القتالِ في مكانٍ وزمانٍ مُحَدَّدينِ؛ لَمَا اجتمَعْتُم في ذلك المَوعِدِ⁽¹⁾.

﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

أي: ولكِن جَمَعَكم اللهُ ببدرٍ على غيرِ ميعادٍ بينكم وبينهم؛ لِينصُرَ اللهُ المؤمنينَ ويُعِزَّهم، ويُهلِكَ الكافرينَ ويُذِلَّهم، وكان ذلك قضاءً مُقدَّرًا لا بدَّ مِن وُقوعِه⁽²⁾.

عن كعبِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (إنَّما خرج رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُسلمونَ، يريدونَ عيرَ قُريشٍ، حتى جمَعَ اللهُ بينهم وبين عَدُوِّهم على غيرِ مِيعادٍ)⁽³⁾.

= وقال الشَّنقيطي: (ومعنى كَونِه أسفَلَ: أنَّ وادي بدرٍ ذاهِبٌ إلى جِهةِ البَحرِ؛ فكُلُّ ما قرُبَ من البَحرِ منه فهو أسفَلُ، وما بَعُدَ منه فهو أعلى). ((العذب النمير)) (٥/ ٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٨، ١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٥).

قال السعديُّ: (﴿لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ أي: لا بدَّ مِن تقدُّم أو تأخُّر أو اختيارِ منزِلٍ، أو غيرِ ذلك، مما يعرِضُ لكم أو لهم، يصدفُكم عن ميعادِكم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢).

وقال ابنُ عاشورٍ: (والمعنَى: لو تواعدتُم لاختلفتُم في الميعادِ، أي: في وقتِ ما تواعَدْتُم عليه؛ لأنَّ غالبَ أحوالِ المتواعِدَينِ ألَّا يستويَ وفاؤُهما بما تواعَدَا عليه في وَقتِ الوفاءِ به، أيْ: في وقتٍ واحدٍ؛ لأنَّ التَّوقيتَ كان في تلك الأزمانِ تَقريبيًا يُقَدِّرونَه بأجزاءِ النَّهارِ، كالضُّحى والعَصرِ والغروب؛ لا ينضَبِطُ بالدَّرَج والدَّقائق الفلكيَّة، والمعنى: فبِالأحرَى وأنتم لم تتواعَدُوا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٩).

وقال الشَّنقيطي: (﴿لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ أي: لخافَ بعضُكم مِن بَعضٍ، وجبُنَ بعضُكم عن بعضٍ، ولَمَا اتَّفقْتم ليحصُلَ ما حصل). ((العذب النمير)) (٥/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٦).

(٣) رواه البخاري (٣٩٥١) ومسلم (٢٧٦٩)، واللفظ له.

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾.

أي: جمعَ اللهُ بين المؤمنينَ والكافرينَ بِبَدرٍ، ونصَرَ المؤمنينَ عليهم؛ وفرَّق بين الحقِّ والباطِلِ؛ من أجلِ أن يستمِرَّ في الكُفرِ مَن استمَرَّ فيه بعد قيامِ الحُجَّةِ عليه، ووضوحِ الأمرِ ببطلانِ الكُفرِ، فلا يبقى له عذرٌ عندَ الله، ويؤمِنَ مَن آمنَ بعد ظُهورِ الحجَّةِ له، ووضوحِ الأمرِ بما لا شكَّ فيه أنَّ الإسلامَ حقٌّ⁽¹⁾.

كما قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: وإنَّ اللهَ لَسَميعٌ لِجَميعِ الأصواتِ، ومِن ذلك أنه سميعٌ لدُعائِكم، وتَضَرُّعِكم، واستِغاثَتِكم به، عليمٌ بكُلِّ شَيءٍ؛ فيعلمُ الظواهرَ والضمائرَ والسرائرَ، والغيبَ والشهادةَ، وكلَّ ما يفعلُه خلقُه، لا تخفَى عليه خافِيَةٌ، ومِن ذلك علمُه أنَّكم تستحِقُّون النَّصْرَ على أعدائِكم الكفرةِ المعانِدينَ، فاتَّقوا ربَّكم في منطِقِكم أنْ تنطِقوا بغيرِ حَقٍّ، وفي قُلوبِكم أنْ تعتقِدوا فيها غيرَ الرَّشَدِ⁽²⁾.

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- ليس الإيمانُ بالتمنِّي، ولكنْ ما وقَرَ في القلبِ وصَدَّقَه العَمَلُ، ولا بدَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٨، ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٧).

قال الواحدي: (أكثَرُ أهلِ العِلمِ على أنَّ المُرادَ بالهلاكِ هاهنا: الكُفرُ والضَّلالُ، وبالحياةِ: الاهتداءُ والدِّينُ، والمعنى: لِيَكفُرَ مَن كَفَرَ بعد حُجَّةٍ قامت عليه، فقَطَعَت عُذرَه، ويؤمِنَ مَن آمَنَ على مِثلِ ذلك). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٤٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٧).

لِقيامِه مِن قَبولِ ما شَرَعَ الله، وتحقيقِه في واقِعِ الحياة، وهذا نُموذجٌ من التقريراتِ الصَّريحةِ الواضحةِ الجازمةِ مِن قَولِ الله سبحانه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ لقد نزع اللهُ مِلكيَّةَ الغنيمةِ ممَّن يجمعونَها في المعركةِ، وردَّها إلى اللهِ والرَّسولِ- في أوَّلِ السورة- ليَخلُصَ الأمرُ كلُّه لله والرسولِ، وليتجَرَّد المجاهدونَ مِن كلِّ مُلابسةٍ مِن ملابساتِ الأرضِ، وليُسَلِّموا أمرَهم كلَّه- أوَّلَه وآخِرَه- لله ربِّهم، وللرَّسول قائِدِهم، بلا تعقيبٍ ولا اعتراضٍ، فهذا هو الإيمانُ، حتى إذا استسلَموا لأمر الله وارتَضَوا حكمَه ذاك، فاستَقَرَّ فيهم مدلولُ الإيمانِ؛ عاد ليَرُدَّ عليهم أربعةَ أخماسِ الغَنيمةِ، ويستبقي الخمُسَ على الأصلِ- لِلَّهِ والرَّسولِ- يتصرَّفُ فيه رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وقد استقَرَّ في نفوسِهم أنَّهم لا يَملِكونَها ابتداءً بحَقِّ الغَزوِ والفتحِ، فهم إنما يَغزونَ لله ويَفتَحونَ لِدينِ اللهِ، إنَّما هم يستحقُّونها بمَنحِ اللهِ لهم إيَّاها، وعاد كذلك ليُذَكِّرَهم بأنَّ الاستسلامَ لهذا الأمرِ الجديدِ هو مقتضَى الإيمانِ، فقال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ...﴾(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ الغَرَضُ مِن التَّقييدِ بهذا الوَقتِ وبتلك الحالةِ: إحضارُها في ذِكرِهم؛ لأجلِ ما يلزَمُ ذلك من شُكرِ نِعمةِ الله، ومِن حُسنِ الظَّنِّ بوَعدِه، والاعتمادِ عليه في أمورِهم؛ فإنَّهم كانوا حينئذٍ في أشَدِّ ما يكونُ فيه جيشٌ تِجاهَ عَدُوِّه؛ لأنَّهم يعلمونَ أنَّ تلك الحالةَ كان ظاهِرُها مُلائمًا للعَدُوِّ؛ إذ كان العدوُّ في شَوكةٍ، واكتمالِ عُدَّةٍ، وقد تمهَّدَت له أسبابُ الغَلَبةِ بحُسنِ مَوقِعِ جيشِه؛ إذ كان بالعُدوةِ التي فيها الماءُ لِسُقياهم، والتي أرْضُها مُتوسِّطةُ الصَّلابةِ، فأمَّا

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٥٢٠).

جَيشُ المسلمينَ فقد وَجَدوا أنفُسَهم أمامَ العَدُوِّ في عُدوةٍ تَسوخُ في أرضِها الأرجُلُ؛ مِن لِينِ رَملِها، مع قِلَّةِ مائِها، وكانت العِيرُ قد فاتت المسلمينَ، وحلَّتْ وراءَ ظُهورِ جَيشِ المُشركينَ، فكانت في مأمَنٍ مِن أن ينالَها المُسلمونَ، وكان المُشركونَ واثِقينَ بتَمَكُّنِهم مِنَ الذَّبِّ عن عِيرِهم، فكانت ظاهرةُ هذه الحالةِ ظاهرةَ خَيبةٍ وخَوفٍ للمُسلمينَ، وظاهرةَ فَوزٍ وقُوَّةٍ للمُشركينَ، فكان مِن عجيبِ عِنايةِ اللهِ بالمُسلمينَ أنْ قَلَبَ تلك الحالةَ رأسًا على عَقِبٍ، فأنزل مِنَ السَّماءِ مَطَرًا تعبَّدَت به الأرضُ لِجَيشِ المُسلمينَ، فساروا فيها غيرَ مَشقوقٍ عليهم، وتطَهَّروا وسَقَوا، وصارت به الأرضُ لِجَيشِ المُشركينَ وَحلًا يثقُلُ فيها السَّيرُ، وفاضت المياهُ عليهم(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ فيه أنَّ تخليةَ الخُمُس للأصنافِ الخمسةِ مِنَ الإيمانِ(٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ استدَلَّ بعُمومِه مَن قال باستحقاقِ الأغنياءِ مِن الأربعةِ المَذكورينَ أو بَعضِهم، كالفُقَراءِ، ومَن قال باستواءِ ذَكَرِهم وأُنثاهم(٣).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ استُدِلَّ بإضافةِ الغَنيمةِ لهم، على أنَّ الغانِمينَ مَلَكوها بمجَرَّدِ الغَنيمةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧، ١٨)، ويُنظر: أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((شعب الإيمان)) للبيهقي (٦/ ١٦٩)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٣٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٥).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ دلَّ على جوازِ قسمةِ الغنائمِ في دارِ الحربِ، كما هو قولُ الشافعيِّ رحمه الله؛ لأنَّ قوله: ﴿فأنَّ لله خمسه وللرسول ولذي القربى...﴾ يقتضي ثبوتَ الملكِ لهؤلاء في الغنيمةِ، وإذا حصَل الملكُ لهم فيه، وجَب جوازُ القسمةِ؛ لأنَّه لا معنَى للقسمةِ على هذا التقديرِ إلا صرفُ الملكِ إلى المالكِ، وذلك جائزٌ بالاتفاقِ⁽¹⁾.

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ افتتاحُه بِقَولِه: ﴿وَاعْلَمُوا﴾ للاهتمامِ بِشَأنِه، والتَّنبيهِ على رعايةِ العَمَلِ به؛ فإنَّ المقصودَ بالعِلمِ تَقَرُّرُ الجَزمِ بأنَّ ذلك حُكمُ اللهِ، والعَمَلُ بذلك المَعلومِ⁽²⁾.

٦- قال الله تعالى: ﴿وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ وهم قَرابةُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مِن بَني هاشِمٍ وبني المُطَّلِب، وأضافَه اللهُ إلى القرابةِ دليلًا على أنَّ العِلَّةَ فيه مُجرَّدُ القَرابةِ، فيستوي فيه غَنِيُّهم وفَقيرُهم، ذَكَرُهم وأُنثاهم⁽³⁾.

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالْيَتَامَى﴾ جعَلَ اللهُ لهم خُمُسَ الخُمُسِ رحمةً بهم؛ حيث كانوا عاجزينَ عن القِيامِ بمَصالِحِهم، وقد فُقِدَ مَن يقومُ بمَصالِحِهم⁽⁴⁾.

٨- قولُه تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ أضاف اللهُ الغنيمةَ إلى الغانمينَ، وأخرَج منها خُمسَها، فدلَّ على أنَّ الباقيَ لهم، يُقسَمُ على ما قَسَمه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: للراجلِ سهمٌ، وللفارسِ سهمانِ لفرسِه، وسهمٌ له، وأمَّا هذا الخُمسُ، فيُقسَمُ خمسةَ أسهمٍ؛ سهمٌ للهِ ولرسولِه، يُصرفُ في مصالحِ

---

(1) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٥).

(2) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥).

(3) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١).

(4) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المسلمينَ العامةِ، مِن غيرِ تعيينٍ لمصلحةٍ؛ لأنَّ الله جعَله له ولرسولِه، واللهُ ورسولُه غنيَّانِ عنه، فعُلِم أنَّه لعبادِ الله. فإذا لم يُعيِّنِ الله له مصرفًا، دلَّ على أنَّ مصرفَه للمصالحِ العامةِ، والخمسُ الثاني: لذي القربَى، والخمسُ الثالثُ لليتامَى، والخمسُ الرابعُ للمساكينِ، والخمسُ الخامسُ لابنِ السبيلِ(١).

٩- قَولُه تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ جَرَت العادةُ بِذِكرِه قُدرَتَه عند نَصْرِه الضِّعافَ مِن عبادِه المتمَسِّكينَ بِدينِه، كما قال في الأحزابِ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٧]. وقال في الحُدَيبيةِ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الفتح:٢١] كلُّ هذه الآياتِ على وتيرةٍ واحدةٍ، معناها: إنْ كُنتُم ضعافًا عاجزينَ، فهو- جلَّ وعَلا- قادِرٌ قَويٌّ، لا يَعجِزُ عن شَيءٍ؛ فإنَّه ينصُرُ أولياءَه ويُقَوِّيهم ويُقْدِرُهم على مَن هو أقوى مِنهم(٢).

بلاغة الآيتين:

١- قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيه الانتقالُ لبيانِ ما أُجمل مِن حُكمِ الأنفال، الذي افتُتحتْ به السُّورةُ؛ ناسَبَ الانتقالَ إليه ما جرَى مِنَ الأمْرِ بقِتالِ المشركينَ إنْ عادوا إلى قِتالِ المُسلِمينَ. والافتتاحُ بـ﴿واعْلَمُوا﴾؛ للاهتِمامِ بشأنِه، والتَّنبيهِ على رِعايةِ العَملِ به؛ فإنَّ المقصودَ بالعِلمِ تَقرُّرُ الجزمِ بأنَّ ذلك حُكمُ اللهِ، والعملُ بذلك المعلومِ؛ فيكونُ ﴿واعْلَمُوا﴾ كنايةً مُرادًا به صريحُه ولازمُه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٠، ٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥).

- وقولُه: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ بيانٌ لعُمومِ (ما)؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ المقصودَ غنيمةٌ مُعيَّنةٌ خاصَّةٌ⁽¹⁾.

- وفيه أيضًا: حُسنُ تَركيبٍ؛ حيثُ أفْرَد كَينونةَ الخُمْسِ لله، وفَصَل بين اسمِه تعالى وبين المعاطيفِ بقولِه: ﴿خُمُسَهُ﴾؛ ليَظْهَرَ انفرادُه تعالى بكينونةِ الخُمُسِ له، ثمَّ أشْرَكَ المعاطيفَ معه على سَبيلِ التَّبعيَّةِ له، ولم يأتِ التركيبُ (فأنَّ للهِ خُمُسه وللرَّسولِ ولذي القُربى واليتامى والمساكين وابن السبيل خُمُسه)⁽²⁾.

- وإعادةُ اللامِ في ﴿وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ دون غيرِهم مِن الأصنافِ الثَّلاثةِ؛ لدَفْعِ تَوهُّمِ اشتراكِهم في سَهمِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لمزيدِ اتِّصالِهم به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ⁽³⁾.

- وفي قولِه: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ﴾ جِيءَ في الشَّرطِ بحرفِ (إنْ) التي شأنُ شَرطِها أن يكونَ مشكوكًا في وقوعِه؛ زيادةً في حثِّهم على الطاعةِ، حيثُ يَفرِضُ حالَهم في صُورةِ المشكوكِ في حُصولِ شَرْطِه؛ إلهابًا لهم؛ ليَبْعثَهم على إظهارِ تحقُّقِ الشَّرطِ فيهم⁽⁴⁾؛ فهو من بابِ خِطابِ التَّهييجِ⁽⁵⁾.

- إضافةُ (يوم) إلى (الفُرْقانِ) في قولِه: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ إضافةُ تنويهٍ به، وتشريفٍ⁽⁶⁾.

- قولُه: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ اعتراضٌ بتذييلِ الآياتِ السَّابقةِ، وهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٣).

(٥) يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٢/ ٢٤٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥).

مُتعلِّقٌ ببعضِ جُمْلةِ الشَّرْطِ في قولِهِ: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾؛ فإن ذلك دليلٌ على أنَّه لا يَتعاصَى على قُدرتِه شيءٌ⁽¹⁾.

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ خَتَم بصِفةِ القُدرةِ ﴿قَدِيرٌ﴾؛ لأنَّه تعالى نصَرَ المؤمنينَ على قِلَّتِهم على الكافرينَ على كَثْرتِهم ذلك اليومَ⁽²⁾.

٢- قوله: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَـكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

- ﴿كَانَ﴾ تدلُّ على تحقُّقِ ثُبوتِ معنى خَبرِها لاسمِها من الماضي؛ فمعنى ﴿كَانَ مَفْعُولاً﴾ أنَّه ثَبَتَ له في عِلْمِ اللهِ أنَّه يُفعَل⁽³⁾، وعبَّر بقولِه: ﴿مَفْعُولاً﴾ لتَحقُّقِ كَوْنه⁽⁴⁾.

- وتَنكيرُ ﴿أَمْرًا﴾ هنا؛ للتَّعظيمِ⁽⁵⁾.

- وقولُه: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ فيه دخولُ لامِ التَّعليلِ على فِعْل ﴿لِيَهْلِكَ﴾ وهو تأكيدٌ لِلَّامِ الدَّاخِلةِ على ﴿لِيَقْضِيَ﴾ في الجُملةِ المُبدَلِ منها⁽⁶⁾.

- ودلَّ معنى المجاوزةِ الذي في ﴿عَنْ﴾ على أنَّ المعنى أنْ يكونَ الهلاكُ والحياةُ صادرَينِ عن بيِّنةٍ، وبارزَينِ منها⁽⁷⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٠).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢١).

- قولُه: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ تذييلٌ يشيرُ إلى أنَّ الله سميعُ دُعاءِ المسلمين طلبَ النَّصْرِ، وسميعُ ما جرَى بينهم مِن الحوارِ في شأنِ الخروجِ إلى بَدْرٍ، ومِن مودَّتهم أن تكونَ غيرُ ذاتِ الشَّوكةِ هي إحْدى الطائفتَينِ التي يُلاقونها، وغير ذلك، وعليمٌ بما يجولُ في خواطِرهم من غير الأمورِ المسموعةِ، وبما يَصْلُح بهم، ويُبْنى عليه مَجْدُ مُستقبلِهم(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢١).

الآيتان (٤٣-٤٤)

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَلَتَنَازَعْتُمْ﴾: أي: وَلاختَلَفتُم، والتَّنازُع: التَّجاذُبُ والتَّخاصُمُ والتَّجادُلُ، وأصلُ (نزع) يدُلُّ على قَلعِ شَيءٍ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾

﴿يُرِيكَهُمُ﴾: (يُري)[2] فِعلٌ مُضارِعٌ مَرفوعٌ، والكاف في محلِّ نَصبٍ، مَفعولٌ به أوَّلُ. و(هم) في محلِّ نَصبِ مَفعولٌ به ثانٍ، و﴿قَلِيلًا﴾ حالٌ- على القَولِ بأنَّ الرُّؤيا المناميَّةَ تتعدَّى لمفعولٍ به واحِدٍ، كالرُّؤيةِ البَصَريَّةِ- أو مفعولٌ به

---

[1] يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٨، ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٢).

[2] أصلُه (رأى - يَرَى)، وعند دخولِ هَمزةِ التَّعديةِ أصبح (أَرَى - يُرِي)، فإن كان الفِعلُ متعديًا لمفعولٍ به واحِدٍ (وهو رأى البَصَرية) تعدَّى بالهمزةِ إلى مفعولينِ، وإن كان متعديًا إلى مفعولينِ كـ(رأى) العِلميَّةِ، أو الحُلميَّةِ- على رأيٍ- تعدَّى بالهمزةِ إلى ثلاثةِ مَفاعيلَ، وأبطَلَ (أبو حيان) تعدِّيَها إلى ثلاثةِ مَفاعيلَ بجوازِ حَذفِ الثَّالِثِ في هذا البابِ اقتصارًا- أي مِن غَيرِ دَليلٍ- تقولُ: رأيتُ زيدًا في النَّومِ، وأراني اللهُ زيدًا في النَّومِ، ولو كانت تتعَدَّى لثلاثةٍ لِمَا حُذِفَ اقتصارًا؛ لأنَّه خبرٌ في الأصلِ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٦١٥).

ثالثٌ- على القَولِ بأنَّ الرُّؤيا المناميَّةَ تتعدَّى لاثنينِ كالرُّؤيةِ العِلميَّةِ، و﴿كَثِيرًا﴾ كـ﴿قَلِيلًا﴾ إعرابًا.

﴿يُرِيكُمُوهُمْ﴾: الرُّؤيةُ هنا بصريَّةٌ لا غيرُ؛ لأنَّها كانت في اليَقَظةِ. وعلى ذَلك فالكافُ في محلِّ نصبٍ، مفعولٌ به أوَّلُ، والميمُ للجَمعِ، وقد أُشبِعَت ضَمَّتُها إلى الواوِ، و (هم) في محلِّ نَصبِ مَفعولٌ به ثانٍ. و﴿قَلِيلًا﴾ حالٌ لا غيرُ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائلًا له: اذكُر- يا مُحمَّدُ- حين أراك اللهُ في نَومِك جيشَ الكُفَّارِ في بَدرٍ قليلًا، فأعلَمْتَ أصحابَك بما رأيتَ، فَقَوِيتْ قُلوبُهم على قتالِ الكُفَّارِ، ولو أراكهم اللهُ في نَومِك كثيرًا، فأخبَرْتَ المُسلمينَ بذلك؛ لَجَبُنوا وتنازَعوا في قتالِ المُشركينَ، ولكِنَّ اللهَ سلَّم من ذلك؛ إنَّه عليمٌ بذاتِ الصُّدورِ.

وتأكيدًا لما حصَل مِن بُشرَى الرُّؤيا فقد أراكم الله في الواقعِ جيشَ الكفَّارِ قليلًا؛ لتتشَجَّعوا على قِتالِهم، وقلَّلَكم في أعيُنِهم لِيَستَهينوا بقتالِكم؛ لِيقضيَ اللهُ أمرًا مُقدَّرًا لا بدَّ مِن وُقوعِه؛ مِن قتالِ بعضِكم بعضًا يومَ بَدرٍ، وانتصارِ المسلمينَ، وإهلاكِ الكافرينَ، وإلى الله وَحدَه تُرجَعُ الأمورُ.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾.

---

[1] يُنظر: ((تفسير الزمخشري))، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٦١٥)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعَّاس (١/ ٤٣١).

أي: اذكُر حين(١) أراكَ اللهُ في نَومِك- يا مُحمَّدُ- جيشَ الكافرينَ في بدرٍ، وهم قليلٌ، فأخبَرتَ المُسلمينَ برؤياك، فَقَوِيَت قُلوبُهم على قتالِ الكافرينَ(٢).

﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾.

أي: ولو أراكَ اللهُ عَددَ الكافرينَ في منامِك كثيرًا، وأخبرتَ المُسلمينَ بذلك؛ لَجَبُنوا وخافوا، واختَلَفوا في قتالِ المُشرِكينَ(٣).

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾.

أي: ولكنَّ اللهَ سلَّم المسلمينَ مِن الفَشَلِ والتَّنازُعِ؛ بسبَبِ ما أراكَ في نَومِك مِن قِلَّةِ عَددِ الكافرينَ، فقَوِيَت قلوبُهم، وتجرَّؤوا على قتالِ عَدُوِّهم(٤).

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ عليمٌ بما تُخفيه الصُّدورُ؛ مِن الإيمانِ والكُفرِ، والوساوسِ وغيرِ ذلك، لا يخفَى عليه شيءٌ سُبحانَه(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٨، ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٠، ٧١).

قال ابنُ عطية: (تظاهرت الرِّواياتُ أنَّ هذه الآيةَ نزلتْ في رُؤيا رآها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، رأى فيها عددَ الكُفَّارِ قليلًا، فأخبرَ بذلك أصحابَه، فقَوِيَت نفوسُهم، وحَرَصوا على اللِّقاءِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧١، ٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٩، ٢١١)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ تعالى ما نشأ عن رُؤيَتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن قِلَّتِهم، وما كان ينشأُ عن رؤيتِه الكثرةَ لو وقَعَت؛ أتبَعَه ما فعل مِن اللُّطفِ في رؤيتِهم بأنفُسِهم يقظةً(١).

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾.

أي: واذكروا حين(٢) أراكُم اللهُ في اليقظةِ- أيُّها المؤمنونَ- جيشَ الكافرينَ قليلًا عندَ اللقاءِ؛ لِتَتشجَّعوا على قتالِهم(٣).

عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (لقد قُلِّلوا في أعيُنِنا يومَ بَدرٍ، حتى قُلْتُ لرَجُلٍ إلى جانِبي: تُراهم سبعينَ؟ قال: لا، بل هم مئةٌ، حتى أخَذْنا رجُلًا منهم فسَألْناه، قال: كنَّا ألفًا)(٤).

= (٤/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٢، ٧٣).
قال ابنُ عطية: (هذه الرُّؤيةُ هي في اليَقَظةِ بإجماعٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٥).
وقال الشِّنقيطي: (هذا رأيٌ في العينِ تَصديقًا لِرُؤياه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((العذب النمير)) (٥/ ٧٢).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٦٦٩٨)، وابن جرير في ((التفسير)) (٦٦٩٠)، وابن أبي حاتم في ((التفسير)) (٥/ ١٧١٠)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٠/ ١٤٧) (١٠٢٦٩).
قال ابنُ حجر في ((المطالب العالية)) (٤/ ٣٨٧): (إسنادُه صحيحٌ، إن كان أبو عبيدةَ سَمِعَه من أبيه). وقال ابنُ رجب: (وأبو عبيدة، وإن لم يسمَعْ من أبيه، إلا أنَّ أحاديثه عنه صحيحةٌ، تلقَّاها عن أهلِ بَيتِه الثِّقات العارفين بحديث أبيه: قاله ابنُ المديني وغيره). ((فتح الباري)) (٧/ ٣٤٢).

﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾.

أي: وقَلَّلَكم في أعيُنِ الكافرينَ؛ لِيَرَوكم أقَلَّ ممَّا أنتم عليه، فيَستَهينوا بقتالِكم⁽¹⁾.

﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

أي: خيَّل اللهُ لكُلِّ فَريقٍ قِلَّةَ الفَريقِ الآخَرِ؛ لأجلِ أن يقَعَ ما قدَّره مِن قتالِ بَعضِهم بعضًا في بدرٍ، وانتصارِ المُسلمينَ، وإهلاكِ الكافرينَ⁽²⁾.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

أي: وإلى اللهِ تعالى وَحدَه تَصيرُ جَميعُ أمورِ الخَلائقِ، فيحكُم فيهم بحُكمِه العَدلِ⁽³⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦).

قال ابن كثير: (ومعنى هذا أنَّه تعالى أغرى كُلًّا من الفريقينِ بالآخَرِ، وقلَّلَه في عَينِه؛ ليَطمَعَ فيه، وذلك عند المواجَهةِ، فلما الْتَحَم القتالُ وأيَّدَ اللهُ المؤمنينَ بألفٍ مِن الملائكةِ مُردِفينَ، بقِيَ حزبُ الكفَّارِ يرى حزبَ الإيمانِ ضِعفَيه، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣]، وهذا هو الجمعُ بين هاتينِ الآيتين؛ فإنَّ كلًّا منها حقٌّ وصِدقٌ، ولله الحمدُ والمنة). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٣).

قال الشنقيطي: (﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ﴾ بذلك ﴿أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ في عِلمِه، وأزَلِه، مُنَفَّذًا في وَقْتِه لا محالةَ؛ لأنَّ اللهَ جَلَّ وعلا يقضي ويُقدِّر، فيُقَدِّرُ كُلَّ ما شاء ثمَّ يقضيه مُنجَزًا في أوقاتِه، في أماكِنِه، على هَيئَتِه وصُوَرِه التي سبَقَ بها عِلْمُه). ((العذب النمير)) (٥/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٣، ٧٤).

قال الشنقيطي: (وقد صار إليه هذا الأمرُ، وآل إليه، فنفذَ فيه مشيته وقُدرَته، وهيَّأ الأسبابَ، حتى هَزَمَ الكفرةَ، وقَتلَ صناديدَهم ورؤساءَهم، وكسَرَ شَوكتَهم على أيدي أوليائِه المسلمين، =

كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قول الله تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ تنبيهٌ على أنَّ أمورَ الدُّنيا غيرُ مَقصودةٍ، وإنَّما المرادُ منها ما يَصلُحُ أن يكونَ زادًا لِيَومِ المَعادِ⁽¹⁾.

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ إذا قيل: كيف يريهم الله قليلًا في منامه، ورؤيا الأنبياءِ حَقٌّ، والنبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يعلَمُ أنَّهم حوالَي ألف؟ والجوابُ: أنَّ رُؤيا النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حقٌّ، وتأويلَها حَقٌّ؛ لأنَّ معنى رؤياه أنَّ اللهَ قَلَّلَ كُلًّا مِن الطَّائِفَتينِ في عينِ الأُخرَى في اليَقظةِ، وهو معنى قَولِه: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾⁽²⁾.

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ لَمَّا كان الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مَحميًّا مِن الفَشلِ، معصومًا مِن النَّقائِصِ؛ أسنَدَ الفَشلَ إلى من يُمكِنُ ذلك في حَقِّه، فقال تعالى: ﴿لَفَشِلْتُمْ﴾⁽³⁾.

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ فيه أنَّ القَضاءَ والقَدَرَ قائمانِ بِسُنَنِه تعالى في الأسبابِ والمُسَبَّبات، فهو لو شاء لخَلَقَ في القلوبِ والأذهانِ ما أراده بتأثيرِ مَنامِ الرَّسولِ، وبتقليلِ كُلٍّ مِن الجَمعينِ في أعيُنِ الآخَرِ، مِن غيرِ أن يُرَتِّبَهما على

= ونصَرَ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابَه، وأيَّدَهم بنَصرِه، وهذا قضاؤُه وقَدَرُه جلَّ وعلا، واللهُ يُهيِئُ الأسبابَ، ولو شاء فعَلَ بلا سببٍ، إلَّا أنَّه اقتضت حِكمَتُه أن يُرتِّبَ المسبَّباتِ على أسبابٍ، ويُسبِّبَ للأشياءِ جلَّ وعلا، سبحانه وتعالى). ((العذب النمير)) (٥/ ٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٨).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٠).

هذينِ السَّبَبينِ، ولكنَّه ناط كلَّ شَيءٍ بِسَببٍ، وخلقَ كلَّ شَيءٍ بِقَدَرٍ(١).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ هذا مِن بَديعِ صُنعِ اللهِ تعالى؛ إذ جعَلَ للشَّيءِ الواحِدِ أثَرينِ مُختلِفينِ، وجعَلَ للأثرَينِ المُختلِفينِ أثرًا مُتَّحِدًا، فكان تخيُّلُ المسلمينَ قِلَّةَ المشركينَ مُقَوِّيًا لِقُلوبِهم، وزائدًا لِشَجاعَتِهم، ومُزيلًا للرُّعبِ عنهم، فعَظُم بذلك بأسُهم عند اللِّقاءِ؛ لأنَّهم ما كان لِيَفُلَّ من بأسِهم إلَّا شُعورُهم بأنَّهم أضعَفُ مِن أعدائِهم عَددًا وعُددًا، فلمَّا أُزيلَ ذلك عنهم بِتَخييلِهم قِلَّةَ عَدُوِّهم، خَلُصَت أسبابُ شِدَّتِهم ممَّا يُوهِنُها، وكان تخيُّلُ المُشركينَ قِلَّةَ المسلمين- أي كَونَهم أقَلَّ ممَّا هم عليه في نَفسِ الأمرِ- بَردًا على غَلَيانِ قُلوبِهم مِن الغَيظِ، وغارًّا إيَّاهم بأنَّهم سيَنالونَ التغَلُّبَ عليهم بأدنى قِتالٍ، فكان صارِفًا إيَّاهم عن التأهُّبِ لِقتالِ المُسلِمينَ، حتى فاجأهم جَيشُ المُسلمينَ، فكانت الدَّائرةُ على المُشرِكينَ، فنتج عن تخيُّلِ القِلَّتَينِ انتصارُ المُسلمينَ(٢).

٥- جميعُ الأمورِ مَرجِعُها لله وَحدَه؛ يُصَرِّفُها بسُلطانِه، ويُوقِعُها بإرادتِه، ولا تَنِدُّ عن قُدرتِه وحُكمِه، ولا ينفذُ شيءٌ في الوجودِ إلَّا ما قضاه وأجرى به قَدَره، قال تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾(٣).

بلاغةُ الآيتين:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

- قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ أُسنِدَت الإراءةُ إلى اللهِ تعالى؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٥٢٧).

لأنَّ رُؤيا النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وحيٌ بمَدْلولِها(١).

- وفي قولِه: ﴿يُرِيكَهُمُ﴾ جاء التعبيرُ بصِيغة المُضارِع؛ لاسْتِحضارِ حالةِ الرُّؤيا العجيبةِ(٢).

- قولُه: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ مفعولُ ﴿سَلَّمَ﴾ ومُتعلَّقُه محذوفان إيجازًا؛ إذ دلَّ عليه قولُه: ﴿لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ﴾ والتَّقديرُ: سَلَّمَكم من الفَشلِ والتَّنازُعِ بأنْ سلَّمكم مِن سببِهما، وهو إراءتُكم واقعَ عددِ المشركينَ(٣).

- وقولُه: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ فيه وضْعُ الظَّاهِر موضِعَ المُضمَرِ- حيثُ لم يَقُلْ: (ولكنَّه سلَّم)-؛ وذلك لقَصْدِ زِيادةِ إسنادِ ذلك إلى اللهِ، وأنَّه بعنايته، واهتمامًا بهذا الحادثِ(٤).

- قولُه: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ تذييلٌ للمِنَّةِ، أي: أَوْحى إلى رَسولِه بتلك الرُّؤيا الرَّمزيَّةِ؛ لعِلْمِه بما في الصُّدورِ البشريَّةِ من تأثُّرِ النُّفوسِ بالمشاهداتِ والمحسوساتِ أكْثرَ ممَّا تتأثَّر بالاعتقاداتِ(٥).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ فيه تَكرارُ قوله: ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ حيثُ ذَكَره في الآيةِ المتقدِّمةِ: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢]، وليس ذلِك محضَ تَكرارٍ؛ فالمقصودُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٥).

مِن ذِكرِه في الآيةِ المُتقدِّمةِ هو أنَّه تعالى فَعَل تِلك الأفعالَ لِيَحصُلَ استيلاءُ المؤمنين على المشرِكينَ، على وجهٍ يكونُ مُعجزةً دالَّةً على صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمقصودُ مِن ذِكرِه هاهنا: أنَّه تَعالَى قلَّلَ عَددَ المؤمنِينَ في أعيِنِ المُشرِكين؛ فبَيَّن هاهنا أنَّه إنَّما فَعَل ذلِك لِيَصيرَ ذلك سببًا لئلَّا يُبالِغَ الكُفَّارُ في تَحصيلِ الاستعدادِ والحذَرِ؛ فيصيرُ ذلك سببًا لانكسارِهم⁽¹⁾.

- قوله: ﴿ٱلْتَقَيْتُمْ﴾ الالتقاءُ افتعالٌ من اللِّقاءِ، وصيغةُ الافتعالِ فيه دالَّة على المُبالَغةِ⁽²⁾.

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ خُولِفَ الأسلوبُ في حكايةِ إراءةِ المُشركينَ، وحكايةِ إراءةِ المُسلمينَ؛ لأنَّ المُشركينَ كانوا عددًا كثيرًا، فناسب أن يَحكيَ تقليلَهم بإراءَتِهم قليلًا، المؤذنة بأنَّهم ليسُوا بالقَليلِ. وأمَّا المُسلمونَ فكانوا عددًا قليلًا بالنِّسبةِ لعَدُوِّهم، فكان المناسِبُ لِتَقليلِهم: أن يُعَبَّر عنه بأنَّه (تقليلٌ)، المؤذِن بأنَّه زيادةٌ في قِلَّتِهم⁽³⁾.

- قولُه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ تَذييلٌ معطوفٌ على ما قَبْلَه عطفًا اعتراضيًّا، وهو اعتراضٌ في آخِرِ الكلامِ⁽⁴⁾، وفي هذا التَّذييلِ تنبيهٌ على أنَّ الحَوْلَ بأجمعِه للهِ تعالى، وأنَّ كلَّ أمرٍ فله وإليه⁽⁵⁾.

- والتعريفُ في قولِه: ﴿ٱلْأُمُورُ﴾ للاستغراقِ، أي: جميعُ الأشياءِ⁽⁶⁾.

---

(1) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٧)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٧٣).

(2) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٧).

(3) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨).

(4) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(5) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٥).

(6) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٨).

الآيات (٤٥-٤٧)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿رِيحُكُمْ﴾: أي: قُوَّتُكم وغَلَبَتُكم ودَولَتُكم(١).

﴿بَطَرًا﴾: أي: دفعًا للحَقِّ، وفَخرًا وبَغيًا، وأَصلُ (بطر) يدلُّ على الشَّقِّ(٢).

﴿وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾: أي: ليَراهم النَّاسُ، ومُفاخرةً، وتكبرًا عليهم، راءَى فلانٌ يُرائِي، وفعَلَ ذلكَ رِئاءَ النَّاسِ، وهو أنْ يفعلَ شيئًا ليَراه النَّاسُ، وأصلُه مِن الرُّؤيةِ(٣).

المَعنى الإجماليُّ:

يأمرُ اللهُ عبادَه المؤمنينَ إذا لَقُوا جماعةً مِن أعدائِهم مُحاربينَ لهم؛ أن يَثبُتوا في قتالِهم، ويَذكرُوا اللهَ كثيرًا؛ لعلَّهم يُفلِحونَ.

ويأمُرُهم أن يُطيعوه ويُطيعوا رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولا يختَلِفوا فيما

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢).

بينهم فيَفشَلوا، وتخورَ قواهم، وتنحَلَّ عزائِمُهم، وأمَرَهم أن يَصبِروا؛ فإنَّه تعالى مع الصَّابرينَ.

ونهاهم أن يكونوا مثلَ كفَّارِ قُريشٍ، الذين خرجوا مِن منازلهم ردًّا للحَقِّ، ودَفعًا له، ولِيَفتَخِروا على النَّاسِ، ويَتَباهَوا بجَمعِهم، ويمنَعوا النَّاسَ مِن الدُّخولِ في الإسلامِ، واللهُ بما يعملونَ مُحيطٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا عَرَّفهم اللهُ تعالى بنِعَمِه ودلائِلِ عِنايتِه، وكشفَ لهم عن سرٍّ مِن أسرارِ نَصرِه إيَّاهم، وكيف خذل أعداءَهم، وصرَفَهم عن أذاهم، فاستَتَبَّ لهم النَّصرُ مع قِلَّتِهم، وكثرةِ أعدائِهم- أقبلَ في هذه الآيةِ على أنْ يأمُرَهم بما يهيِّئُ لهم النَّصرَ في المواقِعِ كُلِّها، ويستدعي عنايةَ الله بهم وتأييدَه إيَّاهم، فجمع لهم في هذه الآيةِ ما به قِوامُ النَّصرِ في الحُروبِ(١).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، إذا لَقِيتُم جماعةً مُحاربينَ لكم مِن أعدائِكم، فاثبُتُوا لقتالِهم، ولا تتَزَعزعوا ولا تَفِرُّوا منهم(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٥).

عن أبي هُريرةَ رَضيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا تَمَنَّوا لقاءَ العَدُوِّ، فإذا لَقيتُموهم فاصبِروا))(١).

وعن أبي النَّضرِ، عن كتابِ رجلٍ مِن أسلمَ مِن أصحابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يقال لهُ عبدُ اللهِ بنُ أبي أوفَى، فكتب إلى عمرَ بنِ عُبيدِ اللهِ، حين سار إلى الحَروريَّةِ، يخبرُه أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان في بعضِ أيَّامِه التي لقيَ فيها العدوَّ، ينتظرُ حتى إذا مالتِ الشمسُ قام فيهم، فقال: ((يا أيُّها الناسُ، لا تتمَنَّوا لقاءَ العدوِّ، واسألوا اللهَ العافيةَ، فإذا لَقِيتُموهم فاصبِروا، واعلموا أنَّ الجنةَ تحتَ ظِلالِ السُّيوفِ، ثم قام النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وقال: اللَّهم مُنْزِلَ الكتابِ، ومُجْرِيَ السَّحابِ، وهازمَ الأحزابِ، اهْزِمْهم وانصُرْنا عليهم))(٢).

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

أي: واذكُروا اللهَ تعالى عند لقاءِ العَدُوِّ ذكرًا كثيرًا؛ بقُلوبِكم وألسِنَتِكم؛ لِتُدرِكوا ما تَطلبونَ مِن الانتصارِ على عَدُوِّكم(٣).

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٣٠٢٦) ومسلم (١٧٤١).

(٢) رواه البخاري (٢٩٦٥)، ومسلم (٢٥٠٩) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٥).

قال ابنُ عطيةَ: (وهذا ذِكرٌ خَفِيٌّ؛ لأنَّ رَفعَ الأصواتِ في مَوطِنِ القِتالِ رَديءٌ مَكروهٌ، إذا كان إلغاطًا، فأمَّا إن كان مِنَ الجَمعِ عند الحَمْلةِ، فحَسَنٌ فاتٌّ في عَضُدِ العَدُوِّ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٦).

أي: وأطيعُوا اللهَ ورَسولَه - أيُّها المؤمنونَ - بامتثالِ أمْرِهما، واجتنابِ نَهْيِهما⁽¹⁾.

﴿وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ﴾.

أي: ولا تَختَلفوا فيما بينكم، فتَضعُفوا، وتجبُنوا عن قتالِ عَدُوِّكم⁽٢⁾.

كما قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضيَ الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعَثَه ومُعاذًا إلى اليَمنِ فقال: ((يَسِّرا ولا تُعَسِّرا، وبشِّرا ولا تُنفِّرا، وتطاوَعا ولا تختَلِفا))⁽٣⁾.

﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

أي: وتَخورَ قُواكم، وتنحَلَّ عَزائِمُكم، فلا تَنتَصِروا بسببِ تَنازُعِكم⁽٤⁾.

﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾.

أي: واصبِروا عند لقاءِ عَدُوِّكم؛ إنَّ اللهَ مع الصَّابرين، بالنَّصرِ والتَّأييدِ⁽٥⁾.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢).

قال ابنُ كثيرٍ: (في حالِهم ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٢).

وقال السعدي: (في جميعِ الأحوالِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٨١).

(٣) رواه البخاري (٣٠٣٨) ومسلم (١٧٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١٤، ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٨٨).

عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٤٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه بعد أنْ أمَرَ الله تعالى عبادَه المؤمنينَ بما أمَرَ به؛ من جلائِلِ الصِّفاتِ، وأحاسِنِ الأعمالِ، التي جرَتْ سُنَّتُه بأنْ تكونَ سبَبَ الظَّفَرِ في القتالِ، ونهاهم عن التَّنازُعِ- نهاهم عمَّا كان عليه خُصومُهم مِن مُشركي مكَّةَ حين خرجوا لحمايةِ العِيرِ؛ من الصِّفاتِ الرديئةِ، وذكر لهم بعضَ أحوالِهم القَبيحةِ(١)، فقال:

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾.

أي: ولا تكونوا- أيُّها المؤمنونَ- مِثلَ كُفَّارِ قُريشٍ(٢) الذين خرَجُوا مِن مَنازِلهم ردًّا للحَقِّ، ودفعًا له، غيرَ شاكرينَ لنِعَمِ الله تعالى عليهم، ولِيَفتَخِروا على النَّاسِ، ويتباهَوا بجَمعِهم(٣).

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٢٤).

(٢) قال ابنُ عطيةَ: (﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ...﴾ الآية، آية تتضمنُ الطعنَ على المشارِ إليهم، وهم كفارُ قريش، وخرَج ذلك على طريقِ النَّهيِ عن سلوكِ سبيلِهم، والإشارةُ هي إلى كفارِ قريشٍ بإجماعٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢١٦، ٢٢٠)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣).

قال ابنُ كثير: (يقول تعالى بعد أمْرِه المُؤمِنينَ بالإخلاصِ في القِتالِ في سبيلِه، وكَثرةِ ذِكْرِه، ناهيًا لهم عن التشبُّه بالمُشرِكينَ في خُروجِهم من ديارِهم ﴿بَطَرًا﴾ أي: دفعًا للحَقِّ، ﴿وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ وهو: المُفاخَرةُ والتكَبُّرُ عليهم، كما قال أبو جهل- لَمَّا قيل له: إنَّ العيرَ قد نجا فارجِعوا- فقال: لا واللهِ، لا نرجِعُ حتى نَرِدَ ماءَ بَدرٍ، وننحَرَ الجُزُرَ، ونشرَبَ الخَمرَ، وتعزِفَ علينا القِيانُ، وتتحَدَّثُ العَرَبُ بمكانِنا فيها يومَنا أبدًا). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٢).

((الكِبرُ: بَطَرُ الحقِّ⁽¹⁾، وغَمْطُ النَّاسِ⁽²⁾))⁽³⁾.

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: وخَرَجوا لِيَمنَعُوا النَّاسَ مِن الدُّخولِ في الإسلامِ⁽⁴⁾.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

أي: واللهُ عالِمٌ بما يعمَلُ أولئك المُشركونَ؛ مِن الرِّياءِ، والصَّدِّ عن سبيلِ اللهِ، وغيرِ ذلك، لا يخفَى عليه شيءٌ من أعمالِهم الظَّاهِرة والباطنةِ⁽⁵⁾.

الفَوائِد التربويَّة:

١ - قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أمَرَ فيه المجاهدينَ بخمسةِ أشياءَ، ما اجتمعَتْ في فئةٍ قَطُّ إلَّا نُصِرَت، وإن قَلَّتْ وكَثُر عَدُوُّها؛ أحدها: الثَّبات. الثاني: كثرةُ ذِكرِه سبحانه وتعالى. الثالث: طاعَتُه وطاعةُ رسولِه. الرابع: اتِّفاقُ الكَلِمةِ وعَدمُ التَّنازُعِ الذي يوجِبُ الفَشَلَ والوَهَنَ. الخامس: مِلاكُ ذلك كلِّه وقِوامُه وأساسُه، وهو الصَّبرُ. فهذه خمسةُ أشياءَ تُبتَنى عليها قُبَّةُ النَّصرِ، ومتى زالت أو بعضُها زال مِن النَّصرِ بحسَبِ ما نقَصَ منها، وإذا اجتمَعَت قَوَّى بعضُها بعضًا، وصار لها أثرٌ عَظيمٌ في النَّصرِ، ولَمَّا اجتمَعَت في الصَّحابةِ، لم تقم لهم أُمَّةٌ مِن الأمَمِ، وفتَحوا الدُّنيا،

---

(١) بَطَرُ الحَقِّ: أي: دَفْعُه وإنكارُه؛ ترفُّعًا وتَجبُّرًا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٩٠).

(٢) غَمْطُ النَّاسِ: أي: احتِقارُهم والاستهانةُ بهم. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٨٧).

(٣) رواه مسلم (٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٠)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣).

ودانت لهم البلادُ، ولَمَّا تفرَّقَت فيمن بعدَهم وضَعُفَت، آلَ الأمرُ إلى ما آلَ(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ أمَرَ بالثَّباتِ عند قتالِ الكفَّارِ، كما في الآيةِ قَبلَها النَّهيُ عن الفِرارِ عنهم، وهي قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ فالتقى الأمرُ والنَّهيُ على سواءٍ، وهذا تأكيدٌ على الوقوفِ للعَدُوِّ والتجَلُّدِ له(٢).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فيه إشعارٌ بأنَّ على العبدِ ألَّا يَفتُرَ عن ذِكرِ ربِّه أشغَلَ ما يكون قلبًا، وأكثَرَ ما يكونُ هَمًّا، وأن تكونَ نَفسُه مُجتَمِعةً لذلك، وإن كانت مُتوزِّعةً عن غيرِه(٣)، فقد أمر الله تعالى بالإكثارِ مِن ذِكرِه في أضيَقِ الأوقاتِ- وهو وقتُ الْتِحامِ القتالِ- ففي ذلك دليلٌ واضِحٌ على أنَّ المُسلِمَ ينبغي له الإكثارُ مِن ذِكرِ اللهِ على كلِّ حالٍ، ولا سيَّما في وقتِ الضِّيقِ(٤).

٤- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ السِّلاحُ الأكبَرُ في ميادينِ القِتالِ هو ذِكرُ اللهِ جلَّ وعلا، وطاعَتُه وامتثالُ أمرِه؛ لأنَّه هو الذي منه النَّصرُ والمَدَدُ(٥).

٥- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على أنَّ الذين إذا لَقُوا فئةً مِن فئاتِ الكفَّارِ في ميدانِ القِتالِ، ولم يَثْبُتوا، أو لم يَذْكُروا اللهَ كثيرًا؛ أنَّهم لا يُفلِحونَ(٦).

---

(١) يُنظر: ((الفروسية)) لابن القيم (ص: ٥٠٥، ٥٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٠٢).

(٥) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٧٨).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٨٠).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الثَّباتَ في القِتالِ، هو من أسبابِ النَّصرِ المَعنويَّةِ، التي يحصُلُ بها ما يُعبَّرُ عنه في عُرفِ العَصرِ بالقُوَّةِ الرُّوحيَّةِ⁽١⁾.

٧- الجهادُ لا ينفَعُ إلَّا مع التمسُّكِ بسائِرِ الطَّاعاتِ؛ يبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بعد قَولِه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾⁽٢⁾.

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ فيه ذَمُّ الاختلافِ، والنَّهيُ عن التفرُّقِ والتَّنازُعِ⁽٣⁾.

٩- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾، أكبَرُ أسبابِ النِّزاعِ: تقديمُ المصالحِ الشَّخصيَّةِ والأغراضِ الدُّنيويةِ على المصالِحِ العامَّةِ، وهذه أكبَرُ البلايا التي يأتي مِن قِبَلِها الشَّرُّ للمُسلمين؛ لأنَّه قد يخالِفُ بعضُ المسلمينَ، فتكونُ العقوبةُ عامَّةً للجميعِ⁽٤⁾.

١٠- التَّنازُعُ يُفضي إلى التفرُّقِ، وهو يُوهِنُ أمرَ الأمَّةِ؛ لذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾⁽٥⁾.

١١- قولُه تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فيه دلالةٌ على وجوبِ الصَّبرِ، وكَونِه أعظَمَ أسبابِ النَّصرِ؛ ولذلك عَظَّمَ اللهُ تعالى شأنَه بِقَولِه بعد الأمرِ بطاعَتِه وطاعةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٩).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٨٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٣٢).

رَسولِه وبِذِكْرِه: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، وأيُّ بيانٍ لِفائدةِ الصَّبرِ أبلَغُ مِن إثباتِ مَعيَّةِ اللهِ تعالى لأهلِه(١)؟!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ إن قيل: هذه الآيةُ تُوجِبُ الثَّباتَ على كلِّ حالٍ، وهذا يوهِمُ أنَّها ناسخةٌ لآيةِ التحَرُّفِ والتحيُّزِ، فالجوابُ: أنَّ هذه الآيةَ تُوجِبُ الثَّباتَ في الجملةِ، والمرادُ مِن الثَّباتِ الجِدُّ في المحاربةِ، وآيةُ التَّحرُّفِ والتحيُّزِ لا تقدَحُ في حصولِ الثَّباتِ في المحاربةِ، بل كان الثَّباتُ في هذا المقصودِ، لا يحصُلُ إلَّا بذلك التحرُّفِ والتَّحيُّزِ(٢).

٢- في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ قَرنَ الذِّكرَ بالجِهادِ، فأمَرَ بذِكرِه عند مُلاقاةِ الأقرانِ ومُكافحةِ الأعداءِ، والمُحِبُّون يفتخِرونَ بذِكرِ مَن يُحِبُّونه في هذه الحالِ، وهذا كثيرٌ في أشعارِ العَرَبِ، وهو ممَّا يدُلُّ على قُوَّةِ المحبَّةِ؛ فإنَّ ذِكْرَ المُحِبِّ مَحبوبَه في تلك الحالِ التي لا يُهِمُّ المرءَ فيها غيرُ نَفسِه، يدُلُّ على أنَّه عنده بمنزلةِ نَفسِه أو أعَزُّ منها، وهذا دليلٌ على صِدْقِ المحبَّةِ(٣).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ لَمَّا كان التَّنازُعُ مِن شَأنِه أن ينشَأَ عن اختلافِ الآراءِ، وهو أمرٌ مُرتكِزٌ في الفِطرةِ- بسَطَ القرآنُ القَولَ فيه ببيانِ سَيِّئِ آثارِه، فجاء بالتَّفريعِ بالفاءِ في قَولِه: ﴿فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾؛ فحَذَّرهم أمرينِ مَعلومًا سُوءُ مَغَبَّتِهما: وهما الفَشَلُ وذَهابُ الرِّيحِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٨٩).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٩٩، ٤٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٣١).

٤- في قولِه تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ دليلٌ على أنَّه لا يَصْلُحُ في الحرب إلَّا مُدَبِّرٌ واحدٌ؛ وأنَّ منازعتَه، والخلافَ عليه داعٍ إلى الفشلِ، وتشويش الأمر، والصبرُ - واللهُ أعلمُ- في الآية جامعٌ للثباتِ، ولزومِ طاعةِ الأمير في تدبير الحرب⁽¹⁾.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فيه تَصديرُ الخِطابِ بحَرْفَي النِّداءِ والتَّنبيهِ؛ إظهارًا لكَمالِ الاعْتِناءِ بمضمونِ ما بعدَه⁽٢⁾؛ فافتُتِحتْ هذه الوصايا بالنِّداءِ اهتمامًا بها، وجُعِلَ طريقُ تعريفِ المُنادى طريقَ الموصوليَّةِ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ لِمَا تُؤذِنُ به الصِّلةُ من الاسْتِعدادِ لامتثالِ ما يَأمُرُهم به اللهُ تعالى؛ لأنَّ ذلك أخصُّ صِفاتِهم تِلْقاءَ أوامِرِ الله تعالى⁽٣⁾.

- وقولُه: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ فيه تَرْكُ وَصْفِ الفِئةِ إيجازًا؛ لأنَّ المؤمنِينَ ما كانوا يَلْقَون إلَّا الكُفَّار؛ فالمرادُ: فئةٌ كافرةٌ، وحُذِفتْ؛ لأنَّ الخِطابَ للمُؤمنِينَ، وهم لا يُحارِبونَ إلَّا فِئةً مِن المشركين، أو الباغين، فحُذِفَ للإيجازِ مِن غيرِ إخلالٍ بالمعنى⁽٤⁾.

٢- قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٩).

(٤) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٨١)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣١).

- قولُه: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فيه تَتْميمٌ في الوصيَّة، وعِدَةٌ مُؤنِسةٌ؛ وذلك أنَّ كمالَ أمْرِ الجِهادِ مبنيٌّ على الصَّبر؛ فأمَرَهم بالصَّبر⁽¹⁾.

- وقوله: ﴿وَاصْبِرُوا﴾ بمنزلةِ التَّذييلِ؛ لأنَّ الصَّبرَ هو تَحمُّلُ المكروهِ، وما هو شديدٌ على النَّفْسِ، وتلك المأموراتُ كلُّها تحتاجُ إلى تَحمُّلِ المكارهِ؛ فالصَّبرُ يَجمَعُ تَحمُّلَ الشَّدائدِ والمصاعِب⁽²⁾.

- وجملةُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ قائمةٌ مقامَ التعليلِ للأمْرِ ﴿وَاصْبِرُوا﴾؛ لأنَّ حَرْف التَّأكيدِ ﴿إِنَّ﴾ في مِثلِ هذا قائمٌ مقامَ فاءِ التَّفريع⁽³⁾.

٣- قولُه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ...﴾ جِيءَ في نَهْيِهم عن البَطَر والرِّئاء بطَريقةِ النَّهيِ عن التشبُّهِ بالمشركين؛ إدماجًا للتَّشنيعِ بالمشركين وأحوالِهم، وتَكريهًا للمُسلِمينَ تلك الأحوالَ؛ لأنَّ الأحوالَ الذَّميمةَ تتَّضِح مذمَّتُها، وتَنكشِف مزيدَ الانكشاف إذا كانت من أحوالِ قومٍ مذمومين عند آخَرينَ، وذلك أبلغُ في النَّهي، وأكْشَفُ لقُبْحِ المنهيِّ عنه⁽⁴⁾، وتَضمَّن هذا الأسلوبُ الطَّعنَ على المُشارِ إليهم، وهم كفَّارُ قريشٍ، وخرَج ذلك على طَريقِ النَّهي عن سُلوكِ سبيلِهم⁽⁵⁾.

- قولُه: ﴿بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فيه ذِكرُ البَطرِ والرِّئاءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٧).

بِصِيغةِ الاسمِ، وذِكرُ الصَّدِّ عن سَبيلِ اللهِ تعالى بِصِيغةِ الفِعلِ؛ لأنَّ المشرِكين كانوا مَجبولِينَ على البَطرِ والمفاخرةِ والعُجبِ، وأمَّا صدُّهم عن سَبيلِ اللهِ فإنَّما حصَلَ في الزَّمانِ الذي بُعِث فيه النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فوَصَفَهم بالمَصدرِ؛ للمُبالغةِ في تمكُّن الصِّفتين منهم؛ لأنَّ البَطَرَ والرِّياءَ خُلُقان مِن خُلُقهم، فالتعبيرُ عنهما بالاسمِ فيه إشارةٌ إلى الثَّباتِ، وجاء الفِعْلُ ﴿يَصُدُّونَ﴾ بصِيغةِ الفِعْلِ المضارعِ؛ للدَّلالةِ على حُدوثِ صَدِّهم النَّاسَ عن سَبيلِ الله، وتَجدُّدِه(١).

- وصِيغةُ المُفاعَلةِ في ﴿وَرِئَاءَ﴾؛ للمُبالغةِ أيضًا، أي: بالَغَ في إراءة النَّاس عمَلَه؛ مَحبَّةَ أن يَرَوه ليَفخرَ عليهم(٢).

- قوله: ﴿وَاللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ خِتامُ هذه الآيةِ فيه وعيدٌ وتهديدٌ لِمَن بَقِي من الكُفَّار، ونفوذُ القَدَر فيمَنْ مَضَى بالقَتْل؛ إذ الإنسانُ ربَّما أظهَر من نَفْسه أنَّ الحاملَ له والدَّاعي إلى الفِعلِ المخصوصِ طلبُ مَرضاةِ اللهِ تعالى، مع أنَّه لا يكونُ الأمرُ كذلك في الحَقيقةِ؛ فبيَّن اللهُ سبحانه أنَّه عالمٌ ومحيطٌ بما في دواخِلِ القلوبِ، وذلك كالتَّهديد والزَّجرِ عن الرِّئاءِ والتصنُّعِ(٣).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٣).

الآيتان (٤٨-٤٩)

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ
ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى
بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ
(٤٨) إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن
يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩)﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿جَارٌ لَكُمْ﴾: أي: مُجِيرٌ لكم، ومانعُكم منهم⁽١⁾.

﴿تَرَاءَتِ﴾: أي: تقابَلَت وتَلاقَت. وتراءى القَومُ: إذا رأى بعضُهم بعضًا، وأصلُ (رأى): يدلُّ على نظَرٍ وإبصارٍ بِعَينٍ⁽٢⁾.

المَعنى الإجماليُّ:

واذكُرْ- يا مُحمَّدُ- حين زَيَّنَ الشَّيطانُ لكُفَّارِ قُرَيشٍ أعمالَهم القبيحةَ، وقال لهم: لن يستطيعَ أحدٌ أن يَغلِبَكم اليومَ، وإنِّي مُجيرٌ لكم، فلمَّا تقابلَ المُسلمونَ والكُفَّارُ، ونظَرَ بعضُهم إلى بعضٍ؛ قال الشَّيطانُ لكُفَّارِ قُرَيشٍ: إنِّي بريءٌ منكم، إنِّي أخشى اللهَ، واللهُ شَديدُ العقابِ.

ثم قال تعالى: اذكُرْ حين يقولُ المُنافِقونَ والذين في قُلوبِهم شَكٌّ: غرَّ المُسلمين دينُهم حتى تكلَّفوا قِتالَ قُرَيشٍ، وهم أكثَرُ وأشَدُّ قوَّةً منهم! ومَن يُفَوِّضْ أمْرَه لله فإنَّ اللهَ عزيزٌ حكيمٌ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٢- ٤٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

تَفسيرُ الآيتين:

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ الله تعالى فَسادَ أعمالِ المشركينَ لفسادِ نِيَّاتِهم؛ تنفيرًا منها- زاد في التَّنفيرِ بذِكرِ العَدُوِّ المُبين، والتنبيهِ على أنَّ كُلَّ ما يأمُرُ به، إنَّما هو خيالٌ لا حقيقةَ له(١).

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾.

أي: واذكُرْ(٢)- يا مُحمَّدُ- حين حسَّن إبليسُ لكفَّارِ قُريشٍ أعمالَهم القبيحةَ(٣) في أعيُنِهم وقُلوبِهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٠).

وقال ابن جرير: (فتأويلُ الكَلامِ: وإنَّ اللهَ لَسميعٌ عَليمٌ في هذه الأحوالِ، وحينَ زَيَّنَ لهم الشيطانُ خُروجَهم إليكم- أيُّها المؤمنونَ- لِحَربِكم وقِتالِكم، وحسَّنَ ذلك لهم، وحَثَّهم عليكم). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٥).

(٣) قال ابن الجوزي: (وفي المرادِ بأعمالهم هاهنا ثلاثةُ أقوالٍ: أحدها: شِرْكُهم. والثاني: مَسيرُهم إلى بدرٍ. والثالث: قتالُهم لرسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((زاد المسير)) (٢/ ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٩٤).

قال أبو حيان: (الجمهورُ على أنَّ إبليسَ تصوَّر لهم). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٤). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣).

وقال الشنقيطي: (اللهُ هنا في هذه الآيةِ مِن سورةِ الأنفالِ صرحَ بأنَّ الشَّيطانَ (قال) ولم يقُل: (وسوس)، فصرَّحَ بالقولِ ولم يذكُرِ الوسوسةَ). ((العذب النمير)) (٥/ ٩٩). =

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: (جاء إبليسُ يومَ بَدرٍ في جُندٍ مِن الشَّياطين، معه رايتُه، والشَّيطانُ في صورةِ رَجُلٍ من بني مُدلِجٍ، في صورةِ سُراقةَ بنِ مالكِ بنِ جُعْشُمٍ، فقال الشَّيطانُ للمُشركينَ: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ فلمَّا اصطفَّ النَّاسُ، أخذ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قبضةً مِن التُّرابِ، فرمى بها في وُجوهِ المُشركينَ، فوَلَّوا مُدبرين. وأقبل جبريلُ إلى إبليسَ، فلما رآه، وكانت يدُه في يدِ رَجُلٍ مِن المشركينَ، انتزعَ إبليسُ يَدَه، فولَّى مُدبِرًا هو وشيعَتُه، فقال الرَّجلُ: يا سراقةُ، تزعُمُ أنَّك لنا جارٌ؟ قال: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وذلك حين رأى الملائكةَ)(١).

﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

أي: وقال إبليسُ لكفَّارِ قُريشٍ: لا يُطيقُ أحدٌ من النَّاسِ اليومَ أن يتغلَّبَ عليكم؛ لِكَثرتِكم وقوَّتِكم(٢).

﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾.

= وقال ابن تيمية: (قد يتمثَّل الجنيُّ في صورةِ الإنسيِّ، حتى يظُنَّ الظانُّ أنَّه الإنسيُّ، وهذا كثيرٌ؛ كما تصوَّرَ لقُريشٍ في صورة سراقةَ بنِ مالكٍ بنِ جُعشُمٍ). ((النبوات)) (٢/ ١٠٥٣).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في ((التفسير)) (٥/ ١٧١٥)، وابن جرير في ((تفسيره)) (١٦١٨٣)، مِن طريقِ عليٍّ بن أبي طلحة عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما.

وعليٌّ لم يسمعْ من ابنِ عبَّاس، لكن الواسطة بينه وبين ابن عباس مجاهدٌ؛ حيث أخذ تفسيرَه منه.

قال الحافظ في ((التهذيب)): ((بعد أن عُرِفت الواسطة، وهو ثقة (يعني مجاهدًا)؛ فلا ضير في ذلك)).

وقال الإمام أحمد: ((بمصرَ صحيفةٌ في التفسير رواها علي بن أبي طلحة، لو رحل فيها رجلٌ إلى مصر قاصدًا ما كان كثيرًا)) اهـ.

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٥)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣).

أي: وإنِّي مُجيرٌ لكم، وحافظٌ لكم من أن يَأتيَكم أحدٌ تَخشَونَه، فأنتم في ذِمَّتي وحِمايَ[١].

وكلُّ ذلك منه، كما قال الله تعالى عنه: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾.

أي: فلمَّا نظر كلُّ فريقٍ إلى الآخَرِ - حِزب الله، وحِزب الشَّيطان - يومَ بَدرٍ؛ رجعَ إبليسُ القَهقرى[٢] هاربًا[٣].

﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ﴾.

أي: وقال إبليسُ لكفَّارِ قُريشٍ عندما فرَّ وخَذَلهم: إنِّي أتبرَّأُ منكم[٤].

كما قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

---

[١] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣).
قال أبو حيان: (يحتمِلُ أن يكونَ قَولُه: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ معطوفًا على ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ﴾، ويحتمِلُ أن تكونَ الواوُ للحالِ، أي: لا أحَدَ يَغلِبُكم، وأنا جارٌ لكم، أُعِينكم وأنصُرُكم بنفسي وبِقَومي). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٤).
وقال السعدي: (﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ مِن أن يأتِيَكم أحدٌ مِمَّن تَخشَونَ غائِلتَه؛ لأنَّ إبليسَ قد تبدَّى لِقُريشٍ في صورةِ سُراقةَ بنِ مالكِ بنِ جُعشُمٍ المُدْلِجيِّ، وكانوا يخافونَ مِن بني مُدْلِجٍ؛ لعداوةٍ كانت بينهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٠).

[٢] القَهْقَرَى: الرُّجوعُ إلى خَلْفٍ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٦١).

[٣] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٠٠، ١٠١).

[٤] يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٠٠).

وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾.

أي: قال إبليسُ لكفَّارِ قُريشٍ مبيِّنًا سببَ خِذلانِه لهم، وفِرارِه عنهم: إنِّي أرى الملائكةَ الَّتي نزَلَت لتأييدِ المُسلمينَ، وأنتم لا تَرَونَهم⁽¹⁾.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾.

أي: إنِّي أخافُ أن يعاقِبَني اللهُ في الدُّنيا، فأهلِكَ معكم⁽²⁾.

﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾.

أي: واللهُ شديدُ التَّنكيلِ بمن خالَفَه، وكفَرَ به⁽³⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٠٢).

قال ابنُ عطيةَ: (قيل: إنَّ هذه مَعذِرةٌ منه كاذِبةٌ، ولم تَلْحَقْه قطُّ مَخافةٌ، قاله قتادةُ وابنُ الكلبيِّ. وقال الزجَّاجُ وغيرُه: بل خاف ممَّا رأى مِن الأمْرِ وهَوْلِه، وأنَّه يَوْمُه الذي أُنظِرَ إليه، ويُقَوِّي هذا أنَّه رأى خَرْقَ العادةِ، ونُزولَ الملائكةِ للحَرْبِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٩).

وقال ابنُ القيِّمِ: (صَدَقَ في قَولِه: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾، وكذَبَ في قَولِه: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾، وقيل: كان خَوفُه على نفسِه أن يَهلِكَ معهم، وهذا أظهَرُ). ((زاد المعاد)) (٣/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٧٥)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٠٢).

قال الواحدي: (وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يجوزُ أن يكونَ مُتَّصلًا بما أخبَرَ به عن إبليسَ، ويجوز أن ينقطِعَ كلامُه عند قوله: ﴿أَخَافُ اللَّهَ﴾، فقال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾). ((البسيط)) (١٠/ ١٩٢).

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

مُناسَبةُ ذِكرِ هذا الخبرِ عَقِبَ قَولِه تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ..﴾ هي أنَّ كِلا الخبَرينِ يتضمَّنُ قُوَّةَ جيشِ المُشركينَ، وضَعفَ جَيشِ المُسلمين، ويقينَ أولياءِ الشَّيطانِ بأنَّ النَّصرَ سيكونُ للمُشركينَ على المُسلمينَ(١).

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾.

أي: اذكُرْ(٢)- يا مُحمَّدُ- حينَ قال المُنافِقونَ الذين يُبطِنونَ الكُفرَ، ويُظهِرونَ الإسلامَ، والذين في قُلوبِهم شَكٌّ(٣): غرَّ الإسلامُ هؤلاءِ المُسلمينَ وخدَعهم، حتى تكلَّفوا قتالَ قُريشٍ، وهم أكثَرُ منهم، وأشَدُّ قُوَّةً، فلا طاقةَ لهم بذلك(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٣٧).

(٢) قال الشنقيطي: (قولُه: ﴿إِذْ﴾ ظرفٌ، بدلٌ مِن «إذ» قبلَه، أو منصوبٌ بـ (اذكر) مقدرًا. اذكرْ إذ يقولُ المنافقونَ). ((العذب النمير)) (٥/ ١٠٣). وفي العاملِ في ﴿إِذْ﴾ أقوالٌ أخرَى، يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٥).

(٣) قيل: المرادُ بالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مرَضٌ نفسُ المنافقينَ، وهو مِن عطفِ الصِّفاتِ، وهي لموصوفٍ واحدٍ، ويُؤيِّد هذا القولَ: أنَّ الله وصَف المنافقينَ بأنَّ في قلوبِهم مرضًا في قولِه: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠] وهي في المنافقين بلا نزاع.
وقيل: هم قومٌ تكلَّموا بكلمةِ الإسلامِ في مكةَ، وأبوا أن يُهاجروا، ففي قلوبِهم إيمانٌ ضعيفٌ، جاءوا مع كفارِ قريشٍ، فلما رأوا قلةَ المسلمينَ ارتابوا وقالوا ذلك، وكان الله قلَّل المسلمينَ في أعينِ الكفارِ، والكفارَ في أعينِ المسلمينَ. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب =

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

مناسبتُها لما قبلها:

المناسبةُ بينها وبينَ الجملةِ الَّتي قبلَها: أنَّها كالعِلَّةِ لخيبةِ ظُنونِ المشركين ونُصَرائِهم، أيْ أنَّ اللَّه خَيَّب ظُنونَهم؛ لأنَّ المسلمينَ تَوَكَّلوا عليه، وهو عزيزٌ لا يُغْلَبُ، فمَنْ تمَسَّك بالاعتمادِ عليه نصَره، وهو حكيمٌ يُكوِّنُ أسبابَ النَّصرِ مِن حيثُ يجهَلُها البشرُ⁽¹⁾، قال الله تعالى:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: ومَن يُفَوِّضْ أمْرَه إلى اللهِ، ويعتَمِدْ عليه، ويَثِقْ به؛ فإنَّ اللهَ يُعِزُّه ويحفَظُه وينصُرُه؛ لأنَّ الله عزيزٌ، لا يَغلبُه ولا يقهَرُه شيءٌ، حكيمٌ في تدبيره، فلا يدخُلُه خلَلٌ، ويضَعُ كلَّ شَيءٍ مَوضِعَه اللَّائِقَ به، فينصُرُ مَن يستحِقُّ النَّصرَ، ويعذِّبُ مَن يستحِقُّ العذابَ⁽²⁾.

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

الفَوائد التربويَّة:

١ - مَبدأُ الاعتقادِ الباطِلِ، والإرادةِ الفاسِدةِ: مِن لَمَّةِ⁽³⁾ الشَّيطانِ؛ قال الله

= النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٠٣، ١٠٤، ١٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٩)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٠٨).

(٣) قال ابنُ تيميةَ: (ولَمَّةُ الشَّيطانِ هو تكذيبٌ بالحقِّ وإيعادٌ بالشَّرِّ، وهو ما كان مِنْ جنسِ إرادةِ الشَّرِّ، وظَنٍّ وجودِه: إمَّا معَ رجائِه إنْ كان معَ هوَى نفسٍ، وإمَّا معَ خوفِه إنْ كان غيرَ محبوبٍ لها). ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٣٣).

تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾(١).

٢- مِن كَيدِ الشَّيطانِ للإنسانِ: أنَّه يُورِدُه المواردَ التي يُخَيِّلُ إليه أنَّ فيها مَنفَعتَه، ثم يُصدِرُه المصادِرَ التي فيها عطَبُه، ويتخلَّى عنه ويُسْلِمُه، ويقِفُ يَشمَتُ به، ويضحَكُ منه؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾(٢).

٣- في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ دَلالةٌ على أنَّ النصرَ إنَّما يكونُ بالتوكُّلِ على اللهِ سُبحانه، لا بالكثرةِ ولا بالعُدَدِ؛ فاللهُ عزيزٌ لا يُغالَبُ، حكيمٌ ينصرُ مَن يستحقُّ النصرَ - وإنْ كان ضعيفًا - فعزَّتُه وحكمتُه أوجبَت نَصرَ الفئةِ المتوكِّلةِ عليه(٣).

٤- مَن يُسلِّمْ أمرَه إلى اللهِ ويَثِقْ بفَضلِه، ويُعَوِّلْ على إحسانِه؛ فإنَّ اللهَ حافِظُه وناصِرُه؛ لأنَّه عزيزٌ لا يَغلِبُه شَيءٌ، حكيمٌ يُوصِلُ العذابَ إلى أعدائِه، والرَّحمةَ والثَّوابَ إلى أوليائِه؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٤).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٣).

﴿الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ دلالةٌ على أنَّ الشَّيطانَ يَعِدُ أولياءَه ويُمَنِّيهم، وقال تعالَى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾⁽¹⁾ [النساء: ١٢٠].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ﴾ دلالةٌ على أنَّ الجنَّ يتصوَّرونَ في صُورِ الإنسِ وغَيرِهم⁽٢⁾، وهذا على القولِ بأنَّ إبليسَ تصوَّر لهم.

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ دلالةٌ على أنَّ الشَّياطينَ إذا رأت ملائكةَ اللهِ- التي يُؤَيِّدُ بها عبادَه- هربتْ منهم⁽٣⁾.

٤- في قَولِه تعالى مُخبِرًا عن الشَّيطانِ: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ دلالةٌ على أنَّ الجنَّ مشاركونَ للإنسِ في جِنسِ التَّكليفِ بالأمرِ والنَّهيِ والتَّحليلِ والتَّحريم، وأنَّ أهلَ الكُفرِ والفُسوقِ والعِصيانِ منهم، مُستحِقُّونَ لِعَذابِ النَّارِ- كما يدخلُها مِن الآدميِّينَ- فقد أخبَرَ سبحانَه عن الشَّيطانِ أنَّه يخافُ اللهَ، والعقوبةُ إنَّما تكون على تَرْكِ مأمورٍ أو فِعْلِ محظورٍ⁽٤⁾.

٥- في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ... وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ حُجةٌ على المعتزلة والقَدَريّة الذين يجعلون الشَّرَّ مِن الشيطان على الحقيقة بقوةٍ وسلطانٍ له فيه! وقد أنبأ الشيطانُ عن نفسه في هذا الموضع بأنه لا يَقْدِرُ على ضُرِّ أحدٍ ولا نفْعِه؛ وأنَّ تزيينَه غرورٌ؛ وقولَه كذبٌ لا حقيقةٌ⁽٥⁾.

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٢٣٣).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٧٢).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ لم تدخُلِ الواوُ في قولِه: ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ ودخلَت في الآيةِ قَبلَها، وهي قَولُه تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ لأنَّ قَولَه: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ﴾ فيه عطفُ هذا التَّزيينِ على حالِهم وخُروجِهم بطرًا ورِئاءً، وأمَّا هنا وهو قوله: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ فليس فيه عطفٌ لهذا الكلامِ على ما قَبلَه، بل هو كلامٌ مُبتدأٌ مُنقطِعٌ عمَّا قَبلَه⁽¹⁾.

٧- قال الله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ النِّفاقُ أخصُّ مِن مَرَضِ القلبِ؛ لأنَّ مرَضَ القَلبِ مُطلَقٌ على الكافرِ، وعلى من اعتَرَضتْه شُبهةٌ، وعلى مَن بينهما⁽²⁾.

بلاغةُ الآيتين:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

- قوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ خُوطِبَ به النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بطَريقِ تلوينِ الخِطابِ، أي: واذكُر وقتَ تزيينِ الشَّيطانِ أعمالَهم في مُعاداةِ المؤمنين وغيرِها، بأنْ وَسْوَس إليهم⁽³⁾.

- وجملةُ ﴿وَإِذْ زَيَّنَ...﴾ عَطفٌ على جُملةِ: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ...﴾ وما بينهما اعتِراضٌ، رُتِّب نَظمُه على أُسلوبِه العجيبِ؛ ليقعَ هذا الظَّرفُ عقِبَ تلك الجُمل المُعترِضة، فيكونَ له إتمامُ المناسبةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٦).

بحكايةِ خُروجِهم وأحوالِه، وليَقَع قولُه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ عَقِبَ أَمْرِ المسلِمينَ بما يَنْبغي لهم عند اللِّقاءِ؛ ليَجْمعَ لهم بين الأمرِ بما ينبغي، والتَّحذيرِ ممَّا لا يَنبغي، وتَرْكِ التَّشبُّهِ بمَن لا يُرْتضَى؛ فيتمَّ هذا الأسلوبُ البديعُ المُحكَمُ الانتظامِ(١).

- قولُه: ﴿نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ قولُه: ﴿عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ مُؤكِّدٌ لمعنى ﴿نَكَصَ﴾؛ إذ النُّكوصُ لا يكونُ إلَّا على العَقِبينِ(٢).

- قولُه: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ بيانٌ لقولِه: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ أي: أخاف عِقابَ اللهِ فيما رأيتُ من جُنودِ اللهِ(٣).

- وقولُهُ: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ﴾ فيه مُبالغةٌ في الخِذلانِ والانْفِصالِ عنهم؛ حيثُ لم يَكتفِ بالفعلِ حتَّى أكَّد ذلك بالقول(٤).

٢- قَولُه تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

- إسنادُ الغُرورِ إلى الدِّين في قولِهم: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ باعْتِبار ما فيه مِن الوعدِ بالنَّصر(٥).

- وقولُه: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ خِتامٌ حَسَنٌ؛ حيثُ تَضمَّنَ الردَّ على مَن قال: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ فكأنَّه قيل: هؤلاء في لِقاءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٣٨).

عدُوِّهم هم مُتوكِّلون على الله؛ فهم الغالِبونَ، ومَنْ يتوكَّلْ على الله يَنْصُرْه ويُعِزَّه؛ فإنَّ اللهَ عزيزٌ لا يُغالَبُ بقوَّةٍ ولا بكَثْرة، حَكيمٌ يَضَعُ الأشياءَ مواضعَها، أو حاكِم بنَصْرِه مَن يتوكَّلُ عليه، فيُديل القليلَ على الكَثيرِ(١).

- وجُعِلَ قولُه: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ جوابًا للشَّرطِ في ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ باعْتِبارِ لازِمِه، وهو عِزَّةُ المتوكِّلِ على اللهِ تعالى، وإلْفائِه مُنجِيًا مِن مَضيقِ أمْرِه؛ فهو كِنايةٌ عن الجوابِ، وهذا مِن وجوهِ البَيانِ(٢).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٣٩).

الآيات (٥٠-٥٤)

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ (٥٠) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ (٥١) كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ (٥٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ (٥٣) كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ (٥٤)﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿كَدَأۡبِ﴾: الدَّأْبُ: العادةُ المُستمرَّة والشَّأنُ، وأصلُ (دأب): يدلُّ على المُلازَمة والدَّوامِ(١).

المعنى الإجماليُّ:

يَقولُ اللهُ تعالى لِنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ولو عايَنْتَ- يا مُحمَّدُ- حين تنزِعُ الملائكةُ أرواحَ الكفَّارِ من أجسادِهم، وهم يَضرِبونَ وُجوهَ الكُفَّارِ وأدبارَهم، لَرأيتَ أمرًا عظيمًا فظيعًا، ويقولُ لهم الملائكةُ: ذوقوا عذابَ الحَريقِ؛ ذلك بما كسَبَت أيديكم مِن الكُفرِ والمعاصي، وبأنَّ اللهَ لا يظلِمُ أحدًا مِن خَلقِه.

ثمَّ بيَّن تعالى أنَّ عادةَ هؤلاءِ المُشركينَ مِن قُريشٍ في كُفرِهم، كعادةِ قَومِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩).

فِرعونَ والأُممِ المكَذِّبةِ مِن قَبلِهم؛ كَفَروا بآياتِ اللهِ فأهلَكَهم اللهُ بسبَبِ كُفرِهم ومعاصيهم، إنَّه تعالى قويٌّ شديدُ العقابِ، ذلك العذابُ إنَّما وقع عليهم؛ لأنَّهم بدَّلوا نعمةَ الله كُفرًا، فاللهُ تعالى لا يُغيِّرُ نعمةً أنعَمَها على قومٍ إلَّا بسبَبِ تَغييرِهم ما بأنفُسِهم؛ بالوُقوعِ في الكُفرِ، أو ارتكابِ السَّيِّئاتِ. وأنَّ اللهَ سَميعٌ عليمٌ.

ثمَّ ذكَر تعالى أنَّ عادةَ هؤلاء المُشركينَ مِن قُريشٍ، كعادةِ آلِ فِرعونَ والَّذين مِن قَبلِهم؛ كذَّبوا بآياتِ اللهِ لَمَّا جاءَتْهم، فأهلَكَهم اللهُ بذُنوبِهم، وأغرَقَ آلَ فِرعونَ، وكُلُّ الذينَ أهلَكَهم اللهُ مِن السَّابقينَ، ومِن كفَّارِ قُريشٍ، كانوا ظالِمينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (٥٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لمَّا قال سبحانَه قبلَ ذلك بإجمالٍ: ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾؛ بيَّن بعدَ ذلك بعضَ ما يتضمَّنُه هذا الإجمالُ مِن عقابِ الكفارِ(١)، فقال تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾.

أي: ولو عايَنْتَ- يا مُحمَّدُ(٢)- حينَ تَنزِعُ الملائكةُ أرواحَ الكُفَّارِ مِن أجسادِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٣١).

(٢) ممَّن اختار أنَّ الخِطابَ في الآيةِ مُوجَّهٌ إلى محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١١١).

وقال ابنُ عاشور: (ابتُدِئَ الخبرُ بـ ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ مُخاطبًا به غيرُ مُعَيَّنٍ، ليعُمَّ كلَّ مُخاطبٍ، أي: لو ترَى أيُّها السامع؛ إذ ليس المقصودُ بهذا الخبرِ خُصوصَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتى يُحمَلَ الخطابُ على ظاهِرِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٠).

وهُم يَضرِبونَ وجوهَهم وأستاهَهم(١)؛ لَرَأيتَ أمرًا عَظيمًا فَظيعًا(٢)!

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقال سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧].

﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

أي: ويقولُ الملائكةُ للكفَّارِ: ذُوقوا عذابَ النَّارِ التي تَحرِقُكم(٣).

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ (٥١)﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾.

---

(١) الأستاهُ: جمع استٍ: وهو العَجُزُ، وقد يُرادُ به حَلقةُ الدُّبُرِ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١١١).

قال ابن كثير: (هذا السِّياقُ- وإن كان سببُه وقعةَ بَدرٍ- ولكنَّه عامٌّ في حقِّ كلِّ كافرٍ؛ ولهذا لم يخصُصْه تعالى بأهلِ بدرٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٧).

واختار ابنُ جريرٍ أنَّ قولَ الملائكةِ هذا للمشركينَ الذين قُتِلوا ببَدرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١١٣).

قال الشنقيطي: (قال بعضُ العلماء: ذَوْقُ عذابِ الحريقِ عند الاحتضارِ؛ لأنَّ المقامِعَ التي يضربونَهم بها تلتهِبُ عليهم نارًا، وقال بعضُ العلماء: يُبشِّرونَهم بالحريقِ يومَ القيامةِ، ولا مانِعَ مِن وقوعِ الكُلِّ). ((العذب النمير)) (٥/ ١١٤). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٢)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢١٧).

أي: ويقولُ الملائكةُ للكفَّارِ حين يَضرِبونَهم⁽¹⁾: هذا الجزاءُ بسبَبِ ما عَمِلتُم من الكُفرِ والمعاصي في حياتِكم الدُّنيا، جازاكم اللهُ بها هذا الجزاءَ⁽²⁾.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

أي: وأنَّ اللهَ لا يَظلِمُ أحدًا مِن خَلقِه؛ فقد أرسَلَ إليهم رُسُلَه، وأنزَلَ عليهم كُتُبَه، وأقام عليهم الحجَّةَ⁽³⁾.

عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما روى عن اللهِ تبارك وتعالى، أنَّه قال: ((يا عبادِي، إنِّي حرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي، وجعلتُهُ بينكم مُحرَّمًا، فلا تظَالَموا))⁽⁴⁾.

---

(١) ممَّن ذهب إلى أنَّ هذا مِن قَولِ الملائكةِ: ابنُ جريرٍ، والشِّنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١١٦).

وقال ابنُ عطية: (قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ يحتمِلُ أن يكونَ مِن قَولِ الملائكةِ في وقتِ توفِّيَتِهم لهم على الصُّورةِ المذكورةِ، ويحتمِلُ أن يكونَ كلامًا مُستأنَفًا؛ تقريعًا مِن الله عزَّ وجلَّ للكافرينَ حيِّهم ومَيِّتِهم). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣١، ٢٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣).

وقال الشنقيطي: (المراد ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ ما كَسَبتُم من المعاصي والكُفرِ، سواءٌ كان الذي اجترَمَته القلوبُ، أو الألسنةُ، أو الأيدي). ((العذب النمير)) (٥/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٣).

ذهب ابنُ جرير إلى أنَّ هذه الجملةَ تُعَدُّ سببًا ثانيًا لِذَوقِهم عذابَ الحريقِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٢)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٣).

وقال الواحدي: (الصَّحيحُ أنَّ قولَه: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ ابتداءُ كلامٍ لا يعودُ معناه إلى ما قَبلَه مِن قَولِه: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾؛ لأنَّ قَولَه: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ ليس بتعليلٍ للعذابِ ولا موجِبٍ له؛ لأنَّ معناه: نَفيُ الظُّلمِ، وإيجابُ الحُكمِ بالعدل، لا أنَّه سببُ تَعذيبِهم، فقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ سبَبٌ أوجبَ الحُكمَ بالتَّعذيبِ، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ نعتٌ لهذا الحُكمِ أنَّه عَدلٌ، وأنَّه ليس بجَورٍ). ((البسيط)) (١٠/ ١٩٩).

(٤) رواه مسلم (٢٥٧٧).

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى ما أنزَلَه بأهلِ بَدرٍ مِن الكُفَّارِ؛ أتبَعَه بأنْ بيَّنَ أنَّ هذه طريقَتُه وسُنَّتُه ودَأْبُه في الكُلِّ(١)، فقال:

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أي: عادةُ وصَنيعُ هؤلاءِ المُشرِكينَ مِن قُرَيشٍ في كُفرِهم وتكذيبِهم، كعادةِ وصَنيعِ قَومِ فِرعونَ والأُمَمِ المُكذِّبةِ برُسُلِ اللهِ(٢) مِن قَبلِهم(٣).

ثمَّ فسَّرَ تعالى دأْبَ آلِ فِرعونَ ومَن قَبلَهم، وبيَّن عادَتَهم، فقال(٤):

﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾.

أي: جحَد الكفَّارُ الأوَّلونَ آياتِ اللهِ التي أنزَلَها على رُسُلِه، والمُعجزاتِ التي

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٥).

(٢) قال ابنُ عطيةَ: (ويحتملُ أن يكونَ المرادُ كعادةِ الله فيهم، فأضاف العادةَ إليهم؛ إذ لهم نسبةٌ إليها، يضافُ المصدرُ إلى الفاعلِ وإلى المفعولِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٠).
قال ابنُ كثيرٍ: (فعَل هؤلاءِ المشركونَ المكذِّبونَ بما أُرسِلتَ به يا محمدُ، كما فَعَل الأُمَمُ المكذِّبةُ قبلَهم، ففعَلْنا بهم ما هو دَأْبنا، أي: عادتُنا وسُنَّتُنا في أمثالِهم مِن المكذِّبينَ مِن آلِ فرعونَ ومَن قبلَهم مِنَ الأُمَمِ المكذِّبةِ بالرُّسلِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١١٨).
قال الشنقيطي: (لم يبيِّنْ هنا مَن هؤلاء الذين مِن قبلِهم، وما ذنوبُهم التي أخَذهم الله بها، وبيَّن في مواضعَ أُخرَ أنَّ منهم قومَ نوحٍ، وقومَ هودٍ، وقومَ صالحٍ، وقومَ لوطٍ، وقومَ شعيبٍ؛ وأنَّ ذنوبَهم التي أخَذهم بها هي الكفرُ باللهِ، وتكذيبُ الرسل وغيرُ ذلك مِن المعاصي، كعقرِ ثمودَ للناقةِ، وكلواطِ قومِ لوطٍ، وكتطفيفِ قومِ شعيبٍ للمكيالِ والميزانِ، وغيرِ ذلك كما جاء مفصلًا في آياتٍ كثيرةٍ). ((أضواء البيان)) (١/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٢٠).

أَيَّدَهم بها، فعاقَبَهم اللهُ تعالى وأهلَكَهم؛ بسبَبِ كُفرِهم ومعاصيهم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ * وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ * فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٨-٤٠].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يَغلِبُه أحدٌ، ولا يُعجِزُه شيءٌ، شديدُ النَّكالِ لِمَن كفَرَ به، وكذَّب رُسلَه(٢).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

ذكَرَ تعالى هنا في هذه الآيةِ ما يَجري مَجرى العِلَّةِ في العِقابِ، الذي ذكَرَ أنَّه أنزَلَه بهم(٣).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

أي: ذلك العذابُ الذي أهلك اللهُ به كُفَّارَ قُريشٍ ومُشركي الأُمَمِ الماضيةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٦).

إنَّما وقع عليهم لأنَّهم بدَّلُوا نعمةَ اللهِ كُفرًا، واللهُ تعالى لا يُغيِّرُ نعمةً دينيَّةً أو دُنيويَّةً أنعَمَ بها على قومٍ، فيَسْلُبُها منهم، ويُحِلُّ مَحَلَّها النِّقَمَ والعُقوباتِ، إلَّا بِسَببِ تَغييرِهم ما بأنفُسِهم؛ بالوقوعِ في الكُفرِ، أو ارتكابِ السَّيِّئاتِ⁽¹⁾.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١].

وقال جلَّ جَلالُه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل: ١١٢-١١٣].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٢٢، ١٢٤).

قال ابنُ عطيةَ: (ومثالُ هذا: نعمةُ اللهِ على قُريشٍ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكفَروا... فغيَّرَ اللهُ تلك النِّعمةَ بأن نقَلَها إلى غيرِهم من الأنصارِ، وأحَلَّ بهم عُقوبتَه). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤١).

وقال ابنُ تيميةَ: (هذا التَّغييرُ نَوعانِ: أحدهما: أن يبدوَ ذلك، فيبقى قولًا وعملًا يترتَّبُ عليه الذَّمُّ والعقاب. والثاني: أن يُغَيِّروا الإيمانَ الذي في قلوبهم بضِدِّه من الرَّيبِ والشَّك والبُغضِ، ويَعزِموا على تَركِ فِعلِ ما أمَرَ اللهُ به ورسولُه، فيستحقُّونَ العذابَ هنا على تَركِ المأمورِ، وهناك على فِعلِ المحظورِ. وكذلك ما في النَّفسِ ممَّا يُناقِضُ محبَّةَ اللهِ والتوكُّلَ عليه، والإخلاصَ له والشُّكرَ له، يعاقَبُ عليه؛ لأنَّ هذه الأمورَ كلَّها واجبةٌ، فإذا خُلِّيَ القلبُ عنها، واتَّصَفَ بأضدادِها، استحَقَّ العذابَ على تَرْكِ هذه الواجباتِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ١٠٩).

أي: وذلك العذابُ الذي أهلَكَهم اللهُ تعالى به قد وقع عليهم؛ لأنَّ اللهَ سَميعٌ لكلامِ جَميعِ خَلْقِه، عليمٌ بما يُظهِرُونَه ويُسِرُّونه، لا يخفى عليه شيءٌ، فهو يجازيهم بما يستحقُّونَه⁽¹⁾.

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾.

أي: عادةُ وصنيعُ هؤلاءِ المُشركينَ مِن قُريشٍ في كُفرِهم، كعادةِ وصَنيعِ قَومِ فِرعونَ والأُمَمِ المُكذِّبةِ مِن قَبلِهم⁽²⁾.

﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾.

أي: كذَّبوا بآياتِ اللهِ لَمَّا جاءَتْهم، فسُلِبوا تلك النِّعَمَ التي أُسدِيَت إليهم، وأهلكناهم بسبَبِ ذُنوبِهم، وأغرَقْنا قومَ فِرعونَ في البَحرِ⁽³⁾.

كما قال تعالى: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٠٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٠١)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٨).
قال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ يجوزُ أن تكونَ الكافُ مُتعلِّقةً بمَحذوفٍ قَبلَها، كما ذَكَرْنا في الأولى، ويجوزُ أن تتعَلَّقَ بما بَعْدَها، وهو قولُه: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ يعني: أهلُ مكَّةَ كَذَّبوا بآياتِ رَبِّهم، كصَنيعِ آلِ فِرعَونَ في التكذيبِ بما جاء به موسى). ((البسيط)) (١٠/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٦).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ * وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ * كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٣ - ٢٨].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ * كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٦-١٩].

﴿وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾.

أي: كلُّ الذين أهلَكْناهم مِن السَّابقينَ ومِن كُفَّارِ قُريشٍ، كانوا ظالِمينَ لأنفُسِهم بكُفرِهم وتكذيبِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- مِن عُقوباتِ الذُّنوبِ: أنَّها تُزيلُ النِّعمَ، وتُحِلُّ النِّقَمَ، فما زالت عن العَبدِ نِعمةٌ إلا بذَنبٍ، ولا حَلَّت به نِقمةٌ إلَّا بذَنبٍ؛ قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ فأخبَرَ الله تعالى أنَّه لا يُغيِّرُ نِعَمَه التي أنعَمَ بها على أحدٍ، حتى يكونَ هو الذي يغيِّرُ ما بنَفسِه، فيُغَيِّر طاعةَ اللهِ بمَعصِيَتِه، وشُكرَه بكُفرِه، وأسبابَ رِضاه بأسبابِ سَخَطِه، فإذا غيَّرَ غُيِّرَ عليه؛ جزاءً وفاقًا، وما ربُّك بظلَّامٍ للعبيدِ، فإنْ غيَّرَ المعصيةَ بالطَّاعةِ، غيَّرَ اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٢٧).

عليه العُقوبةَ بالعافيةِ، والذُّلَّ بالعِزِّ(١).

٢- قَولُه تعالى: ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ من جانبٍ يُقَرِّرُ عَدْلَ اللهِ في معاملةِ العِبادِ، فلا يَسلُبُهم نعمةً وهَبَهم إيَّاها إلَّا بعد أن يُغَيِّروا نواياهم، ويُبَدِّلوا سُلوكَهم، ويَقْلِبوا أوضاعَهم، ومن الجانِبِ الآخَرِ يُكَرِّمُ هذا المخلوقَ الإنسانيَّ أكبَرَ تكريمٍ، حين يجعَلُ قَدَرَ اللهِ به يَنفُذُ، ويجري عن طريقِ حَرَكةِ هذا الإنسانِ وعَمَلِه، ويجعَلُ التَّغييرَ القَدَريَّ في حياةِ النَّاسِ مَبنيًّا على التَّغييرِ الواقعيِّ في قُلوبِهم ونواياهم وسُلوكِهم، وعَمَلِهم وأوضاعِهم التي يَختارونَها لأنفُسِهم، ومن الجانِبِ الثَّالِثِ يُلقِي تبعةً عَظيمةً تُقابِلُ التَّكريمَ العَظيمَ على هذا الكائِنِ، فهو يملِكُ أن يستبقِيَ نِعمةَ اللهِ عليه ويملِكُ أن يُزادَ عليها، إذا هو عَرَف فشَكَر، كما يملِكُ أن يُزيلَ هذه النِّعمةَ عنه، إذا هو أنكرَ وبَطِر، وانحرَفَت نواياه فانحرَفَت خُطاه(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- عَذابُ البَرزَخِ أوَّلُه يومُ القَبضِ والموتِ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ فهذه الإذاقةُ هي في البَرزَخِ، وأوَّلُها حين الوفاةِ(٣).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ يُبيِّنُ أنَّ اللهَ تعالى لا يكِلُ النَّاسَ إلى فلَتاتٍ عابرةٍ، ولا إلى جُزافٍ لا ضابِطَ له، إنَّما هي سُنَّتُه يمضي بها قَدَرُه؛ فما أصاب المشركينَ في

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص:٧٤)، ويُنظر أيضًا: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٧٣).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٥٣٥).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٣).

يوم بَدرٍ، هو ما يصيبُ المُشركينَ في كُلِّ وقتٍ، وقد أصاب آلَ فِرعونَ والَّذين مِن قَبلِهم⁽١⁾.

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ وصفُ النِّعمةِ بِقَولِه: ﴿أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ للتَّذكيرِ بأنَّ أصلَ النِّعمةِ مِن اللهِ⁽٢⁾.

٤- الظَّاهِرُ مِن قَولِه: ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ العمومُ في كلِّ مَن أنعَمَ اللهُ عليه؛ مِن مُسلِمٍ وكافِرٍ، وبَرٍّ وفاجِرٍ، وأنَّه تعالى متى أنعَمَ على أحدٍ فلم يَشكُرْ، بدَّلَه عنها بالنِّقمةِ⁽٣⁾.

٥- في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ دليلٌ على أنَّ اللهَ تعالى قد يَسْلُبُ النِّعَمَ بفِعْلِ المعصيةِ عقوبةً لفاعليها⁽٤⁾.

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ إن قيل: فما كان مِن تَغييرِ آلِ فِرعونَ ومُشركي مكَّةَ، حتى غيَّرَ اللهُ تعالى نِعمَتَه عليهم، ولم تكُن لهم حالٌ مَرضِيَّةٌ فيُغَيِّروها إلى حالٍ مَسخوطةٍ؟!

أُجيبَ: بأنَّه تعالى كما يُغَيِّرُ الحالَ المَرضيَّةَ إلى المسخوطةِ، يُغَيِّرُ الحالَ المسخوطةَ إلى أسخَطَ منها، وأولئك كانوا قبلَ بَعثةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كفرةً، عبَدةَ أوثانٍ، فلمَّا بُعِث إليهم بالآياتِ البيِّناتِ، فكذَّبوه وعادَوْه،

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٥٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٧).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٧٣).

وتحزَّبوا عليه ساعِينَ في إراقةِ دَمِه؛ غَيَّروا حالَهم إلى أسوأَ ممَّا كانت عليه، فغيَّرَ اللهُ تعالى ما أنعَمَ به عليهم من الإمهالِ، وعاجَلَهم بالعذابِ(١).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ لَمَّا أشارَ بالتَّعبيرِ ﴿رَبِّهِمْ﴾ إلى أنَّه غَرَّهم مُعامَلتُه بالعَطفِ والإحسانِ، قال: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ أي: جميعًا ﴿بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا﴾ فأتى بنونِ العَظَمةِ؛ إشارةً إلى أنَّه أتاهم بما أنساهم ذلك البِرَّ، وإشارةً إلى أنَّهم نَسُوا أنَّ الرَّبَّ كما أنَّه يتَّصِفُ بالرَّحمةِ، فلا بدَّ أن يتَّصِفَ بالعَظَمةِ والنِّقمةِ، وإلَّا لم تتِمَّ رُبوبيَّتُه(٢).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ بيَّنَ تعالى أنَّه أهلَكَهم بعد التَّكذيبِ بآياتِه، ولم يُهلِكْهم قَبلَها سُبحانه- مع أنَّهم كانوا كافرينَ- لأنَّ هذه سُنَّتُه ورَحمَتُه ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾(٣) [الإسراء:١٥].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾

- قولُه: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ فيه حذفُ جوابِ (لو) الشَّرطيَّة؛ والحَذفُ بليغٌ في مِثْل هذا؛ لأنَّه يدلُّ على التَّعظيمِ، أي: لرأيتَ أمرًا عجيبًا، وشأنًا هائلًا(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٧٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٥٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٦). =

- وتقديمُ المفعولِ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ على الفاعلِ ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾؛ للاهْتِمامِ به⁽¹⁾.

- قولُه: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ على القَولِ بأنَّ المرادَ بالذين كَفروا: مُشركو يوم بَدْر، وذلك قدْ مضَى؛ فيكونُ أتى بالمضارعِ (ترى- يتوفَّى) في المَوضِعَين مَكانَ الماضي؛ لقَصْدِ اسْتِحضارِ تِلك الحالةِ العجيبةِ، وهي حالةُ ضَرْبِ الوجوهِ والأدبارِ؛ ليُخيَّلَ للسامعِ أنَّه يُشاهِد تِلكَ الحالة⁽²⁾.

- وذِكرُ الوجوهِ والأدبارِ في قولِه: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾؛ للتَّعميمِ، أي: يَضربونَ جَميعَ أجسادِهم، كقَولِ العربِ: ضَربتُه الظهرَ والبطنَ؛ كِنايةً عمَّا أقبلَ وما أدبرَ، أي: ضربتُه في جميعِ جَسدِه⁽³⁾، أوْ خَصُّوهما بالضَّربِ؛ لأنَّ الخِزيَ والنَّكالَ في ضَربِهما أشدُّ⁽⁴⁾.

- وقَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ فيه يتحوَّلُ السِّياقُ من صيغةِ الخَبَرِ إلى صيغةِ الخِطابِ: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾؛ لِيَرِدَ المشهدُ حاضِرًا، كأنَّه اللحظةَ مَشهودٌ، وكأنَّما جهنَّمُ بنارِها وحريقِها في المشهَدِ، وهم يُدفَعونَ إليها دَفعًا مع التَّأنيبِ والتَّهديدِ⁽⁵⁾.

٢- ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

= والقاعدةُ: أنَّ حذفَ جوابِ الشرطِ يدلُّ على تعظيمِ الأمرِ وشدتِه في مقاماتِ الوعيدِ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (١/ ٣٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٢٩).

(٥) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٥٣٤).

– جملةُ: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ مُستأنفةٌ؛ لقَصدِ التَّنكيلِ والتشفِّي، وجِيءَ بإشارةِ البَعيد ﴿ذَلِكَ﴾؛ لتعظيمِ ما يُشاهِدونَه مِن الأهوالِ(١).

– وعبَّرَ بالأيدي دونَ غَيرِها في قَولِه تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾؛ لأنَّ أكثَرَ الأفعالِ تُزاوَلُ بها(٢).

– وجملةُ: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ، مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قَبْلها(٣)، على أحدِ الأوجهِ في الآيةِ.

– ونفيُ الظَّلَّاميةِ في قولِه تعالى: ﴿لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ لا يُفيدُ إثباتَ ظُلمٍ غيرِ قويٍّ؛ فصِياغَتُه بصِيغةِ الكثرةِ باعتبارِ تعلُّق الظُّلمِ المنفيِّ- لو قُدِّرَ ثبوتُه- بالعبيدِ الكثيرينَ، وعبَّرَ بالمبالغةِ عن كَثرةِ أعدادِ الظُّلمِ باعتبارِ تعدُّدِ أفرادِ معمولِه(٤)، وقيل: لأنَّ العذابَ مِن العِظَمِ بحيث لولا الاستحقاقُ لكان المعذِّبُ بمثلِه ظلَّامًا بليغَ الظُّلمِ، فنفَى المبالغةَ بهذا الاعتبارِ، ومعناها نفيُ الفعلِ مِن أصلِه(٥)، وقيل: إنَّه نفَى الظُّلمَ الكثيرَ؛ لِينتفيَ القليلُ ضرورةً؛ لأنَّ الَّذي يظلمُ، إنَّما يظلمُ لانتفاعِه بالظُّلمِ، فإذا ترَكَ الكثيرَ معَ زيادةِ نفعِه، فلأَنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٢).
وقيل: إنَّ (ظَلَّام) هنا لا تصِحُّ للمُبالغةِ التي تدلُّ على الكثرةِ، إنَّما المرادُ بها النِّسبةُ، وهي تشمَلُ الكثرةَ والقِلَّةَ؛ وذلك لأنَّه لو قيل: إنَّ المرادَ بذلك صيغةُ المبالغةِ، لكان المنفيُّ كَثرةَ الظُّلمِ، مع أنَّ اللهَ تعالى لا يَظلِمُ مِثقالَ ذَرَّةٍ، وعلى ذلك فمَعنى قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي: ليس بذِي ظُلمٍ، كما نقولُ: فلانٌ ليس نجَّارًا، يعني: ليس بذِي نِجارةٍ، أي: ليس منسوبًا للنَّجَّارِينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (ص: ٤٩٧).
وحكَى ابنُ مالكٍ هذا الوجهَ عَنِ المُحَقِّقينَ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٢٩)، قال الشنقيطيُّ: (وهذا الوجهُ حسنٌ جدًّا، إلا أنَّ فيه دقةً). ((العذب النمير)) (٥/ ١١٧).

يترُكَ القليلَ أولَى، وقيل: لأنَّ أقلَّ القليلِ لو وَرَد منه تعالَى لكانَ كثيرًا، وقيل: إنَّه قَصَد التَّعريضَ بأنَّ ثمَّ ظَلَّامًا للعبيدِ من ولاةِ الجورِ، وقِيل غيرُ ذلك(١).

٣- قَولُه تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

- جُملةُ ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ...﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبيانِ أنَّ ما حلَّ بهم من العذابِ بسَببِ كُفْرِهم، لا بشيءٍ آخَرَ من جِهةِ غيرِهم؛ بتشبيهِ حالِهم بحالِ المعروفينَ بالإهلاكِ بسببِ جَرائمِهم؛ لزيادةِ تَقبيحِ حالِهم، وللتَّنبيهِ على أنَّ ذلك سُنَّةٌ مُطَّرِدَةٌ فيما بَينَ الأُممِ المُهلَكةِ(٢).

- وإنَّما خُصَّ آلُ فِرعونَ بالذِّكرِ، وذُكِر الذي أُهلِكوا به، وهو إغراقُهم؛ لأنَّه انضمَّ إلى كُفرِهم دَعْوَى الإلهيَّةِ والرُّبوبيَّة لغيرِ الله تعالى؛ فكان ذلك أشنعَ الكُفرِ وأفظعَه(٣).

- وقولُه: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ اعتراضٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قَبْلَه من الأخْذ، وتكملةٌ له(٤)، مع ما فيه من تأكيدِ الخَبَرِ بـ(إنَّ) واسميَّةِ الجملةِ.

٤- قَولُه تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً...﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتَعليلِ ما يُفيدُ النَّظمُ الكريمُ مِن كونِ ما حلَّ بهم من العذابِ منوطًا بأعمالِهم السيِّئةِ، غيرَ واقعٍ بلا سابقةٍ(٥).

---

(١) يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٤).

- ونفيُ الكونِ بصيغةِ المضارعِ في قولِه: ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً﴾ يقتضي تجدُّدَ النفيِ ومَنفيِّه⁽¹⁾.

- وقَولُه: ﴿لَمْ يَكُ﴾ حُذِفَت نون (يكن) إرشادًا إلى أنَّ هذه الموعظةَ خليقةٌ بأن يُوجَزَ بها غايةَ الإيجازِ، فيُبادَرَ إلى إلقائِها لِمَا في حسنِ تلقِّيها من عظيمِ المنفعةِ؛ لأنَّ منَ خالَفَها جديرٌ بتعجيلِ الانتقامِ⁽²⁾.

٥- قَولُه تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ...﴾ تكريرٌ لقولِه: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ...﴾ المذكورِ قَبْلَه؛ لقَصدِ التَّأكيدِ والتَّسميعِ، وهو تَقريرٌ؛ للإنذارِ والتَّهديد، وخُولِفَ بين الجُملتين تفنُّنًا في الأسلوبِ، وزيادةً للفائدةِ بِذِكرِ التَّكذيبِ هنا بعدَ ذِكرِ الكُفرِ هناك، وهُما سببانِ للأخذِ والإهلاكِ⁽³⁾. ومِن وجوهِ تكريرِه أيضًا: أنَّ الثانيَ جرَى مَجرَى التَّفصيلِ للأوَّلِ؛ لأنَّ في ذلك ذِكرَ إجرامِهم، وفي هذا ذِكرَ إغراقِهم، وأُريدَ بالأوَّلِ ما نزَلَ بهم من العُقوبةِ حالَ الموتِ، وبالثَّاني ما نزَل بهم من العذابِ في الآخِرةِ، وفي الأوَّلِ: ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى إنكارِ دَلائلِ الإلهيَّةِ، وفي الثَّاني: ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ إشارةٌ إلى إنكار نِعَمِ مَن رَبَّاهم، ودلائلِ تربيتِه وإحسانِه على كَثْرتِها وتواليها، وفي الأوَّل: اللازِمُ منه الأخذُ، وفي الثَّاني: اللازمُ منه الهلاكُ والإغراقُ⁽⁴⁾.

---

(1) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٥).

(2) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٠٥).

(3) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٦).

(4) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٨).

وقيل: قولُه في الآيةِ الأُولَى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ قد قالَ قبلَه: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا =

- في قولِه: ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ زيادةُ دَلالةٍ على كُفرانِ النِّعمِ، وجُحودِ الحقِّ⁽١⁾.

- وذِكرُ وصفِ الربوبيَّةِ دون الاسمِ العَلَمِ في قولِه: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾؛ لزيادةِ تَفظيعِ تكذيبِهم؛ لأنَّ الاجتراءَ على اللهِ مع مُلاحظةِ كَونِه ربًّا للمُجترِئِ يَزيدُ جَراءتَه قُبحًا؛ لإشعارِه بأنَّها جَراءةٌ في موضعِ الشُّكرِ؛ لأنَّ الرَّبَّ يَستحِقُّ الشُّكرَ⁽٢⁾.

- قَولُه تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ عُبِّرَ بالإهلاكِ عِوَضَ الأخذِ المتَقَدِّمِ ذِكرُه؛ ليُفَسِّرَ الأخذُ بأنَّه آلَ إلى الإهلاكِ، وزِيدَ الإهلاكُ بيانًا بالنِّسبةِ إلى آلِ فِرعونَ بأنَّه إهلاكُ الغَرَقِ⁽٣⁾.

- قَولُه تعالى: ﴿وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ جُمِعَ الضَّميرُ في: (كانُوا)، وجُمِعَ: (ظالِمينَ) مراعاةً لمعنى (كُل)؛ لأنَّ (كُلًّا) متى قُطِعَت عن الإضافةِ جاز مراعاةُ لَفظِها تارةً، ومعناها أخرى. وإنما اختيرَ هنا مراعاةُ المعنى؛ لأجلِ الفَواصِلِ، ولو رُوعِيَ اللَّفظُ فقيل مثلًا (وكلٌّ كان ظالِمًا)، لم تتَّفِقِ الفَواصِلُ⁽٤⁾.

= الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فذكَر في الآيةِ الأُولَى تمثيلًا لعذابِهم بعدَ الموتِ فقالَ: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ فإنَّ أخذَه يتضمَّنُ أخذَهم ليَصِلوا بعدَ الموتِ إلى العذابِ.

أمَّا في الآيةِ الثانيةِ فقد قال قبلَها: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ فذكَر تمثيلًا لزوالِ النِّعمِ عنهم لما كذَّبوا بآياتِه، فقال: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ فقال: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ ولفظُ الهلاكِ يَقتضي هلاكَهم في الدُّنيا، وزَوالَ النِّعمةِ عنهم، وحلولَ النقمةِ بهم. يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ١٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٥٤٥).

الآيات (٥٥-٥٩)

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ
مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي
ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ
خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ (٥٨) وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩)﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿تَثْقَفَنَّهُمْ﴾: أي: تَجِدَنَّهم، وتظفَرَنَّ بهم، وأصلُ (ثقف): يدلُّ على الحِذقِ في إدراكِ الشَّيءِ، وفِعلِه(١).

﴿فَشَرِّدْ بِهِمْ﴾: أي: فنكِّلْ بهم، وافعَلْ بهم فعلًا من العقوبةِ يتفرَّقُ به مَن وراءَهم، وأصلُ (شرد): يدلُّ على تنفيرٍ وإبعادٍ(٢).

﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ﴾: أي: فاطرَحْ إليهم عَهدَهم، وأصلُ (نبذ) يدلُّ على طَرحٍ وإلقاءٍ(٣).

مُشكِلُ الإعراب:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٢٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

في إعرابِ هذه الآيةِ وُجوهٌ؛ بيانُها على النَّحوِ التَّالي:

- أنَّ فاعِلَ ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ هو النبيُّ عليه الصلاةُ والسَّلامُ، و﴿الَّذِينَ﴾ مفعولُ ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ الأوَّلُ.

وجملةُ ﴿سَبَقُوا﴾ في مَحلِّ نَصبٍ، مفعولٌ ثانٍ، فيكون تخريجُها مثلَ قراءةِ التَّاءِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ بِتَوجيهِ الخِطابِ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

- أنَّ الفاعِلَ مُضمَرٌ تقديرُه: (أحَدٌ) أو (حاسِبٌ) أو (مَن خَلفَهم)، و﴿الَّذِينَ﴾ و﴿سَبَقُوا﴾ هما مَفعولَا ﴿تَحْسَبَنَّ﴾ أيضًا.

- أنَّ الفاعِلَ ﴿الَّذِينَ﴾، والمفعولُ الأوَّلُ محذوفٌ، أي: أنفُسَهم، والمفعولُ الثَّاني ﴿سَبَقُوا﴾ والتَّقديرُ: ولا يَحسبَنَّ الذينَ كَفَروا أنفُسَهم سَبَقوا.

قولُه: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ جملة مُستأنفةٌ لا محلَّ لها من الإعرابِ. وقُرِئَ بالفتحِ (أَنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ على حَذْفِ لامِ العِلَّةِ، أي: لأنَّهم لا يُعْجِزون(١).

المعنى الإجماليُّ:

يُبَيِّنُ اللَّه تعالى أنَّ أكثَرَ الدَّوابِّ التي تدبُّ على وجهِ الأرضِ شَرًّا في حكمِه وقضائِه، هم الذينَ كَفَروا، وقد سبَقَ في علمِ الله تعالى أنَّهم لا يُؤمنونَ، الذين أخذَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم العَهدَ عليهم، بأن يُسالِمَهم ويُسالِموه، ثم ينقضونَ عَهدَهم كلمَّا عاهدوه، وهم لا يتَّقونَ، ثمَّ يأمُرُ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي بن أبي طالب (١/ ٣١٨-٣١٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٢٩-٦٣٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٦٢٣-٦٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٤٣-١٤٤).

عليه وسلَّم أن يُنكِّل بهم، ويُعاقِبَهم عقوبةً غليظةً إنْ لاقاهم في الحَربِ؛ حتى يكونَ ذلك عبرةً وتشريدًا لغَيرهم من الأعداءِ، لعلَّهم يذَّكَّرونَ.

أمَّا القومُ الذين بينَه وبَينَهم عهدٌ، ويخافُ أن يَغدِروا به فينقُضوا عَهدَه- وذلك لظهورِ علاماتٍ له تدلُّ على غدرِهم- فيأمره حينئذٍ أن يُلقِيَ إليهم عَهدَهم؛ حتى يكونَ الطَّرفانِ مُستوِيَينِ في العِلمِ أنْ لا عهدَ باقٍ بينهما، فيبرَأ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الغَدرِ بهم، إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَن يَغدِرُ ويخونُ عهده.

ثمَّ قال الله تعالى: لا يظننَّ الذين كَفَروا أنفُسَهم أفلَتُوا من أن يُظفَرَ بهم، وأنَّهم قد فاتُونا بأنفُسِهم فلا نقدِرُ عليهم، إنَّهم لا يُمكِنُهم الإفلاتُ مِن اللهِ تعالى، ولا الهَرَبُ منه؛ فهو قادِرٌ عليهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وصفَ اللهُ تعالى كلَّ الكُفَّارِ بِقَولِه: ﴿وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾؛ أفرَدَ بَعضَهم بمزيَّةٍ في الشَّرِّ والعنادِ(١).

وأيضًا لَمَّا وصَفَهم اللهُ تعالى بالظُّلمِ في الآيةِ السَّابقة، علَّلَ اتِّصافَهم ذلك بأنَّهم كَفَروا بآياتِ رَبِّهم الذي تفرَّدَ بالإحسانِ إليهم(٢)، فقال تعالى:

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

أي: إنَّ أكثَرَ الدَّوابِّ التي تدبُّ على وجهِ الأرضِ شَرًّا عند اللهِ، هم الذين كَفَروا بربِّهم، وتغلغَلَ الكُفرُ في نُفوسِهم، فهم مُستمِرُّونَ على كُفرِهم، قد سبَقَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٠٨).

في علمِ الله تعالى أنَّهم لا يُؤمنونَ(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

ثمَّ ذكَرَ تعالى صفةً أخرى من صفاتِهم(٢)، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ٥٦﴾.

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ﴾.

أي: الَّذين أخذتَ عليهم العَهدَ - يا مُحمَّدُ - وأخَذُوا عليك العَهدَ؛ بأن يُسالِموك وتُسالِمَهم، فلا يحارِبوك ولا تُحارِبَهم، ثمَّ ينقُضونَ عَهدَهم كلَّما عاهَدوك(٣).

﴿وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٣٢).

قال ابنُ عطيةَ: (أجمع المتأوِّلونَ أنَّ الآيةَ نَزَلت في بني قُريظةَ، وهي بعدُ تَعُمُّ كُلَّ مَن اتَّصفَ بهذه الصِّفةِ، إلى يومِ القيامةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٢).

أي وهؤلاءِ الكُفَّارُ الذين ينقُضونَ عَهدَهم، ليست لهم تَقوى مِن الله تعالى تَحمِلُهم على الالتزامِ بفِعلِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهِيه، ولا يخافونَ عند نَقضِهم للعَهدِ في كُلِّ مَرَّةٍ، أن يَحُلَّ بهم عذابُ اللهِ[1].

﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٥٧﴾.

﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ﴾.

أي: فإنْ تلْقَيَنَّ- يا مُحمَّدُ- أولئك الكُفَّارَ، الذينَ ينقُضونَ العَهدَ مَرَّةً بعدَ مَرَّةٍ، وتَظفَرْ بهم في حالِ مُحارَبتِهم، بحيثُ لا يكونُ لهم عهدٌ معك- فنكِّلْ بهم، وعاقِبْهم عقوبةً غليظةً، تكونُ عِبرةً وتشريدًا لِغَيرِهم من الأعداءِ، فيتفَرَّقوا عنك، ويخافوا منك، ولا يجتَرِئُوا عليك بعد ذلك[2].

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٣٣).

قال ابنُ عاشورٍ: (ووقوعُ فِعلِ ﴿يَتَّقُونَ﴾ في حَيِّزِ النَّفيِ، يعُمُّ سائِرَ جِنسِ الاتِّقاءِ، وهو الجِنسُ المُتَعارَف منه، الذي يتهَمَّمُ به أهلُ المُروءاتِ والمُتَدَيِّنونَ، فيعُمُّ اتِّقاءَ اللهِ، وخشيةَ عِقابِه في الدُّنيا والآخرةِ، ويعُمُّ اتِّقاءَ العارِ، واتِّقاءَ الْمَسَبَّةِ، واتِّقاءَ سُوءِ السُّمعةِ، فإنَّ الخَسيسَ بالعَهدِ والغَدْرِ، مِن القبائِحِ عند جميعِ أهلِ الأحلامِ، وعند العَرَبِ أنفُسِهم؛ ولأنَّ مَن عُرِفَ بنَقْضِ العهدِ عَدِمَ مَن يَركَنُ إلى عَهدِه وحِلْفِه، فيبقى في عُزلةٍ مِن النَّاسِ، فهؤلاء الذين نقَضُوا عَهْدَهم، قد غلَبَهم البُغضُ في الدِّينِ، فلم يعبَؤُوا بما يَجُرُّه نقضُ العهدِ مِن الأضرارِ لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٩).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٢)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٠)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٨، ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٣٤).

قال ابن عاشور: (المعنى: فاجعَلْهم مَثَلًا وعِبرةً لغيرِهم من الكفَّارِ، الذينَ يترقَّبونَ ماذا يجتني هؤلاءِ مِن نقضِ عهدِهم، فيفعلونَ مِثلَ فِعْلِهم؛ ولأجلِ هذا الأمرِ نكَّل النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقُرَيظةَ حين حاصَرَهم، ونزلوا على حُكمِ سَعدِ بنِ مُعاذٍ رَضِي اللهُ عنه، فحَكَم بأن تُقتَلَ المقاتِلةُ وتُسبَى الذُّرِّيَّةُ، فقتَلَهم رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالمدينةِ، وكانوا أكثرَ =

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

أي: لعلَّ مَن خَلفَهم مِن الكُفَّارِ الذين يعلمونَ بما فعَلْتَ بناقِضي العَهدِ، يتَّعِظونَ فيَحذَروا مِن نَقضِ ما بينك وبينهم مِن عهدٍ؛ لئلَّا يُصيبَهم ما أصاب غَيرَهم مِن ناقِضي العُهودِ(١).

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ (٥٨)﴾.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾.

أي: وإمَّا تَخافَنَّ- يا مُحمَّدُ- مِن قَومٍ بينك وبينهم عَهدٌ، أن يَغدِروا بك، فينقُضُوا عَهدَهم معك، بما يظهَرُ مِن قرائِنَ تَدُلُّك على ذلك، من غيرِ تَصريحٍ منهم بالخيانةِ(٢)، فاطرَحْ إليهم عَهدَهم عَلَنًا؛ حتى تستويَ أنت وهم في العِلمِ بأنَّه

= مِن ثمانِمئةِ رجلٍ، وقد أمرَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في هذا الأمرِ بالإغلاظِ على العدوِّ؛ لِما في ذلك مِن مصلحةِ إرهابِ أعدائِه؛ فإنَّهم كانوا يَستضعِفونَ المسلمين، فكان في هذا الإغلاظِ على النَّاكثينَ تحريضٌ على عقوبتِهم؛ لأنَّهم استحقُّوها، وفي ذلك رحمةٌ لغيرِهم؛ لأنَّه يصدُّ أمثالَهم عن النَّكثِ، ويكفي المؤمنينَ شرَّ النَّاكثينَ الخائِنينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٣)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٣٤).

(٢) قال ابنُ جرير: (فإن قال قائلٌ: وكيف يجوزُ نقضُ العهدِ بخوفِ الخيانةِ، والخوفُ ظنٌّ لا يقينٌ؟! قيل: إنَّ الأمرَ بخلافِ ما إليه ذهبْتَ، وإنَّما معناه: إذا ظهَرَت آثارُ الخيانةِ مِن عَدُوِّك، وخِفتَ وُقوعَهم بك؛ فألْقِ إليهم مَقاليدَ السَّلْمِ، وآذِنْهم بالحَربِ). ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٩).
وقال الرازي: (قال أهلُ العلم: آثارُ نَقضِ العَهدِ إذا ظهَرَت: فإمَّا أن تظهَرَ ظُهورًا مُحتمَلًا، أو ظهورًا مقطوعًا به؛ فإن كان الأوَّلُ وجب الإعلامُ- على ما هو مذكورٌ في هذه الآيةِ- وذلك لأنَّ قُرَيظةَ عاهدوا النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثم أجابوا أبا سُفيانَ ومَن معه مِن المُشرِكينَ إلى مُظاهَرتِهم على رَسولِ اللهِ، فحصَلَ لرسولِ اللهِ خَوفُ الغَدرِ منهم به وبأصحابِه، فهاهنا يجبُ على الإمامِ أن ينبِذَ إليهم عُهودَهم على سواءٍ، ويُؤذِنَهم بالحربِ. أمَّا إذا ظهَرَ نَقضُ العَهدِ ظهورًا مَقطوعًا به، فهاهنا لا حاجةَ إلى نبذِ العَهدِ، كما فعلَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم =

لا عهدَ بينَك وبينَهم، وأنَّ بعضَكم مُحارِبٌ لبعضٍ، فتبرَأ بذلك من الغَدرِ بهم(١).

عن سُلَيمِ بنِ عامرٍ، قال: ((كان بين مُعاويةَ وبين أهلِ الرُّومِ عَهدٌ، وكان يَسيرُ في بلادِهم، حتى إذا انقضَى العَهدُ أغار عليهم، فإذا رجلٌ على دابَّةٍ أو على فَرسٍ، وهو يقولُ: اللهُ أكبَرُ، وفاءٌ لا غَدرٌ، وإذا هو عَمرُو بنُ عَبَسةَ، فسأله معاويةُ عن ذلك، فقال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقول: مَن كان بينه وبين قَومٍ عهدٌ، فلا يَحُلَّنَّ عهدًا، ولا يَشُدَّنَّه حتى يَمضِيَ أمَدُه، أو ينبِذَ إليهم على سَواءٍ، قال: فرجَعَ معاويةُ بالنَّاسِ))(٢).

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لكُلِّ غادرٍ لِواءٌ يومَ القيامةِ، يُرفَعُ له بِقَدرِ غَدرِه، ألا ولا غادِرَ أعظَمُ غَدرًا مِن أميرِ عامَّةٍ))(٣).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾.

أي: إنَّ الله لا يُحبُّ الذين يَغدِرونَ بمَن عاهَدَهم وأمِنَهم، ويخونونَ في

= بأهلِ مكَّةَ؛ فإنَّهم لَمَّا نقَضُوا العهدَ بِقَتلِ خُزاعةَ- وهم مِن ذِمَّةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- وصل إليهم جيشُ رسولِ اللهِ بمَرِّ الظَّهرانِ، وذلك على أربعةِ فراسِخَ من مكَّةَ. ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٨). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٠٩، ٢١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١، ٣٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٤٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٧٥٩)، والترمذي (١٥٨٠)، والنسائي في ((الكبرى)) (٨٦٧٩)، وأحمد (١٧٠١٥)، وابن حبان في ((الصحيح)) (٤٨٧١).

قال الترمذي: (حسنٌ صحيحٌ). وصححه ابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (١٢٠)، والألباني في ((صحيح الترمذي)) (١٥٨٠).

(٣) رواه مسلم (١٧٣٨).

عُهودِهم وغيرِها(١).

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى ما يفعَلُ الرَّسولُ في حقِّ مَن يَجِدُه في الحَربِ، ويتمَكَّنُ منه، وذكَرَ أيضًا ما يجِبُ أن يفعَلَه فيمَن ظهَرَ منه نقضُ العَهدِ- بيَّنَ هنا حالَ مَن فاتَه في يومِ بَدرٍ وغَيرِه؛ لئلَّا يبقَى حَسرةً في قَلبِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فقد كان فيهم مَن بلَغَ في أذيَّةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مَبلغًا عظيمًا(٢).

وأيضًا لمَّا كان نبذُ العهدِ مَظِنَّةَ الخوفِ مِن تكثيرِ العدوِّ وإيقاظِه، وكان الإيقاعُ أولَى بالخوفِ، أتْبَع سبحانَه ذلك ما يُسلِّي عن فوتِ مَن هرَب مِن الكفَّار في غزوةِ بدر، فلم يُقتَلْ، ولم يُؤْسَرْ(٣)، فقال تعالى:

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ قراءتان:

١- قِراءةُ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ قيل: على معنى: لا يحسبنَّ النبيُّ، أو لا يحسبَنَّ أحدٌ، أو لا يحسبَنَّ الَّذين كَفَروا(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٣٨، ٢٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣١٣).

(٤) قرأ بها حفصٌ وابنُ عامرٍ وحمزةُ وأبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٧).
ويُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٤١، ٤٤٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣١٢)، ((الكشف عن وجوه القراءات السبع)) لمكي بن أبي طالب (١/ ٤٩٣، ٤٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤). =

٢- قِراءةُ ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ﴾ على أنَّ الخطابَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(١)، وقيل: ولا تَحْسِبَنَّ يا سامعُ(٢).

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ﴾.

أي: لا يظُنَّ الذين كَفَروا أنفُسَهم(٣) أفلَتُوا من أن يُظفَرَ بهم، وأنَّهم قد فاتُونا بأنفُسِهم فلا نقدِرُ عليهم(٤).

﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾.

أي: إنَّ الكافرينَ لا يُمكِنُهم الإفلاتُ مِن اللهِ تعالى في الدُّنيا ولا في الآخرةِ، ولا يَقدِرونَ على الهَرَبِ منه؛ فهو قادرٌ عليهم سبحانَه(٥).

كما قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [النور: ٥٧].

= ذكر الشنقيطيُّ أنَّ هذه القراءةَ سبعيةٌ متواترةٌ، لا وجهَ للطعنِ فيها، وذكر أن تفسيرَها مشكلٌ، قال: (لأنَّه لا يُدرَى أين مفعولَا (حَسِب)، ولا يُدرَى الفاعلُ أينَ هو؟! وللعلماءِ فيها أقوالٌ متقاربةٌ لا يُكذِّبُ بعضُها بعضًا). ((العذب النمير)) (٥/ ١٤٥- ١٤٦).

(١) قرأ بها الباقون، وقرأ شعبةُ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٣٦، ٢٧٧). ويُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٤١، ٤٤٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣١٢)، ((الكشف)) لمكي بن أبي طالب (١/ ٤٩٣، ٤٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٦٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية))، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٥)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٤٩).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- إنَّ الإسلامَ يُعاهِدُ لِيَصونَ عَهْدَه، فإذا خاف الخيانةَ مِن غَيرِه نبَذَ العَهدَ القائِمَ جَهرةً وعلانِيةً، ولم يَخُنْ ولم يَغدِرْ، ولم يَغُشَّ ولم يَخدَعْ، وصارح الآخرينَ بأنَّه نفَضَ يدَه مِن عَهدِهم، فليس بينه وبينهم أمانٌ، وبذلك يرتفِعُ الإسلامُ بالبشريَّةِ إلى آفاقٍ مِن الشَّرفِ والاستقامةِ، وإلى آفاقٍ مِن الأمنِ والطُّمأنينةِ، إنَّه لا يُبَيِّتُ الآخرينَ بالهُجومِ الغادِرِ الفاجِرِ، وهم آمِنونَ مطمَئِنُّونَ إلى عهودٍ ومواثيقَ لم تُنقَضْ ولم تُنبَذْ، ولا يُرَوِّعُ الذين لم يأخُذوا حِذْرَهم، حتى وهو يخشى الخيانةَ مِن جانِبِهم، فأمَّا بعد نَبْذِ العَهدِ، فالحَربُ خُدعةٌ؛ لأنَّ كُلَّ خَصمٍ قد أخذ حِذْرَه، فإذا جازَتِ الخُدعةُ عليه، فهو غيرُ مَغدورٍ به، إنَّما هو غافِلٌ! وكُلُّ وسائِلِ الخُدعةِ حينئذٍ مُباحةٌ؛ لأنَّها ليست غادرةً، إنَّ الإسلامَ يريدُ للبَشريَّةِ أن ترتفِعَ، ويريدُ للبشريَّةِ أن تَعِفَّ، فلا يُبيحُ الغَدرَ في سبيلِ الغَلَبِ، وهو يُكافِحُ لأسمى الغاياتِ، وأشرَفِ المقاصِدِ، ولا يَسمَحُ للغايةِ الشَّريفةِ أن تستخدِمَ الوسيلةَ الخَسيسةَ، إنَّ الإسلامَ يَكرَهُ الخيانةَ، ويحتقِرُ الخائنينَ الذين ينقُضونَ العُهودَ، ومن ثمَّ لا يُحِبُّ للمُسلِمينَ أن يخونوا أمانةَ العَهدِ في سبيلِ غايةٍ، مهما تكُنْ شريفةً؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ﴾(١).

٢- الإسلامُ لا يبيحُ لأهلِه الخيانةَ مطلقًا؛ فالخيانةُ مبغوضةٌ عندَ الله بجميعِ صُورِها ومظاهرِها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ﴾(٢).

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٥٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٥).

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وصَفَهم بشَرِّ الدَّوابِّ؛ لأنَّ دَعوةَ الإسلامِ أظهَرُ مِن دَعوةِ الأديانِ السَّابقةِ، ومُعجزةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أسطَعُ، ولأنَّ الدَّلالةَ على أحقيَّةِ الإسلامِ دَلالةٌ عَقليَّةٌ بيِّنةٌ، فمن يَجحَدْه فهو أشبَهُ بما لا عَقلَ له(١)، ولإفادةِ أنَّهم ليسوا من شرارِ البَشَرِ فقط، بل هم أضَلُّ مِن عَجْماواتِ الدَّوابِّ؛ لأنَّ فيها منافِعَ للنَّاسِ، وهؤلاء لا خَيرَ فيهم، ولا نَفْعَ لِغَيرِهم منهم، فإنَّهم لشِدَّةِ تعصُّبِهم لجِنْسِهم قد صاروا أعداءً لِسائِرِ البَشَرِ(٢).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فائدةُ قَولِه: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بعد ذِكرِ ما قَبلَه: أنْ يُبيِّنَ أنَّ شَرَّ الدوابِّ هم الذين كَفَروا، واستمَرُّوا على كُفرِهم إلى وقتِ مَوتِهم(٣).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ * فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ دلَّ تقييدُ هذه العُقوبةِ ﴿فِي الْحَرْبِ﴾ على أنَّ الكافِرَ- ولو كان كثيرَ الخيانةِ سَريعَ الغَدرِ- أنَّه إذا أُعطِيَ عَهدًا لا يجوزُ خيانَتُه وعُقوبتُه(٤).

٤- قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ إنَّما قال: ﴿يَنقُضُونَ﴾ بفِعلِ الاستقبالِ، مع أنَّهم كانوا قد نَقَضوه قبلَ نُزولِ الآيةِ؛ لإفادةِ استمرارِهم على ذلك، وأنَّه لم يكُنْ هَفوةً رَجَعوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤).

عنها، ونَدِموا عليها، بل أنَّهم ينقُضونَه في كلِّ مَرَّةٍ، وإن تكَرَّر(١).

٥- الذين جَمَعوا هذه الخِصالَ الثَّلاثَ: الكُفرَ، وعدمَ الإيمانِ، والخيانةَ؛ هم شَرُّ الدوابِّ عند اللهِ، فهم شَرٌّ مِن الحَميرِ والكلابِ وغَيرِها؛ لأنَّ الخيرَ مَعدومٌ منهم، والشَّرَّ مُتوقَّعٌ فيهم؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾(٢).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ إنَّه لَتعبيرٌ عَجيبٌ، يرسُمُ صُورةً للأخذِ المُفزِعِ، والهَولِ المُرعِبِ، الذي يكفي السَّماعُ به للهَرَبِ والشُّرودِ، فما بالُ مَن يحُلُّ به هذا العَذابُ الرَّعيبُ؟ إنَّها الضربةُ المُروِّعةُ، يأمُرُ الله تعالى رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يأخُذَ بها هؤلاء الذين مَرَدُوا على نقضِ العَهدِ، وانطلَقُوا من ضوابِطِ الإنسانِ؛ لِيُؤَمِّنَ المعسكَرَ الإسلاميَّ أوَّلًا، ولِيُدَمِّرَ هَيبةَ الخارجينَ عليه أخيرًا، ولِيَمنعَ كائنًا من كان أن يَجرؤَ على التَّفكيرِ في الوقوفِ في وجه المدِّ الإسلاميِّ مِن قَريبٍ أو من بعيدٍ، إنَّها طبيعةُ هذا المنهجِ، التي يجِبُ أن تستقِرَّ صُورتُها في قلوبِ العُصبةِ المسلمةِ، إنَّ هذا الدِّينَ لا بدَّ له من هَيبةٍ، ولا بُدَّ له من قوَّةٍ، ولا بدَّ له مِن سَطوةٍ(٣).

٧- قال الله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ﴾ ولا تُخالِفُ هذه الشدَّةُ كَونَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُرسِلَ رحمةً للعَالِمينَ؛ لأنَّ المرادَ أنَّه رَحمةٌ لِعُمومِ العالَمينَ، وإن كان ذلك لا يخلو مِن شِدَّةٍ على قليلٍ منهم، كقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾(٤) [البقرة: ١٧٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٥٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٠).

٨- مِن فَوائِدِ العُقوباتِ والحدودِ المرتَّبةِ على المعاصي، أنَّها سبَبٌ لازدجارِ مَن لم يعمَلِ المعاصيَ، بل وسببُ زجرٍ لِمَن عَمِلَها ألَّا يُعاوِدَها؛ قال الله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾(١).

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ رتَّبَ نبْذَ العَهدِ على خوفِ الخيانةِ دونَ وُقوعِها؛ لأنَّ شُؤونَ المُعامَلاتِ السياسيَّةِ والحربيَّةِ تجري على حسَبِ الظُّنونِ ومخايِلِ الأحوالِ، ولا يُنتظَرُ تحقُّقُ وُقوعِ الأمرِ المَظنونِ؛ لأنَّه إذا تريَّثَ وُلاةُ الأمورِ في ذلك يكونونَ قد عرَّضُوا الأمَّةَ للخَطَرِ، أو للتَّورُّطِ في غَفلةٍ وضياعِ مصلحةٍ، ولا تُدارُ سِياسةُ الأمَّةِ بما يُدارُ به القَضاءُ في الحُقوقِ؛ لأنَّ الحُقوقَ إذا فاتَتْ كانت بَلِيَّتُها على واحدٍ، وأمكَنَ تدارُكُ فائتِها، ومصالِحُ الأمَّةِ إذا فاتت تمكَّنَ منها عَدُوُّها؛ فلذلك علَّقَ نبْذَ العَهدِ بتوقُّعِ خِيانةِ المُعاهَدينَ مِن الأعداءِ(٢).

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ فيه إباحةُ نَبذِ العَهدِ لِمَن تُوُقِّعَ منهم غائلةُ مَكرٍ، وأنْ يُعلِمَهم بذلك؛ لئلَّا يُشَنِّعوا بنَصبِ الحَربِ مع العَهدِ(٣).

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ يَدلُّ على أنَّه إذا وُجِدَت الخيانةُ المُحقَّقةُ منهم، لم يُحتَجْ أن يُنبَذَ إليهم عَهدُهم؛ لأنَّه لم يُخَفْ منهم، بل عُلِمَ ذلك، ولِعَدمِ الفائدةِ، ولِقَولِه: ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ وهنا قد كان معلومًا عند الجميعِ غَدرُهم(٤).

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤).

دلَّ مفهومُه أيضًا على أنَّه إذا لم يُخَفْ منهم خيانةٌ- بأن لم يُوجَدْ منهم ما يدُلُّ على ذلك- أنَّه لا يجوزُ نَبذُ العهدِ إليهم، بل يجِبُ الوفاءُ إلى أن تتِمَّ مُدَّتُه(١).

بلاغةُ الآيات:

١- ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

– قولُه: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، انتَقَل به مِن الكلامِ على عُمومِ المشركينَ إلى ذِكرِ كُفَّارٍ آخَرينَ، هم الذين بيَّنهم بقولِه: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾(٢).

– قولُه: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فيه تَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿فَهُمْ﴾ على الخَبرِ الفِعلي المنفيِّ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مع عَدمِ إيلاءِ المسنَدِ إليه حرْفَ النَّفي؛ لقَصْدِ إفادةِ تقويةِ نفْيِ الإيمان عنهم، أي: الذين يَنْتفي الإيمانُ عنهُم في المستقبلِ انتفاءً قويًّا؛ فهم بُعداءُ عنه أشدَّ الابتعادِ(٣).

٢- قَولُه تعالى: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾

– قولُه: ﴿ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾ فيه التعبيرُ بِصيغةِ الاستِقبالِ (المضارِع) ﴿يَنْقُضُونَ﴾؛ تَنبيهًا على أنَّ مِن شأنهم نَقضَ العهدِ مَرَّةً بعدَ مرَّة، وفيه دَلالةٌ على تجدُّدِ النَّقضِ وتعدُّدِه، وكونِهم على نِيَّته في كلِّ حالٍ، أي: يَنْقُضون عَهْدَهم الذي أخَذْته منهم؛ فهو تعريضٌ بالتأييسِ من وَفائِهم بعَهْدِهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٨).

٣- قَولُه تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ فيه مَجيءُ الشَّرطِ بحرْفِ (إنْ) وبعدها (ما)؛ لإفادةِ تأكيدِ وقوعِ الشَّرطِ؛ وبذلك تَنسلِخُ (إنْ) عن الإشعارِ بعدَمِ الجَزمِ بوقوعِ الشَّرطِ، وزِيدَ التأكيدُ باجتلابِ نُونِ التوكيدِ في ﴿تَثْقَفَنَّهُمْ﴾(١).

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾

- في هذه الآيةِ ما يُعرَفُ بالإشارةِ(٢)، وبعضُهم يُدرِجُه في بابِ الإيجازِ؛ لأنَّه مُتفرِّعٌ عنه، فقولُه تعالى: ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ يشيرُ إلى الأمرِ بالمقاتلةِ بنَبذِ العَهدِ، كما نبَذُوا عَهْدَك، مع ما يدُلُّ عليه الأمرُ بالمساواةِ في الفِعلِ مِنَ العَدلِ، فإذا أضفْتَ إلى ذلك ما تشيرُ إليه كَلِمةُ ﴿خِيَانَةً﴾ مِن وُجودِ مُعاهدةٍ سابِقةٍ؛ تَبيَّنَ لك ما انطَوَت عليه هذه الإشاراتُ الخفيَّةُ من دَلالاتٍ كأنَّها أخذةُ السِّحرِ(٣).

- قولُه: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ﴾ فيه مَجيءُ ﴿قَوْمٍ﴾ نكِرةً في سِياق الشَّرطِ؛ لإفادةِ العُمومِ، أي: كلُّ قومٍ تَخافُ مِنهم خيانةً(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٤٩).

(٢) هو أن يكونَ اللَّفظُ القَليلُ دالًّا على المعنى الكثيرِ، حتى تكونَ دَلالةُ اللَّفظِ على المعنى كالإشارةِ باليَدِ، فإنَّها تُشيرُ بحركةٍ واحدةٍ إلى أشياءَ كثيرةٍ، لو عُبِّرَ عنها بأسمائِها احتاجَت إلى عبارةٍ طويلةٍ وألفاظٍ كثيرةٍ. والفَرقُ بينه وبين الإيجازِ: أنَّ الإيجازَ بألفاظِ المعنى الموضوعةِ له، وألفاظُ الإشارةِ لَمحةٌ دالَّةٌ؛ فدَلالةُ اللَّفظِ على الإيجازِ دَلالةُ مُطابَقةٍ، ودَلالةُ اللَّفظِ في الإشارةِ إمَّا دَلالةُ تَضمينٍ، أو دَلالةُ التزامٍ. يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٤/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيان)) لمحيي الدين درويش (٤/ ٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥١).

- قولُه: ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ وصْفُ النَّبذِ أو النابذِ بأنَّه على سواءٍ تمثيلٌ بحالِ الماشي على طَريقٍ جادَّةٍ، لا التواءَ فيها؛ فلا مُخاتَلةَ لصاحِبها(١).

- قولُه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ يَحتمِلُ أنْ تكونَ هذه الجملةُ تعليلًا معنويًّا للأمْرِ بنَبْذِ العَهدِ على عَدلٍ- وهو إعلامُهم-؛ فهي تعليلٌ للأمرِ بالنَّبذِ، والنَّهيِ عن مُناجزةِ القِتالِ المدلولِ عليه بالحالِ على طريقةِ الاستئنافِ. ويَحتمِلُ أنْ تكونَ مستأنفةً سِيقَتْ لِذَمِّ مَنْ خان رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ونَقَضَ عَهْدَه(٢)؛ فعلى وجْهِ التعليلِ تكونُ الجملةُ تَذييلاً لِمَا اقتضتْه جملةُ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ...﴾ تصريحًا واستلزامًا، والمعنى: أنَّ اللهَ لا يُحبُّهم؛ لأنَّهم مُتَّصِفون بالخيانةِ؛ فلا تَستمِرَّ على عَهدِهم، فتكونَ معاهدًا لِمَن لا يُحِبُّهم اللهُ، ومَوقِعُ (إنَّ) فيه مَوقِعُ التَّعليلِ للأمرِ بردِّ عهدِهم، ونَبْذِه إليهم؛ فهي مُغنِيةٌ غَناءَ فاءِ التَّفريعِ، وهذا من نُكَتِ الإعجازِ(٣).

- وقولُه: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ تعليلٌ للنَّهيِ على طريقةِ الاستئنافِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٤١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٦٢٢).
وقال أبو السُّعود: (﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ تعليلٌ للأمْرِ بالنبذِ؛ إمَّا باعتبار استلزامِه للنهيِ عن المناجزة، التي هي خيانةٌ؛ فيكونُ تحذيرًا لرسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم منها، وإمَّا باعتبار استتباعِه للقتال بالآخِرة؛ فيكونُ حثًّا له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على النبذ أولًا، وعلى قِتالهم ثانيًا، كأنه قيل: وإمَّا تعلَمنَّ من قومٍ خيانةً فانبذْ إليهم، ثم قاتِلْهم؛ إنَّ الله لا يُحِبُّ الخائنين، وهم مِن جُملتِهم؛ لِمَا علمتَ مِن حالِهم). ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣١). أو على حذفِ لامِ العلةِ في قراءةِ ابنِ عامرٍ، بفتحِ الهمزةِ في ﴿أَنَّهُمْ﴾. ويُنظر: ((إتحاف فضلاء البشر)) للبنَّاء (ص: ٢٩٩).

الآيات (٦٠-٦٣)

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾: أي: ربطُها وحَبْسُها، واقتِناؤُها للجهادِ في سبيلِ اللهِ تعالى[1]، وقيل: الرباط هي الخَيل التي تُربَطُ في سَبيلِ اللهِ، وقيل: الرباطُ جمعُ ربيطٍ، وفرسٌ ربيطٌ: أي: مربوطٌ في سبيلِ الله، وأصلُ المرابطةِ والرِّباطِ: أن يربطَ هؤلاء خيولَهم، ويربطَ هؤلاء خيولَهم في الثَّغرِ، كلٌّ يُعِدُّ لصاحبِه، وأصلُ (ربط): يدلُّ على شَدٍّ وثَباتٍ، والخيلُ معروفٌ، وقيل: هي في الأصلِ اسمٌ للأفراسِ والفرسانِ جميعًا[2].

﴿جَنَحُوا لِلسَّلْمِ﴾: أي: مالُوا إلى الصُّلحِ؛ مِن قولهم: جَنَحتِ السَّفينةُ، أي:

---

[1] قال الواحديُّ: (وأكثرُ المفسرين على أنَّ المرادَ برباطِ الخيلِ هاهنا: ربطُها واقتناؤُها للغزوِ).
((البسيط)) (١٠/ ٢١٧).

[2] يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٢)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٧/ ٣٠٢)، ((العذب النمير) للشنقيطي (٥/ ١٥٧).

مالَت إلى أحَدِ جانِبَيها، وأصلُ (جنح): يدلُّ على مَيلٍ، والسَّلمُ: الصلحُ(١)، وتركُ الحربِ(٢).

﴿حَسْبَكَ اللَّهُ﴾: أي: كافيك، وأصْلُ (حسب): كفايةٌ(٣).

﴿وَأَلَّفَ﴾: أي: جمَع، وأوْقَع الإلفَ بينَ القلوبِ، وأصلُ (ألف): اجتماعٌ معَ التئامٍ، ويدلُّ كذلك على انضمامِ الشيءِ إلى الشيءِ(٤).

المعنى الإجماليُّ:

يأمُر اللهُ عِبادَه أن يُعِدُّوا لأعدائِهم الكفَّارِ ما استطاعوا مِن قُوَّةٍ رادعة، ومِن الخَيلِ المربوطةِ المُعَدَّةِ للقتالِ عليها في سبيلِ الله تعالى؛ يُخيفونَ بها عدوَّ الله وأعداءَهم، وآخرينَ لا يَعلَمونَهم، لكنَّ اللهَ يَعلَمُهم، وبيَّن لهم أنَّ ما يُنفِقونَه مِن شَيءٍ في سبيلِه تعالى، فإنَّه يُعطِيهم ثوابَه يومَ القِيامةِ وافيًا غيرَ مَنقوصٍ.

ثم أمرَ اللهُ نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَميلَ للمُصالحةِ، إنْ مال الكُفَّارُ المُحارِبونَ لها، وأنْ يُفَوِّضَ أمْرَه إلى اللهِ؛ إنَّه هو السَّميعُ العليمُ، وأعلَمَه أنَّهم إن يُريدُوا خِداعَه بِطَلَبِهم الصُّلحَ؛ فإنَّ اللهَ- وَحدَه- كافِيه وناصِرُه عليهم، هو سُبحانه الذي أيَّدَه بنَصرِه وبأصحابِه الذين آمَنوا، وجمَعَ بين قلوبِهم، لو أنفقَ

---

(١) وقيل: أصلُ (سلم) مِن الانقيادِ، وسُمِّي الصلحُ سلمًا؛ لأنَّ عندَ الصلحِ ينقادُ كلُّ واحدٍ لصاحبِه، ولا ينازعُه فيه. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٥/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٩).

رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما في الأرضِ جميعًا؛ لِيَجمَعَ بين قُلوبِهم- ما استطاعَ، ولكنَّ اللهَ فعل ذلك؛ إنَّه عزيزٌ حَكيمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أوجَبَ على رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُشَرِّدَ مَن صَدَرَ منه نقضُ العَهدِ، وأن يَنبِذَ العَهدَ إلى مَن خاف منه النَّقضَ- أمَرَه في هذه الآيةِ بالإعدادِ لهؤلاءِ الكُفَّارِ(١).

وأيضًا لَمَّا اتَّفقَ في قصَّةِ بَدرٍ أنْ قَصَدوا الكُفَّارَ بلا تكميلِ آلةٍ ولا عُدَّةٍ، وأمَرَه تعالى بالتَّشريدِ وبِنَبذِ العَهدِ للنَّاقضينَ، كان ذلك سبيلًا للأخذِ في قتالِه، والتَّمالُؤ عليه- فأمَرَه تعالى والمؤمنينَ بإعدادِ ما قَدَروا عليه من القُوَّةِ للجهادِ(٢).

وأيضًا لَمَّا كان ربَّما أدَّى الاعتمادُ على الوَعدِ الصَّادِقِ المُؤَيِّدِ بما وقع لهم في بَدرٍ مِن عظيمِ النَّصرِ، مع نَقصِ دَعوى العِدَّة والعُدَّة، إلى تركِ المُناصبة والمُحارَبة والمُغالبةِ- أتبَعَه ما يُبَيِّنُ أنَّ اللَّازِمَ ربطُ الأسبابِ بِمُسَبِّباتِها، ولِيَتبَيَّنَ الصَّادِقُ في دعوى الإيمانِ مِن غَيرِه(٣).

﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن حيان)) (٥/ ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣١٤-٣١٥).

أي: وأعِدُّوا- أيُّها المُسلِمونَ- لأعدائِكم الكُفَّارِ- الذين يَسعَونَ في هلاكِكم- كُلَّ ما أمكَنَكم أنْ تُعِدُّوه لِقتالِهم، مِن جميعِ أنواعِ الأسلحةِ، والرأيِ والتَّدبيرِ(١).

عن عُقبةَ بنِ عامرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو على المنبرِ، يقول: ((﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾، ألَا إنَّ القُوَّةَ الرَّميُ، ألَا إنَّ القُوَّةَ الرَّميُ، ألَا إنَّ القُوَّةَ الرَّميُ))(٢).

﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾.

أي: وأعِدُّوا للكُفَّارِ ما تَستطيعونَ إعدادَه مِن الخَيلِ المربوطةِ، المُعَدَّةِ للقتالِ عليها في سبيلِ الله تعالى(٣).

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((الخَيلُ لثلاثةٍ: لِرَجلٍ أجرٌ، ولرَجُلٍ سِترٌ، وعلى رَجُلٍ وِزرٌ؛ فأمَّا الذي له أجرٌ: فرجُلٌ رَبَطها في سبيلِ اللهِ، فأطال في مَرْجٍ(٤) أو رَوضةٍ، فما أصابَت في طِيَلِها(٥) ذلك من المَرجِ أو الرَّوضةِ، كانت له حَسَناتٍ، ولو أنَّها قَطَعَت طِيَلَها فاستَنَّتْ شَرَفًا أو شَرَفينِ(٦)، كانت أرواثُها وآثارُها حسناتٍ له، ولو أنَّها مَرَّت بنهرٍ فَشَرِبتْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٤٤، ٢٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤).

(٢) رواه مسلم (١٩١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢١٨)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٠٦)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٥٧، ١٥٨).

(٤) المَرْجُ: مَوضِعُ الكَلأ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٥/ ٧٤).

(٥) طِيَلِها: هو الحَبلُ الذي تُربَطُ به، ويُطَوَّلُ لها لِتَرعى، ويقالُ له (طِوَلٌ) أيضًا. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٦٤).

(٦) فاستَنَّتْ شَرَفًا أو شَرَفينِ: عَدَتْ بمَرَحٍ ونَشاطٍ، شوطًا أو شَوطينِ، فبَعُدت عن الموضِعِ الذي ربَطَها صاحِبُها فيه ترعى، ورَعَت في غَيرِه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤١٠)، ((شرح البخاري)) للقسطلاني (٥/ ٧٤).

منه، ولم يُرِدْ أن يَسقِيَها، كان ذلك حسناتٍ له، ورجلٌ رَبَطَها فخرًا ورِئاءً، ونِواءً[١] لأهلِ الإسلامِ؛ فهي وِزرٌ على ذلك))[٢].

وعن عُروةَ البارقيِّ رَضيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((الخَيلُ مَعقودٌ في نَواصيها الخَيرُ إلى يومِ القِيامةِ: الأجرُ والمَغنَمُ))[٣].

﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

أي: تُخيفونَ باستعدادِكم للجهادِ الذين تَعلمونَهم مِن أعداءِ اللهِ تعالى، وأعدائِكم مِن الكُفَّار[٤].

﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

أي: وتُخيفونَ باستعدادِكم للجِهادِ أعداءً لكم آخرينَ، لا تَعلمونَهم، لكِنَّ اللهَ يَعلَمُهم[٥].

---

[١] نِواء: مُعاداة. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٥/ ٧٤)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٦٥).

[٢] رواه البخاري (٢٨٦٠) واللفظ له، ومسلم (٩٨٧).

[٣] رواه البخاري (٢٨٥٢)، ومسلم (١٨٧٣).

[٤] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٥٨).

[٥] يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٩، ٥٠٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٢، ٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٥٨).

قيل: المرادُ بهم: المُنافقون. وهذا اختيارُ الرازي، وابنِ جُزي، وأبي حيانَ، وابنِ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٢، ٨٣).

قال ابنُ كثير: (ويَشهدُ له قولُه: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١]).

وقيل: المرادُ بـ ﴿وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾: الجِنُّ، وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٤٩-٢٥٠).

وقيل غيرُ ذلك. واختار القرطبيُّ التوقُّفَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى صرَّحَ بأنَّ المؤمنينَ لا يعلمونَهم، =

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا أمرَ اللهُ تعالى بإعدادِ القوَّةِ المُستطاعةِ كائنةً ما كانت، وكان إعدادُها يحتاجُ إلى مادَّةٍ- رغَّبَ سبحانَه المؤمنينَ في الإنفاقِ في سبيلِه؛ لِيُنفِقوا، ويُعينوا على إعدادِ القُوَّةِ، فقال تعالى⁽١⁾:

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾.

أي: وما تُعطوه- أيُّها المؤمنونَ- مِن نفقاتٍ قليلةً كانت أو كثيرةً، في جهادِ أعداءِ الله، يُعطِكم اللهُ ثوابَه يومَ القيامةِ، وافيًا غيرَ مَنقوصٍ⁽٢⁾.

كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦١، ٢٦٢].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦١﴾.

= وإنَّما الذي يعلَمُهم هو الله تعالى وَحدَه، ولم يَرِدْ في بيانِ ذلك حديثٌ يصِحُّ عن النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٥٩).

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٥٩).
وقال ابنُ عاشور: (وتدُلُّ التَّوفِيَةُ على أنَّه يشملُ الأجرَ في الدُّنيا مع أجرِ الآخِرَةِ، ونُقِل ذلك عن ابنِ عبَّاسٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ ما يُرهَبُ به العَدوُّ مِن القوَّةِ؛ بيَّن بعدَه أنَّهم عند هذا الإرهابِ إذا مالوا إلى المُصالحةِ، فالحُكمُ قَبولُ المُصالحةِ(١).

وأيضًا لَمَّا كان ضَمانُ النَّصرِ والخَلَفِ في النَّفقةِ مُوجِبًا لِدَوامِ المُصادمةِ، والبُعدِ مِن المُسالَمةِ؛ أتبَعَه الأمرَ بالاقتصادِ في ذلك(٢).

وأيضًا لَمَّا كان السَّلمُ هو المقصودَ الأوَّلَ- كما أفاد مفهومُ الآيةِ السَّابقةِ- أكَّدَه بمنطوقِ الآيةِ اللَّاحقةِ، فقال جلَّتْ حِكمَتُه، وسبقَت رَحمَتُه(٣):

﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾.

أي: وإنْ مال الكفَّارُ المُحارِبونَ إلى المُصالحةِ والمُسالَمةِ فأجِبْهم- يا مُحمَّدُ- إليها(٤).

﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٠٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٦١).

قال ابنُ كثير: (وقولُ ابنِ عبَّاسٍ، ومجاهِدٍ، وزيدِ بنِ أسلمَ، وعطاءٍ الخراسانيِّ، وعكرمةَ، والحسنِ، وقتادةَ: إنَّ هذه الآيةَ منسوخةٌ بآيةِ السَّيفِ في براءة: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ الآيةَ [التوبة: ٢٩] - فيه نظرٌ؛ لأنَّ آيةَ براءة فيها الأمرُ بقِتالِهم إذا أمكَنَ ذلك، فأمَّا إذا كان العدوُّ كثيفًا، فإنَّه تجوزُ مُهادَنتُهم، كما دلَّت عليه هذه الآيةُ الكريمةُ، وكما فعل النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ الحُدَيبية، فلا منافاةَ، ولا نَسخَ، ولا تخصيصَ. واللهُ أعلم). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٤). وهذا الذي ذهب إليه ابنُ كثيرٍ- أنَّ هذه الآيةَ غيرُ منسوخةٍ- هو اختيارُ ابنِ جريرٍ والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٣، ٢٥٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٦٣).

أي: صالِحْهم، وفَوِّض أمرَك إلى اللهِ، ولا تخَفْ ممَّا قد يدبِّرونَه مِن مَكرٍ وغَدرٍ في مُدَّةِ المُصالحةِ⁽¹⁾.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

أي: إنَّ الله الذي تتوكَّلُ عليه، هو السَّميعُ لأقوالِك، وأقوالِ أعدائِك، العليمُ بما في قُلوبِكم، لا يَخفَى عليه شيءٌ، فإن كان الأعداءُ يُضمِرونَ المَكرَ والغَدرَ بك- يا مُحمَّدُ- أثناء مدَّةِ المُصالحةِ؛ فهو سبُحانه لن يَفوتَه شيءٌ ممَّا يَنوُونَ ويقولونَ ويُدَبِّرون؛ لأنَّه مُطَّلِعٌ عليهم، وسيَكفيكَهم⁽²⁾.

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَر الله تعالى في الآيةِ المتقدمةِ بالصُّلحِ، وكان طلَبُ السَّلمِ والهُدنةِ من العَدُوِّ، قد يكونُ خديعةً حربيَّةً؛ لِيَغْزُوا المُسلمينَ بالمُصالحة، ثم يأخذوهم على غِرَّةٍ؛ ذكَر في هذه الآيةِ حكمَ الصُّلحِ، إن صالحوا على سبيلِ المخادعةِ، وأنَّه يجبُ قبولُ ذلك الصلحِ، وأن يأخُذَ الأعداءَ على ظاهِرِ حالِهم، ويحمِلَهم على الصِّدقِ؛ لأنَّه الخُلُقُ الإسلاميُّ، وشأنُ أهلِ المُروءةِ، ولا تكونُ الخَديعةُ بمِثلِ نَكْثِ العهدِ، فإذا بَعثَ العَدُوَّ كُفْرُهم على ارتكابِ مثلِ هذا التسَفُّلِ؛ فإنَّ اللهَ تكفَّلَ للوفيِّ بِعَهدِه، أن يَقِيَه شَرَّ خيانةِ الخائنينَ⁽³⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦١).

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾.

أي: وإنْ يُرِدِ الكُفَّارُ خِداعَك بطَلَبِ الصُّلحِ - يا مُحمَّدُ - بأن يُظهِروا المُسالَمةَ، ويُبطِنوا الخِيانةَ والغَدرَ؛ ليتمَكَّنوا في مدَّةِ المُصالحةِ مِن تَدبيرِ المكائِدِ؛ لِيَضُرُّوك بها؛ فإنَّ اللهَ وَحدَه كافيك، وناصِرُك عليهم(١).

كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].

وقال سبحانه: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦].

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

أي: اللهُ هو الَّذي قوَّاك بنَصرِه إيَّاك على الكفَّارِ، وقوَّاك بأصحابِك(٢).

﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٣﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٦٣، ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٨)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٧/ ٢٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٦٤، ١٦٥).

وقصَرَ بعضُ المفَسِّرينَ المرادَ بالمؤمنينَ المذكورينَ على الأنصارِ، وممَّن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، وابنُ عطيةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٥)، ((الوسيط)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٨).

وممَّن ذهَب إلى أنَّهم المهاجرونَ والأنصارُ: ابنُ تيميةَ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) (٧/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٤).

قال ابنُ عطيةَ: (تظاهَرَت أقوالُ المُفَسِّرينَ أنَّها في الأَوْسِ والخَزْرجِ... ولو ذُهِبَ إلى عمومِ المُؤمِنينَ في المُهاجِرينَ والأنصارِ، وجُعِلَ التَّأليفُ ما كان مِن جَميعِهم من التَّحابِّ، حتى تكونَ أُلفةُ الأوسِ والخزرجِ جزءًا مِن ذلك- لساغ ذلك). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٨).

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾.

أي: واللهُ تعالى هو الذي جمعَ بين قُلوبِ أصحابِك المؤمنينَ على الحَقِّ، إيمانًا به ومناصرةً له، فأصبَحوا بنِعمَتِه إخوانًا مُتحابِّينَ مُؤتَلِفينَ، بعد أن كانوا أعداءً مُتنافرينَ مُتفرِّقينَ⁽¹⁾.

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾.

أي: لو بَذَلْتَ- يا مُحمَّدُ- جميعَ ما في الأرضِ؛ مِن ذهبٍ وفِضَّةٍ وأموالٍ وغَيرِ ذلك؛ لِتَجمَعَ بينَ قلوبِ أصحابِك- لَما استطَعْتَ أبدًا أن تجمَعَ بينها؛ لِشدَّةِ العَداواتِ التي كانت مُستحكِمةً بينهم، ولكِنَّ اللهَ بقُدرَتِه الباهرةِ- وَحْدَه- جمَعَ بينهم على الهُدى⁽²⁾.

كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٨، ٥٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٦٥، ١٦٦).

قال القرطبي: (﴿وألَّفَ بين قُلوبِهم﴾ أي: جمَعَ بين قُلوبِ الأوسِ والخَزرجِ... وقيل: أراد التَّأليفَ بين المهاجرينَ والأنصارِ. والمعنى مُتقارِبٌ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٤٢).

وقال الشَّوكاني: (ظاهِرُه العمومُ، وأنَّ ائتلافَ قُلوبِ المؤمنينَ هو من أسبابِ النَّصرِ التي أيَّدَ اللهُ بها رَسولَه. وقال جمهورُ المُفَسِّرين: المراد: الأوسُ والخَزرج؛ فقد كان بينهم عصبيَّةٌ شديدةٌ، وحروبٌ عظيمةٌ، فألَّفَ اللهُ بين قلوبِهم بالإيمانِ بِرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وقيل: أراد التَّأليف بين المُهاجرين والأنصار. والحَملُ على العمومِ أَوْلى؛ فقد كانت العَرَبُ قبل البَعثةِ المُحمديَّةِ يأكُلُ بعضُهم بعضًا، ولا يَحترِمُ مالَه ولا دَمَه، حتى جاء الإسلامُ، فصاروا يدًا واحدةً، وذهب ما كان بينهم من العصبيَّةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٦٦).

فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وعن عبدِ اللهِ بنِ زَيدٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا فتح حُنينًا قسَمَ الغَنائِمَ، فأعطى المؤلَّفةَ قُلوبُهم، فبلَغَه أنَّ الأنصارَ يُحبُّونَ أن يُصيبوا ما أصاب النَّاسُ، فقام رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فخطَبَهم، فحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه، ثمَّ قال: يا مَعشَرَ الأنصارِ، ألم أجِدْكم ضُلَّالًا فهداكم اللهُ بي؟ وعالةً فأغناكم الله بي؟ ومُتَفرِّقينَ فجَمَعَكم الله بي؟ ويقولون: اللهُ ورسولُه أمَنُّ، فقال: ألا تجيبوني؟! فقالوا: اللهُ ورَسولُه أمَنُّ، فقال: أمَا إنَّكم لو شِئتُم أن تقولوا كذا وكذا، وكان من الأمر كذا وكذا- لأشياءَ عَدَّدَها-، فقال: ألَا تَرضَونَ أن يذهَبَ النَّاسُ بالشَّاءِ والإبِلِ، وتذهبونَ برَسولِ اللهِ إلى رحالِكم؟! الأنصارُ شِعارٌ⁽¹⁾ والنَّاسُ دثارٌ⁽²⁾ ولولا الهجرةُ لكُنتُ امرأً مِن الأنصارِ، ولو سلَكَ النَّاسُ واديًا وشِعبًا، لسلكْتُ واديَ الأنصارِ وشِعبَهم، إنَّكم ستَلْقونَ بعدي أثَرةً⁽³⁾، فاصبِرُوا حتى تلقَوني على الحَوضِ))⁽⁴⁾.

﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ الذي ألَّف بقُدرته بين قلوبِ المُؤمنينَ، عزيزٌ لا يقهَرُه ولا يَغلِبُه شيءٌ، ولا يَرُدُّ قَضاءَه أحدٌ، ومن ذلك قَهرُه للكُفَّارِ الجانحينَ للسَّلمِ، الذين يُريدونَ بذلك الخِداعَ، حكيمٌ في أفعالِه وشَرعِه وتدبيرِ خَلقِه، فيضَعُ الأشياءَ في مواضِعِها

---

(١) الشِّعَارُ: هو الثَّوبُ الذي يلي شَعْرَ البَدَنِ. والمعنى أنَّ الأنصارَ أقرَبُ النَّاسِ إليه- صلى الله عليه وسلم- مَرتبةً وأولاهم منه مَنزلةً. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٩/ ٤٠٠٩).

(٢) الدِّثارُ: هو الثَّوبُ الذي فَوقَ الشِّعارِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٩/ ٤٠٠٩).

(٣) أثَرَةً: أي: استِئثارًا؛ يستأثِرُ عليكم أُمَراؤُكم بأمورِ الدُّنيا مِنَ المَغانِمِ والفَيءِ ونَحوِهما. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٩/ ٤٠٠٩).

(٤) رواه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١)، واللفظ له.

اللَّائقةِ بها، ومن ذلك تأليفُه قلوبَ المؤمنينَ؛ لِيَجتمِعوا على نُصرةِ الحقِّ⁽¹⁾.

الفَوائِد التربويَّة:

١- قَوْله تَعَالَى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ أمَرَ اللهُ سبحانه وتعالى بإعدادِ القُوَّةِ للأعداءِ، مع أنَّ الله تعالى لو شاءَ لَهَزَمهم، ولكنَّه أراد أنْ يُبلِيَ بعضَ النَّاسِ ببَعضٍ، بعِلمِه السَّابِقِ وقَضائِه النَّافِذِ؛ فأمَرَ بإعدادِ القُوى والآلةِ في فُنونِ الحَربِ، التي تكونُ لنا عُدَّةً، وعليهم قُوَّةً، ووعَدَ على الصَّبرِ والتَّقوى بأمدادِ الملائكةِ العُليا⁽²⁾.

٢- إذا طلبت الصُّلح والإصلاحَ بينَ قومٍ لا تتوسَّل إلى ذلك إلَّا بالتَّوكُّل، قال الله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فاجنح لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾⁽³⁾.

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ نبَّه اللهُ تعالى بِقَولِه: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ على الزَّجرِ عن نَقضِ العَهدِ؛ لأنَّه عالِمٌ بما يُضمِرُ العبدُ، سميعٌ لِما يقولُه⁽⁴⁾.

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ فيه أنَّ النَّصرَ يُنالُ بالأسبابِ، وأنَّ ذلك يتوقَّفُ على التآلُفِ والاتِّحادِ، وكلُّ ذلك بفَضلِ مُقَدِّرِ الأسبابِ، ورَحمتِه بالعبادِ⁽⁵⁾.

٥- قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ هذا بيانٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٣١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٥٥٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٦١).

عمَّا ينبغي أن يكونَ عليه المُحِقُّ مِن الثِّقةِ باللهِ- إذا خاف مَكرَ المُبطِلِ به- في أن يَكفِيَه شَرَّ كَيدِه؛ لئلَّا يضطرِبَ أمرُه في تدبيرِه(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ يدلُّ على أنَّ الاستعدادَ للجهادِ- بالنَّبْلِ والسِّلاحِ، وتعليمِ الفُروسيَّةِ والرَّميِ، وكلِّ ما يحصلُ به تخويفُ العدوِّ وردعُه مِن مستحدثاتِ الأسلحةِ بأنواعِها الجويةِ والبريةِ والبحريةِ وغيرِها- فريضةٌ، إلَّا أنَّه مِن فُروضِ الكِفاياتِ(٢).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ دخلَ فيه كُلُّ ما يدخُلُ تحت قُدرةِ النَّاسِ اتِّخاذُه مِن العُدَّةِ، فاتِّخاذُ السُّيوفِ والرِّماحِ والأقواسِ والنِّبالِ، مِن القُوَّةِ في جُيوشِ العُصورِ الماضيةِ، واتِّخاذُ الدَّبَّاباتِ والمدافِعِ والطَّيَّاراتِ والصَّواريخِ، مِن القُوَّةِ في جُيوشِ عَصْرِنا(٣).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ يدلُّ على جَوازِ وَقفِ الخَيلِ والسِّلاحِ، واتِّخاذِ الخَزائِنِ والخُزَّانِ لها؛ عُدَّةً للأعداءِ(٤).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ أصلٌ في المُناضَلةِ(٥)، والمُسابقةِ(٦).

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٩/ ٥٥٤).

(٥) المُناضَلةُ: الرَّميُ. يُقال: ناضَلَه مُناضَلةً ونِضالًا ونِيضالًا: باراهُ في الرَّميِ. وتناضَلَ القَومُ: تَرامَوْا للسَّبْقِ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/ ٦٦٥)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٦١٠).

(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٣٦).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ التَّقييدُ لإعدادِ المُستَطاعِ مِن القُوَّةِ، ومِن رباطِ الخَيلِ، بقَصدِ إرهابِ الأعداءِ المُجاهرينَ، والأعداءِ المُستَخْفينَ وغيرِ المَعروفينَ؛ دليلٌ على تفضيلِ جَعلِه سببًا لِمَنعِ الحَربِ، على جَعلِه سببًا لإيقادِ نارِها، فهو يقولُ: استَعِدُّوا لها لِيَرهَبَكم الأعداءُ؛ عسى أن يمتَنِعوا عن الإقدامِ على قتالِكم، وهذا عينُ ما يُسمَّى في عُرفِ دُوَلِ هذه الأيَّامِ بـ (السَّلام المُسَلَّح)، بناءً على أنَّ الضَّعفَ يُغري الأقوياءَ بالتَّعدِّي على الضُّعفاءِ⁽¹⁾.

٦- قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ التحَرُّزَ، وأعمالَ الواسِطاتِ غيرُ مُؤثِّرةٍ في توكُّلِ المُؤمِنينَ، ألَا ترى أنَّه جلَّ جَلالُه قد قال في هذه السُّورةِ بعَينِها: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾، ثم أمَرَ بإعدادِ القُوَّةِ؛ لإرهابِ العَدُوِّ⁽²⁾.

٧- قال الله تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ الكُفَّارُ إذا عَلِموا كَونَ المُسلمينَ مُتأهِّبينَ للجِهادِ، ومُستعِدِّينَ له مُستكمِلينَ لِجَميعِ الأسلحةِ والآلاتِ؛ خافُوهم، وذلك الخَوفُ يُفيدُ أمورًا كثيرةً:

أوَّلُها: أنَّهم لا يَقصِدونَ دُخولَ دارِ الإسلامِ.

ثانيها: أنَّه إذا اشتَدَّ خَوفُهم فربَّما التَزَموا مِن عند أنفُسِهم جزيةً.

ثالثها: أنَّه ربما صار ذلك داعيًا لهم إلى الإيمانِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٧٣).

رابعُها: أنَّهم لا يُعينونَ سائِرَ الكُفَّارِ(١).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ لَمَّا كان إعدادُ العُدَّةِ يقتضي أموالًا، وكان النِّظامُ الإسلاميُّ كلُّه يقومُ على أساسِ التَّكافُلِ، فقد اقترَنت الدَّعوةُ إلى الجهادِ بالدَّعوةِ إلى إنفاقِ المالِ في سبيلِ اللهِ(٢)، ففي قَولِه تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ بعدَ قَولِه سُبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ إرشادٌ إلى إنفاقِ المالِ في سَبيلِ اللهِ لإعدادِ ما ذُكِرَ؛ إذ لا يتِمُّ بدونِ المالِ شَيءٌ منه(٣).

٩- دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ على تَفضيلِ السَّلْمِ على الحَربِ- إذا جنَحَ العَدُوُّ لها- إيثارًا لها على الحَربِ التي لا تُقصَدُ لِذاتِها، بل هي ضَرورةٌ مِن ضَروراتِ الاجتماعِ تُقَدَّرُ بِقَدَرِها(٤).

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: أجِبْهم إلى ما طَلَبوا متوكِّلًا على ربِّك؛ فإنَّ في ذلك فوائِدَ كثيرةً:

منها: أنَّ طلَبَ العافيةِ مَطلوبٌ كُلَّ وَقتٍ، فإذا كانوا هم المُبتدِئينَ في ذلك، كان أَوْلى لإجابَتِهم.

ومنها: أنَّ في ذلك إجمامًا لِقُوى المؤمنينَ، واستعدادًا منهم لقتالِهم في وقتٍ آخَرَ، إن احتِيجَ لذلك.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٥٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ومنها: أنَّهم إذا اصطلَحُوا، وأمِنَ بعضُهم بعضًا، وتمكَّنَ كلٌّ مِن معرفةِ ما عليه الآخَرُ؛ فإنَّ الإسلامَ يعلو ولا يُعلَى عليه، فكلُّ مَن له عقلٌ وبصيرةٌ إذا كان معه إنصافٌ، فلا بدَّ أن يُؤثِرَه على غيرِه من الأديانِ؛ لِحُسنِه في أوامِرِه ونواهيه، وحُسنِه في معامَلتِه للخَلقِ والعَدلِ فيهم، وأنَّه لا جَورَ فيه، ولا ظُلمَ بوجهٍ، فحينئذٍ يكثُرُ الرَّاغبونَ فيه، والمُتَّبِعونَ له، فصار هذا السَّلْمُ عونًا للمُسلمينَ على الكافرينَ، ولا يُخافُ مِن السَّلمِ إلَّا خَصلةٌ واحدةٌ، وهي أن يكونَ الكُفَّارُ قَصدُهم بذلك خَدْعُ المُسلمينَ، وانتهازُ الفُرصةِ فيهم، فأخبرَهم اللهُ أنَّه حَسبُهم وكافيهم خِداعَهم، وأنَّ ذلك يعودُ عليهم ضَرَرُه⁽¹⁾.

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۞ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ بُرهانٌ على أنَّ الإسلامَ دينُ السَّلامِ- لكِنْ عن قُدرةٍ وعِزَّةٍ، لا عن ضَعفٍ وذِلَّةٍ- لأنَّه لَمَّا كان جنوحُ العَدُوِّ للسَّلمِ قد يكون خديعةً لنا لنكُفَّ عن القتالِ- رَيثَما يستعِدُّون هُم له، أو لغيرِ ذلك من ضروبِ الخِداعِ- وكان من المصلحةِ في هذه الحالِ ألَّا نَقبَلَ الصُّلحَ منهم ما لم نستَفِدْ كلَّ ما يُمَكِّنُنا منه تَفوُّقُنا عليهم- لم يَعُدَّ الشَّارعُ احتمالَ ذلك مانعًا من ترجيحِ السَّلمِ⁽²⁾.

١٢- قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ إن قيل: لَمَّا قال: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ﴾ فأيُّ حاجةٍ مع نَصرِه إلى المؤمنينَ حتى قال: ﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾؟! قلنا: التأييدُ ليس إلَّا مِن اللهِ، لكنَّه على قِسمينِ: أحدهما: ما يحصُلُ مِن غَيرِ واسطةِ أسبابٍ مَعلومةٍ مُعتادةٍ. والثاني: ما يحصُلُ بواسطةِ أسبابٍ معلومةٍ مُعتادةٍ. فالأوَّلُ: هو المرادُ مِن قَولِه: ﴿أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ﴾ والثَّاني:

---

(1) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥).

(2) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٢٦).

هو المرادُ من قَولِه: ﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ يدلُّ على أنَّ أحوالَ القُلوبِ؛ مِن العقائِدِ والإراداتِ والكَراهاتِ، كُلُّها مِن خَلْقِ اللهِ تعالى(٢).

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ فيه ثناءٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ على صحابةِ رَسولِه، تُفَنِّدُ مطاعِنَ الرَّافضةِ الضَّالةِ الخاسِرةِ فيهم(٣).

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ حرفُ الاستعلاءِ في هذا مُعلِمٌ بأنَّه يفعَلُ مع المُتوكِّلِ فِعلَ الحامِلِ لِما وُكِلَ إليه، المُطيقِ لِحَملِه(٤).

١٦- قال الله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ أعلَمَ اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّ تأليفَ قُلوبِ المُؤمنينَ، مِن الآياتِ العِظامِ؛ وذلك أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بُعِثَ إلى قومٍ أَنَفَتُهم شديدةٌ، ونُصرةُ بَعضِهم بعضًا ومعاونَتُه، أبلغُ نُصرةٍ ومُعاونةٍ؛ كان يُلطَمُ مِن القبيلةِ لَطمةً، فيُقاتَلُ عنه حتى يُدرَكَ ثأرُه، فألَّفَ الإيمانُ بين قُلوبِهم، حتى قاتَلَ الرَّجُلُ أباه وأخاه وابنَه، فأعلَمَ اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّ هذا ما تولَّاه منهم إلَّا هو سُبحانَه(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٠١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٥٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسر المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٦٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣١٦).

(٥) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٤٢).

١٧- في قوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ حجةٌ على قَبُولِ الإجماعِ، ولزومِه لزومَ نصِّ القرآنِ؛ إذ مُحالٌ أنْ تتفقَ الألْسُنُ على شيءٍ إلَّا وقد ائتلفتْ قلوبُ الناطقين به- لأنَّ الألْسِنَةَ مترجِمةٌ عن الضمائرِ ما حَوَتْها- وقد أخبر اللهُ تعالى أنه مُؤَلِّفُها(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾

- عطفُ جملةِ ﴿وَأَعِدُّوا...﴾ على جملةِ ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ أو على جملةِ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ تُفيدُ مَفادَ الاحتراسِ عن مُفادِها، لأنَّ قولَه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ يفيدُ توهينًا لشأنِ المشركينَ، فتعقيبُه بالأمرِ بالاستعدادِ لهم؛ لئلا يحسبَ المسلمونَ أنَّ المشركينَ قد صاروا في مُكنتِهم، ويلزمُ مِن ذلك الاحتراسِ أنَّ الاستعدادَ لهم هو سببُ جعلِ الله إيَّاهم لا يُعجزونَ الله ورسولَه؛ لأنَّ الله هيَّأ أسبابَ استئصالِهم ظاهرَها وباطنَها(٢).

- وقوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾، قولُه: ﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾ يعمُّ كُلَّ مَا يُتقوَّى بِهِ عَلَى حَرْبِ الْعَدُوِّ(٣)، وعَطْفُ ﴿رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ على القُوَّةِ، وهو مِن عَطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ للاهتمامِ بذلك

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٤٣).

الخَاصِّ(١)، والتنصيصِ على فضله؛ إذ إنَّ رباطَ الخيلِ هي أصلُ الحُروبِ، والخيرُ معقودٌ بنواصيها، وهي مراكبُ الفرسانِ الشُّجعانِ(٢).

- والرِّباطُ صِيغةُ مُفاعَلة؛ أُتي بها هنا للمُبالغةِ؛ لتدلَّ على قَصْد الكثرة مِن رَبْط الخيل للغزوِ، أي: احتباسِها ورَبْطِها؛ انتظارًا للغزوِ عليها(٣).

- وقولُه: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ مُستأنَفٌ استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن تَخصيصِ الرِّباطِ بالذِّكرِ بعدَ ذِكر ما يَعمُّه- وهو القوَّةُ- أو في مَوضِعِ الحالِ من ضَميرِ ﴿وَأَعِدُّوا﴾(٤).

- وفيه ذِكرُ ﴿عَدُوَّ اللَّهِ﴾ أولًا؛ تَعظيمًا لِمَا هم عليه من الكُفر، وتقويةً لذَمِّهم، وأنَّه يجِبُ لأجْلِ عَداوتِهم للهِ أنْ يُقاتَلوا ويُبغضَوا، ثم قال: ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾ على سَبيلِ التَّحريضِ على قِتالِهم؛ إذ في الطَّبعِ أن يُعادِيَ الإنسانُ مَن عاداه، وأنْ يُريدَ له الغوائِلَ(٥).

- وفي قولِه: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ تَعريضٌ بالتَّهديدِ لهؤلاء الآخَرين- فالخبرُ هنا مُستعمَلٌ في معناه الكِنائيِّ، وهو تَعقُّبُهم والإغراءُ بهم- وتَعريضٌ بالامتنانِ على المسلِمينَ بأنَّهم بمَحلِّ عِنايةِ اللهِ؛ فهو يُحصي أعداءَهم، ويُنبِّهُهم إليهم(٦).

- قوله: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ أيضًا فيه تقديمُ المسنَدِ إليه ﴿اللَّهُ﴾ على الخبرِ الفِعليِّ ﴿يَعْلَمُهُمْ﴾- حيثُ لم يَقُل: (يَعْلَمُهُمُ اللَّهُ)-؛ للتقوِّي، أي: لتَحقيقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٤٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٧).

الخَبَر وتأكيدِه، والمقصودُ تأكيدُ لازم معناه، أمَّا أصل المعنى فلا يحتاج إلى التأكيد؛ إذ لا يُنكِرُه أحدٌ⁽¹⁾.

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

- عبَّر عن جُنوحِهم بـ (إنْ) التي يُعبَّرُ بها عن المَشكوكِ في وُقوعِه، أو ما مِن شأنِه ألَّا يقَعَ؛ للإشارةِ إلى أنَّهم لَيسُوا أهلًا لاختيارِه لِذَاتِه، وأنَّه لا يُؤمَنُ أن يكونَ جُنوحُهم إليه كيدًا وخِداعًا⁽²⁾.

- اللَّامُ في قولِه: ﴿لِلسَّلْمِ﴾ واقعةٌ موقِعَ (إلى)؛ لتقويةِ التَّنبيهِ على أنَّ مَيْلَهم إلى السَّلمِ مَيلُ حقٍّ، أي: وإنْ مالوا لأجْل السَّلمِ، ورغبةً فيه، لا لغرَضٍ آخَرَ غيرِه⁽³⁾.

- وإنَّما قال: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ ولم يَقُلْ: (وإنْ طَلَبوا السَّلْم فأجِبْهم إليه)؛ للتَّنبيهِ على أنَّه لا يُسعِفُهم إلى السَّلمِ حتَّى يَعلمَ أنَّ حالَهم حالُ الرَّاغبِ؛ لأنَّهم قد يُظهِرون المَيلَ إلى السَّلمِ كيدًا⁽⁴⁾.

- قولُه: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ صِيغةُ قَصْرٍ، وطَريقُ القَصرِ فيه أفادَ قَصْرَ معنى الكَمالِ في السَّمعِ والعِلمِ، أي: فهو سميعٌ منهم ما لا تَسمعُ، ويَعلمُ ما لا تَعلمُ، وقصرُ هذَينِ الوَصفينِ بهذا المعنى على اللهِ تعالى عَقِبَ الأمرِ بالتوكُّلِ عليه، يُفضي إلى الأمرِ بقَصرِ التوكُّلِ عليه، لا على غيرِه⁽⁵⁾.

---

(1) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٧).

(2) يُنظر: ((تفسر المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٥٧).

(3) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٥٩).

(4) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(5) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾

- قوله: ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ أُريد منه الكِنايةُ عن عَدمِ مُعاملتِهم بهذا الاحتِمالِ، وألَّا يتوجَّسَ مِن هذا الاحتِمالِ خِيفةً، وأنَّ ذلك لا يَضرُّه، وتأكيدُ الخبر بـ(إنَّ) مُراعًى فيه تأكيدُ معناه الكِنائيِّ؛ لأنَّ معناه الصَّريحَ ممَّا لا يَشكُّ فيه أحدٌ⁽¹⁾.

- قولُه: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ﴾ مُستأنفٌ مَسوقٌ مساقَ الاستدلالِ على أنَّه حَسْبُه، وعلى المعنى التعريضيِّ، وهو عدمُ التحرُّجِ من احتمالِ قَصدِهم الخيانةَ، والتوجُّسِ مِن ذلك الاحتِمالِ خِيفةً، أي: فإنَّ اللهَ قد نَصرَك مِن قبلُ، وأنت أضعفُ مِنكَ اليومَ، فنَصَرَك على العَدوِّ وهو مُجاهِرٌ بعُدوانِه؛ فنَصْرُه إيَّاكَ عليهم مع مُخاتلتِهم، ومع كَونِك في قُوَّةٍ من المؤمنِينَ الذين معَكَ، أَوْلَى وأقربُ⁽²⁾.

- وقولُه: ﴿بِنَصْرِهِ﴾ في إضافةِ النَّصرِ إلى اللهِ تَنبيهٌ على أنَّه نصْرٌ خارقٌ للعادةِ⁽³⁾.

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ استِئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّه ناشئٌ عن مَساقِ الامتِنانِ بهذا الائتلافِ، أي: لو حاولتَ تأليفَهم ببذلِ المالِ العَظيمِ، ما حَصَل التآلُفُ بينهم، وهو مُقرِّرٌ لِمَا قَبْله، ومُبيِّنٌ لعزَّةِ المَطْلَب، وصعوبةِ المأخَذِ، أي: تَناهي التَّعادِي فيما بينَهم⁽⁴⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦٤).

- وقولُه: ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فيه مبالغةٌ حَسَنةٌ؛ لوقوعِها مع حَرْفِ (لو) الدَّالِّ على عدمِ الوقوعِ(١).

- والتَّأكيدُ بـ(إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ لمجرَّدِ الاهتمامِ بالخَبَرِ، باعتبارِ جعْلِه دليلًا على بديعِ صُنْعِ الله تعالى(٢).

- ومَوقِعُ الاستدراكِ في قَولِه: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ لأجلِ ما يُتوَهَّمُ مِن تعذُّرِ التَّأليفِ بينهم، في قَولِه: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: ولكِنَّ تَكوينَ اللهِ يَلينُ به الصُّلبُ، ويحصُلُ به المتعَذِّرُ(٣).

- ولَمَّا كان هذا التَّكوينُ صُنعًا عَجيبًا، ذيَّلَ اللهُ الخبرَ عنه بقَولِه: ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: قَوِيُّ القُدرةِ، فلا يُعجِزُه شَيءٌ، مُحكِمُ التَّكوينِ، فهو يُكَوِّنُ المُتَعذِّرَ، ويجعَلُه كالأمرِ المَسنونِ المألوفِ(٤).

- وقيل: بل خَتَم اللهُ تعالى هذه الآيةَ بقَولِه: ﴿إِنَّه عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ لأنَّه تعليلٌ لِكفايةِ اللهِ لِرَسولِه شَرَّ خِداعِ الأعداءِ، وتأييدِه بنَصرِه وبالمؤمنينَ، لا للتَّأليفِ بين المؤمنينَ وَحدَه؛ إذْ لو كان تعليلًا للتَّأليفِ بين المؤمنينَ وَحدَه، لكانَ الأنسَبُ أن يُعَلَّلَ بقَولِه: (إنَّهُ رَؤوفٌ رحيمٌ)، على أنَّ هذا التَّأليفَ في هذا المقامِ، ما كان إلَّا بعِزَّةِ اللهِ وحِكمَتِه في إقامةِ هذا الدِّينِ(٥).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٦٣).

الآيات (٦٤-٦٦)

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿حَرِّضِ﴾: أي: حُضَّ، وحُثَّ، والتَّحريضُ: الحثُّ على الشَّيءِ، وتَسهيلُ الخَطبِ فيه؛ كأنَّه في الأصلِ إزالةُ الحَرَضِ: وهو ما لا يُعتَدُّ به، ولا خيرَ فيه[1].

﴿يَفْقَهُونَ﴾: أي: يَفْهَمونَ حَقَّ الفَهْمِ، والفِقهُ: هو التوصُّلُ إلى عِلمٍ غائبٍ بعِلمٍ شاهِدٍ. وأصلُ (فقه) يدلُّ على إدراكِ الشَّيءِ، والعِلمِ به[2].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

﴿حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ مُبتدأٌ وخَبرٌ. ﴿وَمَنِ﴾ اسمٌ موصولٌ، وفي إعرابِه أوجهٌ؛ أحدها: أن يكونَ في محلِّ جرٍّ، عطفًا على الكافِ في ﴿حَسْبُكَ﴾ مِن العَطفِ على الضَّميرِ المَجرورِ، دونَ إعادةِ الجارِّ، وهو جائزٌ. أي: اللهُ وَحدَه كافيك، وكافي أتباعِك. الثاني: أن يكونَ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠).

محلِّ نصبٍ، عطفًا على محلِّ الكافِ؛ لأنَّ الكافَ مخفوضٌ في محلِّ نَصبٍ؛ فإنَّ ﴿حَسْبَكَ﴾ في معنى «كافِيك»، أي: اللهُ يكفيكَ، ويكفي مَنِ اتَّبعَك. والثالث: أن يكونَ في محلِّ رفعٍ، مبتدأً، والخبرُ محذوفٌ، أي: ومَن اتَّبعَك من المؤمنينَ فحسبُهُم اللهُ أيضًا، فيكونُ مِن بابِ عَطفِ الجُمَلِ(١).

المعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ نَبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائلًا له: يا أيُّها النبيُّ، اللهُ- وَحْدَه- هو كافيك وكافي أتباعِك مِن المُؤمِنينَ.

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣١٩). ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٣١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٦٣٢-٦٣٤). ((إعراب القرآن)) للدعَّاس (١/ ٤٣٧-٤٣٨).

وأمَّا القَولُ بأنَّ (مَنْ) في محلِّ رفعٍ، عَطفًا على اسمِ الجَلالةِ ﴿اللَّهُ﴾؛ فغَلَطٌ مِن حيثُ المعنى؛ إذ يصيرُ المعنى: حَسْبُك اللهُ والمُؤمنونَ؛ وذلك لأنَّ الحَسْبَ والكفايةَ لِلَّهِ وَحدَه، فهو كافي نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وكافي كذلك مَن اتَّبَعَه من المؤمنينَ؛ والآياتُ القُرآنيَّةُ تدُلُّ على تعيينِ هذا المعنى، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٥٩]، فجعَلَ الإيتاءَ للَّه ورَسولِه، وجَعَلَ الحَسْبَ له وَحدَه، فلم يَقُل: (وقالوا حَسْبُنا اللهُ ورَسولُه)، بل جعَلَ الحَسْبَ مُختَصًّا به تعالى. وقال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] فخصَّ الكِفايةَ التي هي الحَسْبُ به وَحدَه، وتمَدَّحَ تعالى بذلك في قَولِه: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢] ففرَّقَ بين الحَسْبِ والتَّأييدِ، فجعل الحَسْبَ له وَحدَه، وجعَلَ التأييدَ له بِنَصرِه وبعِبادِه، وأثنى اللهُ سُبحانه على أهلِ التَّوحيدِ والتوكُّلِ مِن عِبادِه؛ حيث أفرَدُوه بالحَسْبِ، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. ولم يقولوا: (حَسْبُنا اللهُ ورَسولُه)، فإذا كان هذا قَولَهم، ومَدَحَ الرَّبُّ تعالى لهم بذلك، فكيف يقولُ لِرَسولِه: (اللهُ وأتباعُك حَسْبُك)، وأتباعُه قد أفرَدُوا الرَّبَّ تعالى بالحَسْبِ، ولم يُشرِكوا بينه وبين رسولِه فيه، فإذا لم يَجُزْ أن يكونَ اللهُ ورَسولُه حَسْبَ المُؤمِنِ، كيف يكونُ المؤمنونَ مع اللهِ حَسْبًا لِرَسولِه. هذا مِن أمْحَلِ المُحالِ، وأبطَلِ الباطِلِ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ١٠٧-١٠٨)، ((منهاج السنة النبوية)) له أيضًا (٧/ ٢٠٥)، ((زاد المعاد)) لابن القيِّم (١/ ٣٧، ٣٨)، ((أضواء البيان)) للشِّنقيطي (٢/ ١٠٤).

يا أيُّها النبيُّ، حُثَّ المؤمنينَ على القِتالِ حثًّا شديدًا، فلْيَصبِروا عند لِقاءِ العَدُوِّ، ولْيَثبُتوا في قِتالِهم، فإنَّهم إن يوجدْ منهم عشرونَ رجلًا صابرونَ، يغلِبُوا مِئتينِ مِن الكافرينَ، وإن يُوجدْ منهم مئةٌ يغلِبوا ألفًا منهم، وذلك بسببِ أنَّ هؤلاء الكافرينَ قومٌ جهلةٌ بثوابِ الله، وما أعدَّ للمجاهدينَ في سبيلِه.

ثمَّ نسخ الله ذلك الحُكمَ الذي تقدَّمَ؛ تخفيفًا منه سبحانه، فقال: الآن خفَّفَ اللهُ عنكم- أيُّها المؤمنونَ- وعَلِمَ أنَّ فيكم مَن يَضعُفُ بَدنُه عن قتالِ عَشرةٍ مِن الكفَّارِ، فأوجَب عليكم أن يثبتَ الواحدُ منكم أمامَ اثنينِ مِن أعدائِكم بدلًا مِن عشرةٍ، معَ البشارةِ بأنَّه إن يكُن مِنكم مِئةٌ صابرةٌ، يَغلِبوا مِئتينِ، وإن يكُن منكم ألفٌ يَغلِبوا ألفينِ، بمَعونةِ الله لهم، والله مع الصَّابرينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وعَدَ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالنَّصرِ عند مُخادَعةِ الأعداءِ؛ وَعَدَه بالنَّصرِ والظَّفَرِ في هذه الآيةِ مُطلقًا(١).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

أي: يا أيُّها النبيُّ، اللهُ- وَحدَه- هو كافيك، وكافي مَنِ اتَّبَعَك مِن المؤمنينَ، ما يُهِمُّكم من أمورِ الدِّينِ والدُّنيا والآخرةِ، ومن ذلك تأييدُكم ونَصرُكم على أعدائِكم، وإن كثُروا، وقَلَّ عَدَدُكم(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٥٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٦/ ١٥٨)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٦٩، ١٧٠).

كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].

وقال سُبحانه: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((حَسْبُنا اللهُ ونِعمَ الوكيلُ، قالها إبراهيمُ عليه السَّلامُ حين أُلقِيَ في النَّارِ، وقالها محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]))⁽¹⁾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وعَدَ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالكفايةِ والنَّصرِ، وكان ذلك مشروطًا بالاجتهادِ بحسبِ الطاقةِ، وبذلِ النَّفسِ والمالِ في المُجاهدةِ؛ أمرَه بأن يأمرَهم بالجدِّ في القتالِ، وعدمِ الهيبةِ للأبطالِ، في حالٍ مِن الأحوالِ، فليس عليه إلا أن يُحَرِّضَ المؤمنينَ على القتالِ؛ فإنه تعالى إنَّما يكفيه⁽²⁾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾.

أي: يا أيُّها النبيُّ، حُثَّ أتباعَك المؤمنينَ حثًّا شديدًا على قتالِ الأعداءِ؛ ففي قتالِهم خَيرٌ في الدُّنيا والآخرةِ⁽³⁾.

---

(١) رواه البخاري (٤٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٠٣-٥٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٦١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٤٢٣)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٤٤)، =

كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وعن أنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((انطلَقَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابُه حتى سبَقُوا المُشرِكينَ إلى بدرٍ، وجاء المُشرِكونَ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قُوموا إلى جنَّةٍ عَرْضُها السَّمَواتُ والأرضُ، يقولُ عُميرُ بنُ الحُمَامِ الأنصاريُّ: يا رسولَ اللهِ، جَنَّةٌ عَرْضُها السَّمواتُ والأرضُ؟! قال: نعم، قال: بَخٍ بَخٍ، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ما يَحمِلُك على قَولِك: بَخٍ بَخٍ؟! قال: لا واللهِ يا رسولَ اللهِ، إلَّا رَجاءةَ(١) أن أكونَ مِن أهْلِها، قال: فإنَّك مِن أهْلِها، فأخرَجَ تَمَراتٍ مِن قَرَنِه(٢)، فجعَلَ يأكُلُ مِنهنَّ، ثم قال: لَئِنْ أنا حَيِيتُ حتى آكُلَ تَمَراتي هذه، إنَّها لحياةٌ طَويلةٌ. قال: فرمى بما كان معه مِن التَّمرِ، ثم قاتَلَهم حتى قُتِلَ))(٣).

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

النَّاسِخُ والمَنسوخُ:

هذه الآيةُ مَنسوخةٌ، وناسِخُها الآيةُ التي بَعدَها، وهي قَولُه تعالى: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ

= ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٧٤).

(١) (رجاءة) بالمدِّ ونصبِ التاءِ، ومعناه: واللهِ ما فعلتُه لشيءٍ إلا لرجاءِ أن أكونَ مِن أهلِها. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٣/ ٤٥).

(٢) قَرَنِه: أي: جَعبة السِّهام، تُصنعُ مِن جلدٍ. يُنظر: ((مطالع الأنوار)) لابن قرقول (٥/ ٣٤٧).

(٣) رواه مسلم (١٩٠١).

وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾(١).

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: (لَمَّا نزَلَت: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ شقَّ ذلك على المُسلمين، حين فُرِضَ عليهم ألَّا يفِرَّ واحدٌ مِن عَشرةٍ، فجاء التَّخفيفُ فقال: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ فلمَّا خفَّفَ اللهُ عنهم من العِدَّةِ، نقَصَ مِن الصَّبرِ بِقَدرِ ما خَفَّف عنهم)(٢).

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

أي: إن يكُنْ منكم - أيُّها المؤمنونَ - عِشرونَ رَجُلًا، صابرونَ عندَ لِقاءِ العَدُوِّ، محتسِبونَ، ثابِتونَ، يَغلِبُوا مِئَتَيْنِ من عدوِّهم ويقهرُوهم، وإن يكُن منكم - أيُّها المؤمنونَ - مِئةٌ صابرةٌ محتسبةٌ ثابتةٌ يغلبوا ألفًا مِن الكافرينَ(٣).

---

(١) قال ابن كثير: (عن ابنِ عبَّاسٍ، قال: لَمَّا نزَلَت هذه الآيةُ ثَقُلت على المسلمينَ، وأعظَموا أن يُقاتِلَ عِشرونَ مِئتَينِ، ومئةٌ ألفًا، فخَفَّفَ اللهُ عنهم، فنسَخَها بالآيةِ الأخرى، فقال: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا...﴾ الآية، فكانوا إذا كانوا على الشَّطرِ مِن عَدُوٍّ لهم لم ينبَغِ لهم أن يَفِرُّوا مِن عَدُوِّهم، وإذا كانوا دون ذلك، لم يجِبْ عليهم قتالُهم، وجاز لهم أن يتحَوَّزوا عنهم... قال ابنُ أبي حاتم: ورُوِيَ عن مجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، والضحاك نحوُ ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٧).

وممَّن ذهَب مِن المفسِّرين إلى أنَّها منسوخةٌ: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطيةَ، وابنُ كثيرٍ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٤٨).

(٢) رواه البخاري (٤٦٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٦١، ٢٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٠٨)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٦).

وهذه الآيةُ وإن ورَدت بصيغةِ الخبرِ إلَّا أنَّ المرادَ بها الأمرُ بالصبرِ، وثباتِ الجماعةِ منهم =

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

أي: يَغلِبُ المؤمنونَ الصَّابرونَ الكافرينَ الأكثَرَ منهم عددًا؛ بسَبَبِ أنَّ الكافرينَ قَومٌ لا يفهمونَ عن الله شيئًا، ولا فقهَ عندَهم، ولا يرجونَ ثوابَ الله في قتالِهم، فلا علمَ عندهم بما أعدَّ الله للمجاهدينَ في سبيلِه؛ لذا لا يَثبُتون في القتالِ خَشيةَ أن يُقتَلوا⁽¹⁾.

﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾.

أي: الآنَ⁽²⁾ خفَّفَ اللهُ عنكم- أيُّها المؤمنونَ- ما أوجَبَه عليكم مِن مُصابَرةِ العِشرينَ المِئَتينِ، ومُصابرةِ المِئةِ الألفَ، وقد عَلِمَ اللهُ من قبلُ أنَّ فيكم مَن يَضعُفُ بَدَنُه عن قتالِ عَشرةٍ مِن الكافرينَ⁽³⁾.

= لعشرةِ أمثالِهم، وممَّن ذهَب إلى ذلك: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والبغويُّ، والرازي، وابن كُثيرٍ، والسَّعديُّ. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابنُ الجوزيِّ: (ومعنى الكلامِ: إن يكُن منكم عِشرونَ صابِرونَ يَثبُتونَ عند اللِّقاءِ، يَغلِبوا مِئَتين؛ لأنَّ المؤمنينَ يَحتَسِبونَ أفعالَهم، وأهل الشِّرك يُقاتِلون على غير احتسابٍ، ولا طلبِ ثَوابٍ). ((زاد المسير)) (٢/ ٢٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٦١، ٢٦٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٧٥، ١٧٦).

(٢) قال ابنُ عاشور: (والوقتُ المُستحضَرُ بِقَولِه: ﴿الْآنَ﴾ هو زمنُ نُزولِها... فمعنى قَولِه: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ﴾ أنَّ التَّخفيفَ المُناسِبَ لِيُسرِ هذا الدِّينِ رُوعِيَ في هذا الوقتِ، ولم يُراعَ قَبلَه لمانعٍ منَعَ مِن مُراعاتِه، فرجَحَ إصلاحُ مَجموعِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٦٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٠٨)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٠٦)، ((تفسير النسفي)) (١/ ٦٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٥)، ((تفسير =

﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

أي: فإنْ يكُن منكم- أيُّها المؤمنونَ- مِئةٌ، صابرةٌ، ثابتةٌ عندَ القتالِ، يغلبوا مِئَتين من الكافرينَ، وإن يكُنْ منكم ألفٌ صابرونَ كذلك، يغلِبوا ألفينِ مِن الكافرينَ بمعونةِ الله تعالى لهم⁽¹⁾.

﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

أي: واللهُ يُؤيِّدُ الصَّابرينَ، وينصُرُهم ويُعينُهم ويُوفِّقُهم⁽²⁾.

الفوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا وعدٌ مِن الله لعبادِه المؤمنينَ المتَّبِعينَ لِرَسولِه، بالكفايةِ والنُّصرةِ على الأعداءِ، فإذا أتَوْا بالسَّبَبِ الذي هو الإيمانُ والاتِّباعُ، فلا بدَّ أن يكفِيَهم ما أهمَّهم من أمورِ الدِّينِ والدُّنيا، وإنَّما تتخلَّفُ الكفايةُ بتخَلُّفِ شَرْطِها⁽³⁾.

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ يدُلُّ على أنَّ مِن شأنِ المُؤمنينَ أن يكونوا أعلَمَ مِن الكافرينَ، وأفقَهَ بكُلِّ عِلمٍ وفَنٍّ يتعلَّقُ بحياةِ البَشَرِ، وارتقاءِ الأُمَمِ⁽⁴⁾.

= السعدي)) (ص: ٣٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٤٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٦٢)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٠٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٦٧).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ... وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فيه الحثُّ على الصَّبرِ(١).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فيه تحذيرٌ لِلمُؤمنينَ مِن الغُرورِ بدينِهم؛ لِئلَّا يَظُنُّوا أنَّ الإيمانَ وَحدَه يقتضي النَّصرَ والغَلَبَ، وإن لم يَقتَرِنْ بصفاتِه اللَّازمةِ لِكَمالِه، ومن أعظَمِها الصَّبرُ والفِقه(٢).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿واللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ولم يَقلْ: (معكم)؛ لِيُفيدَ أنَّ مَعونَته إنَّما تُمِدُّهم إذا صار الصَّبرُ وصفًا لازمًا لهم(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ ليس هذا تكريرًا لِما قَبلَه؛ فإنَّ الأوَّلَ ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ مُقيَّدٌ بإرادةِ الخَدْعِ، فهذه كفايةٌ خاصَّةٌ، وفي قَولِه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ كفايةٌ عامَّةٌ غيرُ مُقيَّدةٍ، أي: حسْبُك اللهُ في كلِّ حالٍ(٤).

٢- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ ﴿صَابِرُونَ﴾ أي: عُرِفوا بالصَّبرِ، والمَقدِرةِ عليه، وذلك باستيفاءِ ما يقتَضيه مِن أحوالِ الجَسدِ، وأحوالِ النَّفسِ، وفيه إيماءٌ إلى توخِّي انتقاءِ الجَيشِ، فيكونُ قيدًا للتَّحريضِ، أي: حَرِّضِ المؤمنينَ الصَّابرينَ الذين لا يَتَزلزَلونَ، فالمقصودُ ألَّا يكونَ فيهم مَن هو ضَعيفُ النَّفسِ، فيفشَلَ الجَيشُ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦٧).

٣- في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ تهوينٌ لِشأنِ الكُفَّارِ في القتالِ- الذي هو مُقتضى تلك الصِّفاتِ والأحوالِ- بِجَعلِ المؤمنينَ المُستكمِلي صِفاتِ الإيمانِ يَغلِبونَ ضِعفَيهم إلى عَشرةِ أضعافِهم مِن الكُفَّارِ⁽¹⁾.

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ذُكِرَ في جانِبِ جَيشِ المُسلمينَ في المرَّتَينِ عددُ العِشرينَ وعَددُ المِئة، وفي جانبِ جيشِ المُشركينَ عَددُ المِئَتين وعددُ الألفِ؛ إيماءً إلى قِلَّةِ جيشِ المُسلمينَ في ذاتِه، مع الإيماءِ إلى أنَّ ثَباتَهم لا يختَلِفُ باختلافِ حالةِ عَددِهم في أنفُسِهم؛ فإنَّ العادةَ أنَّ زيادةَ عددِ الجَيشِ تقَوِّي نفوسَ أهلِه، ولو مع كونِ نِسبةِ عَددِهم من عددِ عَدُوِّهم غيرَ مُختلفةٍ، فجعَلَ اللهُ الإيمانَ قُوَّةً لنفوسِ المُسلمينَ، تَدفَعُ عنهم وَهَنَ استشعارِ قِلَّةِ عَددِ جَيشِهم في ذاتِه⁽²⁾.

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ اختيارُ لَفظِ العِشرينَ للتَّعبيرِ عن مرتبةِ العَشَراتِ دونَ لَفظِ العشرةِ. قيل إنَّ وَجهَه: أنَّ لَفظَ العِشرينَ أسعَدُ بتقابُلِ السَّكَناتِ في أواخِرِ الكَلِم؛ لأنَّ لِلَفظةِ مِئَتينِ من المناسَبةِ بِسَكَناتِ كَلِماتِ الفَواصِلِ من السورة؛ ولذلك ذَكَرَ المئةَ مع الألْفِ؛ لأنَّ بَعْدَها ذِكرَ مُمَيِّزِ العَددِ بألفاظٍ تُناسِبُ سكَناتِ الفاصلةِ، وهو قَولُه: ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾، فتعَيَّنَ هذا اللَّفظُ؛ قَضاءً لحقِّ الفَصاحةِ⁽³⁾. وقيل فيه وجهٌ آخر: أنَّه ابتُدِئَ في العشراتِ بثاني عُقودِها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وفي المئاتِ والآلاف بأوَّلِها؛ لأنَّ الأصلَ الابتداءُ بأوَّلِ العُقودِ، لكِنْ لو قيلَ: (إنْ يكنْ منكم عَشرةٌ صابرةٌ يغلبوا مئةً) لربَّما تُوُهِّمَ أنَّه لا تجبُ مصابرةُ الواحِدِ للعَشرةِ إلَّا عند بلوغِ المؤمنينَ هذا العَقدَ، فعَدَلَ إلى الابتداءِ بثاني عقودِ هذه المرتبةِ؛ لينتفِيَ هذا المحذورُ، فلمَّا انتفى، وعُلِمَ أنَّه يجِبُ مُصابرةُ كُلِّ واحِدٍ لِعَشرةٍ، ذَكَرَ باقيَ المراتِبِ في الباقي، على الأصلِ المُعتادِ⁽¹⁾.

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ فيه أنَّ الكُفرَ سَببٌ في انتفاءِ الفَقاهةِ؛ فالكُفرُ مِن شَأنِه إنكارُ ما ليس بمَحسوسٍ، فصاحِبُه ينشأُ على إهمالِ النَّظَرِ، وعلى تعطيلِ حَركاتِ فِكرِه، فهم لا يُؤمِنونَ إلَّا بالأسبابِ الظَّاهريَّةِ، فيحسَبونَ أنَّ كَثرَتَهم تُوجِبُ لهم النَّصرَ على الأقلِّينَ؛ ولأنَّهم لا يُؤمِنونَ بما بعد الموتِ مِن نعيمٍ وعذابٍ، فهم يَخشَونَ الموتَ، فإذا قاتلوا ما يُقاتِلونَ إلَّا في الحالةِ التي يكونُ نَصرُهم فيها أرجَحَ، والمؤمنونَ يُعوِّلونَ على نصرِ الله، ويَثْبُتونَ للعدُوِّ رجاءَ إعلاءِ كَلمةِ الله، ولا يَهابُونَ الموتَ في سبيلِ الله؛ لأنَّهم مُوقِنونَ بالحياةِ الأبديَّةِ المُسِرَّةِ بعد الموتِ⁽²⁾.

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ نصَّ تعالى على سبَبِ الغَلَبةِ، بأنَّ الكُفَّار قومٌ لا يَفقهونَ، والمعنى أنَّهم قومٌ جَهَلةٌ؛ يُقاتِلونَ على غيرِ احتسابٍ، وطلبِ ثوابٍ، كالبهائمِ، فتَفُلُّ نِيَّاتُهم، ويَعدَمونَ لِجَهلِهم باللهِ نُصرتَه، فهو تعالى يخذُلُهم، وذلك بخلافِ مَن يُقاتِلُ على بصيرةٍ، وهو موعودٌ مِن اللهِ بالنَّصرِ والغَلَبةِ⁽³⁾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٥٠).

٨- قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ فيه سِرٌّ لطيفٌ عَظيمٌ، وتعليمٌ سماويٌّ هائلٌ، يَفهَمُ به المسلمونَ أنَّ أوَّلَ شَيْءٍ من الأساسيَّاتِ للاستعدادِ للمَيدانِ هو الفِقْهُ والفَهْمُ عن الله، فيَجِبُ كُلَّ الوجُوبِ أن يُعلَّمَ العَسْكَرِيُّونَ عَنِ اللهِ حَتَّى يَفْقَهُوا؛ لأنهم إذا كانوا فَاهِمِين عَنِ الله، عارفين بِنُبْلِ المَبْدَأ الذي يُقاتِلونَ عليه؛ كانوا شُجعانًا وصابِرينَ، لا يَرجِعونَ القَهقَرَى، ولا يُهزَمونَ، كما سَجَّلَهُ التاريخُ لأوائِلِ هذه الأُمَّةِ. وإن كانوا لا يَفقَهونَ عن الله شيئًا، جَهَلَةً كالأنعام، لا مبدأَ لهم يُقاتِلونَ عليه، فهم ليسُوا بأساسٍ، ولا مُعَوَّلَ عليهم، يُهزَمونَ مع كلِّ ناعقٍ، كما بيَّنَتْه هذه الآيةُ العظيمةُ الكريمةُ مِن سورةِ الأنفالِ⁽¹⁾.

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ﴾ وقَولُه: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ دَلالةٌ على أنَّ ثَباتَ الواحدِ مِن المُسلمينَ للعَشرةِ مِن المشركينَ، كان وجوبًا وعزيمةً، وليس نَدبًا، خلافًا لِما نُقِلَ عن بعضِ العُلَماءِ؛ لأنَّ المندوبَ لا يَثقُلُ على المكلَّفينَ، ولأنَّ إبطالَ مشروعيَّةِ المندوبِ لا يُسمَّى تَخفيفًا، ثمَّ إذا أُبطِلَ النَّدبُ لَزِمَ أن يصيرَ ثَباتُ الواحِدِ للعَشرةِ مُباحًا، مع أنَّه تعريضُ الأنفُسِ للتَّهلُكةِ⁽²⁾.

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فيه وجوبُ مُصابَرةِ الضِّعفِ مِن العَدُوِّ، وتحريمُ الفِرارِ، ما لم يَزِدْ عددُ الكُفَّارِ مِثلَيْنا⁽³⁾.

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فيه الرَّدُّ على مَن اعتبَرَ

---

(1) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٧٦).

(2) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٠).

(3) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٣٦-١٣٧).

الكَثرةَ في السِّلاحِ والقُوَّةِ، دونَ العَددِ(١).

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فيه الرَّدُّ على مَن منعَ نَسخَ الأثقَلِ بالأخَفِّ(٢).

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وَصفُ المئةِ في آيةِ التَّخفيفِ بالصَّابرةِ؛ لأنَّ الصَّبرَ شَرطٌ لا بُدَّ منه في كُلِّ حالٍ وكلِّ عددٍ، مع عَدمِ وَصفِ المئةِ في الأولى؛ لِئلَّا يُتوَهَّمَ أنَّه شَرطٌ في العددِ القَليلِ كالعِشرينَ، دونَ الكثيرِ كالمِئةِ والألفِ، ولم يَذكُرْه في الألْفِ استغناءً بما قَبلَه(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

- قَولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ﴾ فيه تَصديرُ الجُملةِ بحَرْفِي النِّداءِ والتَّنبيهِ ﴿يَا أَيُّهَا﴾؛ للتَّنبيهِ على مَزيدِ الاعتِناءِ بمَضمونِها، وإيرادُهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعُنوانِ النبوَّةِ؛ للإشعارِ بعِلِّيَّتِها للحُكمِ(٤).

٢- قَولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه تَكريرُ الخِطابِ على الوَجهِ

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٣٦-١٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٣).

المذكورِ؛ لإظهارِ كَمالِ الاعتناءِ بشَأنِ المأمورِ به⁽¹⁾.

- وجملةُ: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ ولذلك فُصِلتْ، ولم تُعطَفْ على التي قَبْلها⁽²⁾، وفيها وَعْدٌ كريمٌ منه تعالى بتَغليبِ كلِّ جماعةٍ من المؤمنينَ على عَشرةِ أَمْثالِهم بطريقِ الاستئنافِ بَعدَ الأمرِ بتَحريضِهم⁽³⁾.

- قَولُ الله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذا أمرٌ في صُورةِ الخَبَرِ، وفي إتيانِه بلَفظِ الخَبَرِ نكتةٌ بديعةٌ، لا تُوجَدُ فيه إذا كان بلَفظِ الأمرِ، وهي تقويةُ قُلوبِ المؤمنينَ، والبِشارةُ بأنَّهم سيَغلِبونَ الكافِرينَ⁽⁴⁾.

- قَولُ الله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ إجراءُ نَفيِ الفَقاهةِ صِفةً لـ ﴿قَوْمٌ﴾ دونَ أن يُجعَلَ خبرًا، فيقال: (ذلك بأنَّهم لا يَفقَهونَ)؛ لِقَصدِ إفادةِ أنَّ عدَمَ الفَقاهةِ صِفةٌ ثابتةٌ لهم، ومِن مقوِّماتِ قوميَّتِهم وخصائِصِها؛ لِئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ نَفيَ الفقاهةِ عنهم في خُصوصِ هذا الشَّأنِ⁽⁵⁾.

٣- قَولُه تعالى: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

- قوله: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنكُمْ أَلْفٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٦٨).

يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾ فيه ذِكْرُ الصَّبر في أُولَى جُمْلَتَي التَّخفيفِ فقط، وحذْفُه من الثَّانيةِ لدَلالةِ السَّابقةِ عليه؛ وذلِك لأنَّ الصبرَ شديدُ المطلوبيَّةِ(١).

– قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾ أُعيدَ وَصفُ مِئةِ المُسلمين بـ ﴿صَابِرَةٌ﴾؛ لأنَّ المقامَ يقتضي التَّنويهَ بالاتِّصافِ بالثَّباتِ، ولم تُوصَفْ مِئةُ الكُفَّارِ بالكُفرِ، وبأنَّهم قومٌ لا يفقهونَ؛ لأنَّه قد عُلِمَ، ولا مُقتضِيَ لإعادَتِه(٢).

– قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ إذنُ اللهِ حاصِلٌ في كِلتا الحالَتينِ: المَنسوخةِ والنَّاسِخةِ، وإنَّما صرَّحَ به هنا، دونَ ما سبَقَ؛ لأنَّ غَلَبَ الواحدِ لِلعَشرةِ أظهَرُ في الخَرقِ للعادةِ، فيُعلَمُ بَدءًا أنَّه بإذنِ اللهِ، وأمَّا غلَبُ الواحِدِ الاثنينِ، فقد يُحسَبُ ناشِئًا عن قوَّةِ أجسادِ المُسلِمينَ، فنبَّهَ على أنَّه ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾؛ لِيُعلَمَ أنَّه مُطَّرِدٌ في سائِرِ الأحوالِ(٣).

– قولُه: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ اعتراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قَبْله(٤)، والخِتامُ به مُبالغةٌ في شِدَّة المطلوبيَّةِ للصَّبرِ(٥).

– وفي الآيتَينِ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حَيثُ كُرِّر المعنى الواحدُ- وهو مقاومةُ الجماعةِ لأَكْثَر منها- مرَّتينِ؛ قَبلَ التخفيفِ وبَعدَه؛ للدَّلالةِ على أنَّ الحالَ مع القِلَّةِ والكثرةِ واحدةٌ لا تتفاوتُ؛ لأنَّ الحالَ قد تتفاوتُ بين مُقاومةِ العِشرين المِئتين والمِئةِ الألْفَ، وكذلك بين مُقاومةِ المئةِ المئتَينِ والألفِ الألفينِ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٧٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٤٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٣٥).

الآيات (٦٧-٧١)

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٩) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٠) وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُثْخِنَ﴾: أي: يُبالِغَ في قتلِ المُشركينَ ويَقهَرَهم، والإثْخانُ في كلِّ شَيءٍ: قُوَّتُه وشِدَّتُه. وأصلُ (ثخن): يدلُّ على رزانةِ الشَّيءِ في ثِقلٍ؛ فإثخانُ القَتلِ: الشِّدَّةُ والمُبالغةُ فيه حتى يُترَكَ القَتيلُ مُثقَلًا، لا حِراكَ به(١).

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ تعالى أنَّه ما كان ينبغي لنبيٍّ أن يتَّخِذَ أسرَى من الكُفَّارِ المُحاربينَ، حتى يبالِغَ في قَتلِهم ويَغلِبَهم، فلا يَقوونَ بعدَ ذلك على قتالِ المؤمنينَ، وخاطبَ المؤمنينَ قائلًا لهم: تريدونَ نَيلَ متاعٍ دُنيويٍّ زائلٍ بأسْرِ الكُفَّارِ المُنهَزمينَ يومَ بَدرٍ؛ لأخْذِ الفِديةِ منهم، واللهُ يريدُ لكم ثوابَ الآخرةِ، واللهُ عَزيزٌ حكيمٌ، لولا قضاءٌ مِن اللهِ سبَقَ، لنالَكم بسببِ أخْذِكم الفِداءَ مِن كُفَّارِ قُريشٍ عذابٌ عظيمٌ.

وأمَرَهم أن يأكُلوا ممَّا غَنِموا حَلالًا طيِّبًا، وأن يتَّقُوا اللهَ، إنَّ اللهَ غَفورٌ رَحيمٌ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٢)، ((أساس البلاغة)) للزمخشري (١/ ١٠٥)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/ ٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٩).

ثم أمَرَ اللهُ نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُخاطِبَ مَن أسَرُوهم يومَ بَدرٍ، وأخَذُوا منهم الفديةَ لإطلاقِهم، فيقولَ لهم: إنْ يَعلَمِ اللهُ في قلوبِكم إسلامًا وإيمانًا صحيحًا يُعطِكم مِن خَيرِ الدُّنيا والآخرةِ أفضَلَ ممَّا أخَذَه المُسلمونَ منكم، ويستُرْ ذُنوبَكم ولا يُؤاخِذْكم بها، واللهُ غَفورٌ رحيمٌ.

ثم قال لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّهم إن يُريدُوا خيانَتك فقد خانوا اللهَ مِن قَبلُ، فأقدَرَ المؤمنينَ عليهم فأسَرُوهم، واللهُ عليمٌ حَكيمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

ختَمَ اللهُ تعالى سياقَ القِتالِ في هذه السُّورةِ بأحكامٍ تتعَلَّقُ بالأَسرى؛ لأنَّ أُمورَها يُفصَلُ فيها بعد القِتالِ في الغالِبِ(١).

سَببُ النُّزولِ:

عن أبي زُمَيْلٍ سِماكٍ الحنفيِّ، قال: حدَّثني عبدُ اللهِ بنُ عبَّاسٍ قال: حدَّثني عُمَرُ بنُ الخطَّابِ قال: ((لَمَّا كان يومُ بَدرٍ نظر رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى المُشركينَ وهم ألفٌ، وأصحابُه ثلاثُمئةٍ وتِسعةَ عَشرَ رَجلًا، فاستقبلَ نبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم القِبلةَ، ثمَّ مدَّ يَدَيه، فجعَلَ يهتِفُ بِرَبِّه: اللهُمَّ أنجِزْ لي ما وعَدْتَني، اللهُمَّ آتِ ما وعَدْتَني، اللهمَّ إن تَهْلِكْ هذه العِصابةُ مِن أهلِ الإسلامِ، لا تُعبَدْ في الأرضِ، فما زالَ يهتِفُ بِرَبِّه، مادًّا يَدَيه مُستقبِلَ القِبلةِ، حتى سقَطَ رِداؤُه عن مَنكِبَيه، فأتاه أبو بكرٍ، فأخذَ رداءَه، فألقاه على مَنكِبَيه، ثم التَزَمه

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٧٢).

مِن ورائِه، وقال: يا نبيَّ الله، كفاك مُناشَدتُك ربَّك؛ فإنَّه سيُنجِزُ لك ما وعَدَك! فأنزل الله عزَّ وجَلَّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] فأمدَّه اللهُ بالملائكةِ، قال أبو زُمَيلٍ: فحدَّثني ابنُ عبَّاسٍ قال: بينما رجلٌ مِن المُسلمين يومَئذٍ يَشتَدُّ في أثَرِ رجُلٍ مِن المُشركينَ أمامَه، إذ سَمِعَ ضَربةً بالسَّوطِ فَوقَه، وصَوتَ الفارِسِ يقولُ: أقدِمْ حَيزومُ، فنظَرَ إلى المُشرِك أمامَه فخَرَّ مُستلقِيًا، فنظر إليه فإذا هو قد خُطِمَ⁽¹⁾ أنفُه، وشُقَّ وجهُه، كضربةِ السَّوطِ، فاخضَرَّ ذلك أجمَعُ⁽²⁾! فجاء الأنصاريُّ فحَدَّث بذلك رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: صَدَقْتَ، ذلك من مَدَدِ السَّماءِ الثَّالثةِ، فقتَلوا يومَئذٍ سَبعينَ، وأسَرُوا سبعينَ، قال أبو زُمَيلٍ: قال ابنُ عبَّاسٍ: فلمَّا أسَرُوا الأُسارى، قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لأبي بكرٍ وعُمَرَ: ما تَرَونَ في هؤلاءِ الأُسارى؟ فقال أبو بكرٍ: يا نبيَّ الله، هم بنو العَمِّ والعشيرةِ، أرى أن تأخُذَ منهم فِديةً، فتكونَ لنا قُوَّةً على الكُفَّارِ، فعسى اللهُ أن يَهدِيَهم للإسلامِ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ما ترى يا ابنَ الخطَّابِ؟ قلتُ: لا واللهِ يا رسولَ اللهِ، ما أرى الذي رأى أبو بكرٍ، ولكنِّي أرى أن تُمكِّنَّا فنضرِبَ أعناقَهم، فتُمَكِّنَ عليًّا مِن عَقيلٍ، فيضرِبَ عُنُقَه، وتمكِّنِّي من فلانٍ- نَسيبًا لِعُمَرَ- فأضرِبَ عُنقَه؛ فإنَّ هؤلاءِ أئمَّةُ الكُفرِ وصناديدُها، فهَوِيَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما قال أبو بكرٍ، ولم يَهْوَ ما قُلتُ، فلمَّا كان من الغَدِ جِئتُ، فإذا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأبو بكرٍ قاعِدَينِ يَبكيانِ، قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، أخبِرْني من أيِّ شَيءٍ تبكي أنت وصاحِبُك؟! فإن وَجَدْتُ بكاءً بكيتُ، وإن لم أجِدْ بُكاءً تباكَيتُ لِبُكائِكما، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أبكي للَّذي عَرَضَ عليَّ أصحابُك مِن

---

(١) الخطمُ: الأثرُ على الأنفِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ٨٦).

(٢) فاخضرَّ ذلك أجمعُ: أي: صار موضعُ الضربِ كلُّه أخضرَ أو أسودَ؛ فإنَّ الخضرةَ قد تُستعملُ بمعنَى السوادِ، كعكسِه؛ للمبالغةِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا القاري (٩/ ٣٧٨٢).

أخْذِهم الفِداءَ، لقد عُرِضَ علي عذابُهم أدنى مِن هذه الشَّجرةِ- شَجرةٍ قريبةٍ مِن نبيِّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- وأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ) إلى قَولِه: (فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا) فأحلَّ اللهُ الغنيمةَ لهم))⁽¹⁾.

وعن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قال: قال عُمَرُ: ((وافقتُ ربِّي في ثلاثٍ: في مقامِ إبراهيمَ، وفي الحِجابِ، وفي أُسارى بَدرٍ))⁽²⁾.

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: ما ينبغي لنبيٍّ أن يـأسِرَ أحدًا مِن الكُفَّارِ المُحارِبين، فيحبِسَهم لأخْذِ فداءٍ ماليٍّ منهم، في مُقابِلِ إطلاقِ سَراحِهم، ما ينبغي أن يفعَلَ ذلك قبل أن يُبالِغَ في قَتلِهم ويَغلِبَهم، ويتمَكَّنَ في الأرضِ⁽³⁾.

---

(١) رواه مسلم (١٧٦٣).

(٢) رواه مسلم (٢٣٩٩).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (١/ ٤١٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٧٠، ٢٧١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٧٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٥٤ - ٢٥٦)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٨٠).

وقال القرطبي: (هذه الآيةُ نزلتْ يومَ بدرٍ، عتابًا مِن الله عزَّ وجلَّ لأصحابِ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، والمعنَى: ما كان ينبغي لكم أن تفعلوا هذا الفعلَ الذي أوجَب أن يكونَ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أسرَى قبلَ الإثخانِ، ولهم هذا الإخبارُ بقولِه: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾، والنبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم لم يأمرْ باستبقاءِ الرِّجالِ وقتَ الحربِ، ولا أراد قطُّ عرضَ الدُّنيا، وإنَّما فعلَه جمهورُ مباشري الحربِ، فالتوبيخُ والعتابُ إنَّما كان متوجهًا بسببِ مَن أشار على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بأخذِ الفديةِ، هذا قولُ أكثرِ المفسِّرين، وهو الذي لا يصحُّ غيرُه، وجاء ذكرُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في الآيةِ حينَ لم ينهَ عنه حينَ رآه مِن العريشِ، وإذ كره سعدُ بنُ معاذٍ وعمرُ بنُ الخطَّابِ وعبد الله بنُ رواحةَ، ولكنَّه عليه السلامُ شغَله بغتُ الأمرِ، ونزولُ النَّصر، فترَكَ النهيَ عن الاستبقاءِ، ولذلك بكَى هو وأبو بكرٍ حينَ نزَلت الآياتُ. والله أعلم﴾. ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٤٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٤).

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤].

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾.

أي: تُريدونَ- أيُّها المؤمنونَ- نَيلَ مَتاعِ الدُّنيا الزَّائلةِ بأسْرِ الكُفَّارِ المُنهَزِمينَ يَومَ بَدرٍ؛ لأخْذِ الفِديةِ منهم، واللهُ يُريدُ لكم ثوابَ الآخرةِ بإثخانِهم؛ إعزازًا لِدينِه، ونُصرةً لِعبادِه، وإعلاءً لكَلِمتِه سُبحانَه وتعالى⁽¹⁾.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: واللهُ عزيزٌ لا يُغلَب ولا يُقهَرُ، فإنْ أرَدْتُم بجهادِكم الآخرةَ، نَصَرَكم اللهُ على عَدُوِّكم، وهو حكيمٌ في تدبيرِ شُؤونِ خَلْقِه ومَصالِحِهم، ولو شاء أن ينتَصِرَ مِن الكُفَّارِ دون قتالٍ لَفَعَل، لكِنَّ حِكمَتَه تقتضي أنْ يبتلِيَ بَعضَكم ببعضٍ⁽²⁾.

﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾.

أي: لولا قضاءٌ من الله سبَقَ لكم- يا أهلَ بَدرٍ- في اللَّوحِ المَحفوظِ بأنَّ اللهَ مُحِلٌّ لكم الغَنائِمَ، وأخْذَ الفِداءِ مِن الكُفَّارِ، وبأنَّه لا يُعذِّبُ أحدًا إلَّا بعد قيامِ الحُجَّةِ عليه، وأنَّه لا يعذِّبُ أحدًا شَهِدَ بدرًا مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- لَنالَكم بسبَبِ أخْذِكم الفِداءَ مِن كفَّارِ قُريشٍ، عذابٌ عَظيمٌ⁽³⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٢، ٥٥٣)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٨١). قال الرازي: (أجمَعَ المُفَسِّرونَ على أنَّ المرادَ مِن عَرَض الدُّنيا هاهنا، هو أخْذُ الفِداءِ). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٧١)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٧٦، ٢٨٢، ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٥٠)، ((شفاء =

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تضَمَّنَ قَولُه تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ امتنانًا عليهم بأنَّه صرَفَ عنهم العذابَ؛ فَرَّعَ على الامتنانِ الإذنَ لهم بأن ينتَفِعوا بمالِ الفِداءِ في مصالِحِهم، ويتوسَّعُوا به في نَفَقاتِهم، دونَ نَكَدٍ ولا غُصَّةٍ، فإنَّهم استغنَوْا به مع الأمْنِ مِن ضُرِّ العَدُوِّ بفَضلِ اللهِ، فتلك نِعمةٌ لم يَشُبْها أذًى(١).

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾.

أي: قد أحلَلْتُ لكم- أيُّها المؤمنونَ- أخْذَ الغَنائِمِ والفِديةِ مِن الكُفَّارِ، فكُلوا ممَّا غَنِمتُم مِن أموالِهم حالَ كَونِه حلالًا قد أحلَّه الله لكم، هنيئًا مُستلذًّا، لا خُبثَ فيه(٢).

= العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٧٩، ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٩).

قال الرازي: (أجمَعُوا على أنَّ المرادَ بِقَولِه: ﴿أَخَذْتُمْ﴾ ذلك الفِداءُ). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٠٩).

وقال ابن عاشور: (العذابُ يجوزُ أن يكونَ عذابَ الآخرةِ، ويجوز أن يكونَ العَذابُ المنفيُّ عذابًا في الدُّنيا، أي: لولا قَدَرٌ من الله سبَقَ مِن لُطفِه بكم، فصَرَفَ بلُطفِه وعنايَتِه عن المؤمنينَ عذابًا، كان مِن شَأنِ أخْذِهم الفداءَ أن يُسَبِّبَه لهم، ويُوقِعَهم فيه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٧، ٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٤)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٢)، ((تفسير النسفي)) (١/ ٦٥٧، ٦٥٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧).

قال أبو حيان: (﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ أي: ممَّا [غَنِمتُموه]، ومنه ما حصل بالفِداءِ الذي أقَرَّه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم... وليس هذا الأمرُ مُنشِئًا لإباحةِ الغَنائِم؛ إذ قد سبق تحليلُها قبل يومِ بَدرٍ، ولكنَّه أمرٌ يُفيدُ التَّوكيدَ، واندراجَ مالِ الفداءِ في عُمومِ ما غَنِمتم؛ إذ كان قد وقع العِتابُ في المَيلِ للفِداءِ، ثمَّ أقَرَّه الرَّسولُ). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٥٤).

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لم تَحِلَّ الغَنائِمُ لأحدٍ مِن قَبلِنا؛ ذلك بأنَّ اللهَ تبارك وتعالى رأى ضَعْفَنا وعَجْزَنا، فطَيَّبها لنا))(١).

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أُعطيتُ خَمسًا لم يُعطَهنَّ أحَدٌ مِن الأنبياءِ قَبلي: نُصِرتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شَهرٍ، وجُعِلَت لي الأرضُ مَسجِدًا وطَهورًا، وأيُّما رَجُلٍ مِن أمَّتي أدركَتْه الصَّلاةُ فليُصَلِّ، وأُحِلَّت لي الغنائِمُ، وكان النبيُّ يُبعَثُ إلى قَومِه خاصَّةً، وبُعِثتُ إلى النَّاسِ كافَّةً، وأُعطِيتُ الشَّفاعةَ))(٢).

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

أي: واتَّقوا اللهَ- أيُّها المؤمنونَ- بِفعلِ ما أمَرَ، واجتنابِ ما نهى، فلا تَفعَلوا في دينِكم شيئًا لم يأذَنِ اللهُ لكم به(٣).

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: إنَّ الله غفورٌ لذُنوبِ المُؤمنينَ، فيَستُرُها عليهم، ويتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها؛ ولِهذا لم يُعاقِبْهم على أخذِهم الفداءَ، وهو رحيمٌ بهم، ومِن رَحمتِه أن أحَلَّ لهم الغنائِمَ، وأخْذَ الفِداءِ(٤).

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا

---

(١) رواه البخاري (٣١٢٤)، ومسلم (١٧٤٧)، واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٤٣٨) واللفظ له، ومسلم (٥٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧).

يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا أُخِذَ الفِداءُ مِن الأُسارى، وشَقَّ عليهم أخذُ أموالِهم، ذكَرَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ؛ استمالةً لهم⁽١⁾، فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾.

أي: يا أيُّها النبيُّ، قلْ لِمَن أسَرْتُموهم في غَزوةِ بَدرٍ، وأخَذْتُم منهم الفِديةَ لِإطلاقِهم: إنْ يَعلَمِ اللهُ في قُلوبِكم إسلامًا وإيمانًا صحيحًا، يُعطِكم في الدُّنيا مالًا، وفي الآخرةِ ثَوابًا أفضَلَ ممَّا أخَذَه المسلمونَ مِنكم⁽٢⁾.

عن أنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رِجالًا من الأنصارِ استَأْذَنوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقالوا: ائذَنْ لنا فلْنَترُكْ لابنِ أُختِنا عَبَّاسٍ فِداءَهُ، قال: واللَّهِ لا تَذَرونَ منهُ دِرهَمًا))⁽٣⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٩٣، ١٩٤).

قال الرازي: (واختلف المُفَسِّرون في أنَّ الآيةَ نازلةٌ في العبَّاسِ خاصَّةً، أو في جُملةِ الأُسارى. قال قومٌ: إنَّها في العبَّاسِ خاصَّةً، وقال آخرون: إنَّها نزلَتْ في الكُلِّ، وهذا أَوْلى؛ لأنَّ ظاهِرَ الآيةِ يقتضي العُمومَ مِن ستَّةِ أوجُهٍ... فما الموجِبُ للتَّخصيصِ؟! أقصى ما في البابِ أنْ يُقالَ: سَبَبُ نزولِ الآيةِ هو العبَّاسُ، إلَّا أنَّ العِبرةَ بِعُمومِ اللَّفظِ لا بخُصوصِ السَّبَبِ). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٣). وممَّن رأى عمومَ نُزولِ الآيةِ في أُسارى بدر: الشنقيطي. يُنظر: ((العذب النمير)) (٥/ ١٨٢، ١٨٣).

وجَعَلَها السَّعديُّ في أُسارى بدرٍ الذينَ ادَّعَوا الإسلامَ لَمَّا طُلِبَ منهم الفِداءُ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧).

(٣) رواه البخاري (٤٠١٨).

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: ويَغفِرْ لكم ذُنوبَكم فيَستُرُها عليكم، ولا يؤاخِذْكم بها، واللهُ غَفورٌ لذُنوبِ عِبادِه التَّائبينَ، رحيمٌ بهم، ومِن رَحمتِه ألَّا يُعاقِبَهم بعد تَوبتِهم(١).

﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١)﴾.

﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾.

أي: وإن يُرِدْ هؤلاءِ الأسرَى الغَدرَ بك، وخِداعَك- يا مُحمَّدُ- بإظهارِهم أقوالًا خلافَ ما يُبطِنونَ(٢)، فيَرجِعوا إلى إظهارِ الكُفرِ، وقِتالِ المُسلمينَ، والإعانةِ عليه؛ فقد كَفَروا باللهِ وعَصَوه مِن قَبلِ يَومِ بَدرٍ، فأقدَرَ اللهُ المؤمنينَ عليهم، فأسَرُوهم(٣).

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: واللهُ عليمٌ بكُلِّ شَيءٍ، ومن ذلك ما يُضمِرُونَه في قُلوبِهم من إخلاصٍ أو خيانةٍ، حكيمٌ في جَميعِ أقوالِه وأفعالِه، يَضعُ الأشياءَ في مَواضِعِها اللَّائقةِ بها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٩٤).

(٢) قال الشنقيطي: (كانوا يَقولونَ: آمَنَّا بك، وشَهِدْنا أنَّك رَسولُ اللهِ، واللَّهِ لَنَنصحَنَّ لك على قَومِك، ولنكونَنَّ معَك). ((العذب النمير)) (٥/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٦٣)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٨١-٨٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٩٥، ١٩٦).

قال ابن عاشور: (فكَمُلَ ذلك الإذنُ والتَّطييبُ بالتهنئةِ والطَّمأنة بأنْ ضَمِنَ لهم- إنْ خانَهم الأسرى بعد رُجوعِهم إلى قَومِهم، ونكَثوا عَهدَهم، وعادوا إلى القتالِ- بأنَّ اللهَ يُمكِّنُ المسلمينَ منهم مرَّةً أخرى، كما أمكَنَهم منهم في هذه المرَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٨١).

ومن ذلك مُجازاةُ الخائنينَ(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ختم الآيةَ بِقَولِه: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فهو سُبحانه وتعالى يُحِبُّ للمؤمنينَ أن يكونوا أعِزَّةً غالِبينَ ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، كما يُحِبُّ لهم أن يَكونوا حُكماءَ ربَّانيِّينَ، يضعونَ كلَّ شَيءٍ في مَوضِعه، وإنَّما يكونُ هذا بتقديمِ الإثخانِ في الأرضِ، والسِّيادةِ فيها، على المنافِعِ العَرضيَّةِ، بمِثلِ فِداءِ أسرى المُشركينَ، وهم في عُنفوانِ قُوَّتِهم وكَثرتِهم(٢).

٢- اللهُ تعالى لا يريدُ ما يُفضي إلى السَّعاداتِ الدُّنيويَّةِ التي تَعرِضُ وتَزولُ، وإنَّما يريدُ ما يُفضي إلى السَّعاداتِ الأُخرويَّةِ الدَّائمةِ الباقيةِ المَصُونة عن التَّبديلِ والزَّوالِ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾(٣).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ فيه تحذيرٌ مِن التَّوغُّلِ في إيثارِ الحُظوظِ العاجلةِ(٤).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ فيه بيانُ مُؤاخَذةِ اللهِ تعالى النَّاسَ على الأعمالِ النَّفسيَّةِ وإرادةِ السُّوءِ، بعد تَنفيذِها بالعَمَلِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٩٧، ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٨٣).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أمَرَ تعالى بتَقواه؛ لأنَّ التَّقوى حامِلةٌ على امتثالِ أمرِ اللهِ، وعَدمِ الإقدامِ على ما لم يتقَدَّمْ فيه إذْنٌ⁽¹⁾.

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ فيه أنَّه ما دام للكُفَّارِ شَرٌّ وصَولةٌ، فالأوفَقُ ألَّا يُؤسَروا، فإذا أُثخِنُوا، وبَطَل شَرُّهم، واضمحَلَّ أمرُهم؛ فحينئذٍ لا بأسَ بأخذِ الأسرَى منهم، وإبقائِهم⁽²⁾، فكلمةُ ﴿حَتَّى﴾ لانتهاءِ الغايةِ، فقولُه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ يدلُّ على أنَّ بعدَ حُصولِ الإثخانِ في الأرضِ له أن يُقدِمَ على الأسْرِ⁽³⁾.

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ لعلَّه عبَّرَ بوَصفِ النبوَّةِ؛ ليُفيدَ مع العُمومِ أنَّ كُلًّا مِن رِفعةِ القَدْرِ، والإخبارِ مِن اللهِ، يمنَعُ مِن الإقدامِ على فِعلٍ بدونِ إذنٍ خاصٍّ⁽⁴⁾.

٣- قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ الإثخانُ في الأرضِ ليس مَضبوطًا بضابطٍ مَعلومٍ مُعَيَّنٍ، بل المقصودُ منه إكثارُ القَتلِ، بحيث يُوجِبُ وُقوعَ الرُّعبِ في قلوبِ الكافرينِ، وألَّا يَجترئوا على مُحاربةِ المُؤمنينَ؛ وبلوغُ القَتلِ إلى هذا الحَدِّ المُعيَّنِ لا شكَّ أنَّه يكونُ مُفَوَّضًا إلى الاجتهادِ⁽⁵⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٠٩).

٤- قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ سمَّى منافِعَ الدُّنيا ومتاعَها عَرَضًا؛ لأنَّه لا ثباتَ له ولا دَوامَ، فكأنَّه يَعرِضُ ثمَّ يزولُ(١).

٥- قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ إنَّما ذَكَرَ مع الدُّنيا المُضافَ فقال: ﴿عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ ولم يَحذِفْ؛ لأنَّ في ذكرِه إشعارًا بعُروضِه، وسُرعةِ زوالِه(٢).

٦- قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فيه بيانُ مِنَّةِ اللهِ تعالى على أهلِ بَدرٍ: أنَّه لم يُعذِّبْهم فيما أَخَذوا بسوءِ الإرادةِ، أو بغيرِ حَقٍّ، وفي هذه المنَّةِ بعد الإنذارِ الشَّديدِ خَيرُ تَربيةٍ لأمثالِهم مِن الكاملينَ، ترباً بأنفُسِهم عن مِثلِ ذلك الاستشرافِ، لا أنَّها تُجَرِّئهم عليه، كما توهَّم بعضُ النَّاسِ(٣).

٧- قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يدلُّ على أنَّ لِلَّه حُكمًا في كلِّ حادثةٍ، وأنَّه نصَبَ على حُكمِه أمارةً، هي دليلُ المُجتَهِد، وأنَّ مُخطِئَه مِن المُجتهدينَ لا يأثَمُ، بل يُؤجَرُ.

٨- في قولِه تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ رَدٌّ على المعتزلةِ والقَدَرِيَّة فيما يُنكرون مِن الكتابِ السَّابقِ(٤).

٩- لَمَّا تقَدَّمَ الأمرُ بالإثخانِ في قَولِه تعالى: ﴿فَشَرِّدْ بِهِمْ﴾ ثمَّ بإعدادِ القُوَّةِ، ثمَّ التَّحريضِ على القِتالِ بعد الإعلامِ بالكِفايةِ، ثمَّ إيجابِ ثَباتِ الواحِدِ لِعَشرةٍ، ثمَّ إنزالِ التَّخفيفِ إلى اثنينِ- كان ذلك مُقتَضيًا للإمعانِ في الإثخانِ، فحَسُنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٨٣).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٧٥).

عِتابُ الأحباب في اختيارِ غَيرِ ما أفهَمَه هذا الخِطاب؛ لِكَونِ ذلك أقعَدَ في الامتنانِ عليهم بالعَفوِ والغُفرانِ، بسبَبِ أنَّ أكثَرَهم مالَ إلى فِداءِ الأُسارى(١).

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ عبَّرَ عن الانتفاعِ الهنيءِ بالأكلِ؛ لأنَّ الأكلَ أقوى كيفيَّاتِ الانتفاعِ بالشَّيءِ؛ فإنَّ الآكِلَ يَنعَمُ بلذاذةِ المأكولِ، وبِدَفعِ ألَمِ الجُوعِ عن نفسِه، ودفعُ الألمِ لَذاذةٌ، ويُكسِبُه الأكلُ قُوَّةً وصِحَّةً، والصِّحَّةُ مع القُوَّةِ لَذاذةٌ أيضًا(٢).

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ذكَّرَهم اللهُ تعالى بتَقواه، وهو يَذكُرُ لهم رَحمَته ومَغفِرتَه؛ لِتتوازنَ مَشاعِرُهم تجاهَ رَبِّهم، فلا تَغُرَّهم المغفرةُ والرَّحمةُ، ولا تُنسيَهم التَّقوى والتَّحرُّجَ والمخافةَ(٣).

١٢- في قولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ دليلٌ على أنَّ المفاداةَ بالمال جائزةٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى- وإنْ كان أنكرَ الإبقاءَ على الأسرى قَبْلَ الإثخانِ- فقد أباح لهم ما أخَذوا مِن المالِ بالفداءِ، وسمَّاه غنيمةً، فقال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾(٤).

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ أقبل على نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالأمرِ بِمُخاطَبتِهم؛ تنبيهًا على أنَّهم لَيسُوا بأهلٍ لِخِطابِه سبحانَه،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٥٥٣).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٧٥).

بما أبعَدُوا أنفُسَهم عنه؛ مِن اختيارِهم الكَونَ في زُمرةِ الأعداءِ، على الكَونِ في عِدادِ الأولياءِ(١).

١٤- قال الله تعالى: ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ يدلُّ على أنَّ محلَّ نَظرِ اللهِ مِن عَبدِه، إنَّما هو القُلوبُ، كما جاء بذلك حديثُ أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ اللَّهَ لا ينظُرُ إلى صُوَرِكم وأموالِكم، ولَكِنْ ينظُرُ إلى قُلوبِكم وأعمالِكم))(٢)؛ لأنَّ القَلبَ هو الذي ينظُرُ اللهُ إليه، فيَعلَمُ فيه الخيرَ والشَّرَّ؛ ولذا قال: ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾(٣).

١٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ❁ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يُؤخَذُ مِن الآيتينِ ما يجِبُ على المُؤمنينَ مِن تَرغيبِ الأَسرى في الإيمانِ، وإنذارِهم عاقِبةَ خِيانَتِهم إذا ثَبَتُوا على الكُفرِ والطُّغيانِ، وعادوا إلى البَغيِ والعُدوانِ(٤).

١٦- لا يُوصَفُ اللهُ بالخيانةِ مُطلَقًا؛ لأنَّ الخيانةَ صِفةُ نَقصٍ مُطلَقٍ؛ والخيانةُ معناها: الخديعةُ في مَوضِعِ الائتمانِ، وهذا نَقصٌ؛ ولهذا قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ ولم يَقُلْ: فخانَهم(٥).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٣٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٥٨).

- قولُه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ(١).

- قولُه: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ هذه الجملةُ واقعةٌ مَوقِعَ العِلَّة للنَّهيِ الذي تَضمَّنه قولُه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ فلذلك فُصِلتْ، ولم تُعْطَفْ عليها؛ لأنَّ العِلَّة بمنزلةِ الجُمْلةِ المبيِّنة، ويَجوزُ أنْ يكونَ هذا الخبرُ مُستعملًا في معنى الاستفهامِ الإنكاريِّ(٢).

- قوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ فيه تَعليقُ فِعلِ الإرادةِ بذاتِ الآخرةِ، والمقصودُ نفْعها؛ بقرينةِ قولِه: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ فحُذِف المضاف (ثواب) للإيجازِ، وقيل التقديرُ: يُريدُ عمَلَ الآخِرَة، أي: المؤدِّي إلى الثوابِ في الآخِرَة(٣).

٢- قوله تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ الكلامَ السابقَ يُؤذِن بأنَّ مُفاداةَ الأسرى أمرٌ مَرْهوبٌ تُخشَى عواقِبُه، فيستثيرُ سُؤالًا في نُفوسِهم عمَّا يُترقَّب من ذلك، فبيَّنه قولُه: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ...﴾(٤).

٣- قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٢-٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٧٥- ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٧).

- قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ الأمر في ﴿فَكُلُوا﴾ مُستعمَلٌ في المِنَّة، وذُيِّل بالأمرِ بالتَّقوى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ لأنَّ التَّقوى شُكرُ اللهِ على ما أنْعَم مِن دفْعِ العذابِ عنهم⁽¹⁾.

- وجملةُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تعليلٌ للأمْر بالتقوى، وتَنبيهٌ على أنَّ التقوى شُكرٌ على النِّعمة؛ فحرْفُ التأكيدِ (إنَّ) للاهْتِمام، وهو مُغنٍ غَناءَ فاءِ التفريع⁽²⁾.

٤- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ...﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، وهو إقبالٌ على خِطابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بشيءٍ يتعلَّقُ بحالِ سَرائرِ بعضِ الأَسْرى، بعدَ أنْ كان الخِطابُ مُتعلِّقًا بالتَّحريضِ على القِتالِ وما يَتْبعه⁽³⁾.

- وفيه تأكيدُ الوعدِ بالمغفرةِ ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ بما بَعدَه ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ مِن الاعتراضِ التَّذييليِّ؛ فقولُه: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تذييلٌ؛ للإيماءِ إلى عِظَمِ مغفرتِه التي يَغْفِر لهم، لأنَّها مَغفرةُ شديدِ الغُفْرانِ، رحيمٍ بعبادِه، فمِثال المبالغةِ وهو ﴿غَفُورٌ﴾ المُقتضي قوَّةَ المغفرةِ وكَثْرتِها مُستعمَلٌ فيهما باعتبارِ كَثرةِ المُخاطَبين، وعِظَمِ المغفرةِ لكلِّ واحد منهم⁽⁴⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٨١).

٥- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

- قوله: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ كلامٌ مَسوقٌ من جِهتِه تعالى؛ لتَسليتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بطَريقِ الوَعدِ له، والوَعيدِ لهم(١).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٧).

الآيات (٧٢-٧٥)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ (٧٢) وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ (٧٣) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ (٧٤) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ (٧٥)﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿مِيثَاقٌ﴾: الميثاقُ: العقدُ المؤكَّدُ بيمينٍ، أو العهدُ المُحكَم، وأصل (وثق): عقدٌ وإحكامٌ(١).

﴿آوَوْا﴾: أي: ضَمُّوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُهاجرينَ إليهم، وأعْطَوهم المَأوى. والمَأوى: المَثوى والمَسكَنُ، وأصْلُ (أوى): يدلُّ على التَّجمُّعِ(٢).

المعنى الإجماليُّ:

إنَّ المُهاجرينَ الذين آمَنوا بكُلِّ ما يجِبُ عليهم الإيمانُ به، وترَكَوا أوطانَهم وقَومَهم، وأنفَقُوا أموالَهم لِنُصرةِ دينِ الله، وجاهَدوا بأنفُسِهم في سبيلِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٠).

والأنصارَ الذينَ ضَمُّوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابَه المُهاجرينَ، فأسكَنُوهم مَنازِلَهم، ونَصَرُوهم على أعدائِهم- بعضُهم أولياءُ بعضٍ، وأمَّا الذينَ آمَنوا لكِنَّهم لم يُفارِقوا أوطانَهم إلى بلادِ الإسلامِ، ما لكم- أيُّها المؤمنونَ- مِن وَلايتِهم مِن شَيءٍ، حتى يفارِقُوا دارَ الكُفرِ إلى دارِ الإسلامِ، لكنْ إن طَلَبَ منكم هؤلاء- الذينَ آمَنوا ولم يُهاجِروا- النَّصرَ في الدِّينِ، فعَليكم نصرَهم، إلَّا إذا طلَبَوا منكم أن تَنصُروهم على قومٍ مِن الكُفَّارِ، بينكم وبينهم عَهدٌ مُؤَكَّدٌ على تَركِ الحَربِ، فلا تَغدِرُوا بالكُفَّارِ بنقضِ ذلك العَهدِ، واللهُ بَصيرٌ بما تَعملونَ، مُطَّلِعٌ عليه، فلا تُخالِفوا أمرَه.

ثم يُخبِرُ تعالى أنَّ الكُفَّارَ بَعضُهم أولياءُ بَعضٍ، ويخاطِبُ المُؤمِنينَ أنَّهم إن لم يَفعَلُوا ذلك- مِن تَوَلِّي بعضِهم بعضًا، وتَرْكِ مُوالاةِ الكُفَّارِ- فإنَّه ستقَعُ فِتنةٌ عظيمةٌ في الأرضِ، وفسادٌ كبيرٌ.

والمؤمنونَ المُهاجِرونَ الذين جاهَدُوا في سبيلِ اللهِ، والأنصارُ الذين ضَمُّوا مَن هاجَرَ إليهم ونَصَرُوهم ونَصَروا دينَ اللهِ، أولئك هُم المؤمِنونَ حَقًّا، لهم مَغفِرةٌ مِن اللهِ ورِزقٌ كَريمٌ.

والذينَ آمَنُوا مِن بعدِ بَيانِ أمْرِ تَوَلِّي المُهاجرين والأنصارِ بعضِهم بعضًا، وانقِطاعِ وَلايَتِهم مِمَّن آمَن ولم يُهاجِرْ حتَّى يُهاجِرَ، وهاجَرُوا من دارِ الكُفرِ إلى دارِ الإسلامِ، وجاهدوا في سبيلِ اللهِ؛ فأولئك معكم- أيُّها المُهاجِرونَ والأنصارُ- وذَوُو القراباتِ أَوْلى بالتَّوارُثِ بينهم في كتابِ اللهِ؛ إنَّ اللهَ بكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم

مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى للأَسْرى أنَّ الخيرَ الذي لم يَطَّلِعْ عليه من قُلوبِهم غيرُ اللهِ، لا يَنفَعُهم في إسقاطِ الفِداءِ عنهم- لأنَّه لا دليلَ عليه، وكُلُّ ما لا دليلَ عليه فحُكمُه حُكمُ العَدَمِ؛ لأنَّ مَبنى الشَّرعِ على ما يُمكِنُ المُكَلَّفَ مَعرِفَتُه وهو الظَّواهِرُ- وخَتَمَ بصِفَتَي العِلمِ والحِكمةِ؛ شَرَع يُبَيِّنُ الخَبَرَ الذي يُفيدُ القُربَ الذي تنبني عليه المُناصَرةُ وكُلُّ خيرٍ⁽¹⁾.

النَّاسِخُ والمَنسوخُ:

قيل: هذه الآيةُ مُحكَمةٌ⁽²⁾.

وقيل: بل هيَ مَنسوخةٌ بِقَولِه تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب: ٦]، أو قَولِه في آخِرِ سُورةِ الأنفالِ: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾⁽³⁾ [الأنفال: ٧٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٣٦).

(٢) وهو قولُ ابنِ جريرٍ، وقوَّاه الرَّازي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٠٠)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٦، ٥١٧).

(٣) هو قَولُ أكثرِ المفسِّرينَ، ونقله الواحديُّ عن جميعِهم. يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) للقاسم بن سلَّام (١/ ٢٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٦٤، ٢٦٦)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٢٨٣)، ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزي (ص: ١٥٢).
قال ابنُ كثير: (آخى رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بين المُهاجرين والأنصارِ، كلُّ اثنينِ أَخَوانِ، فكانوا يتوارَثونَ بذلك إرثًا مُقَدَّمًا على القرابةِ، حتى نسَخَ الله تعالى ذلك بالمواريثِ؛ ثبَت =

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، أنَّه قال في قَولِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ قال: (فكانَ الأعرابيُّ لا يرِثُ المهاجرَ، ولا يرِثُهُ المهاجرُ، فنَسَخَتْها، فقالَ: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾)⁽¹⁾.

وعن ابنِ عبَّاسٍ أيضًا، قال: (كان المُهاجرونَ حين قَدِموا المدينةَ يَرِثُ الأنصاريُّ المُهاجريَّ دونَ ذَوي رَحِمِه؛ لِلأُخوَّةِ التي آخى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بينهم)⁽²⁾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: إنَّ المُهاجرينَ الذينَ آمَنوا بكُلِّ ما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وهجَروا قَومَهم، وترَكوا دُورَهم، وخَرَجوا من أوطانِهم، وأنفَقوا أموالَهم؛ لِنُصرة دينِ اللهِ، وبالَغُوا في إتعابِ أنفُسِهم وبَذلِها في حَربِ الكافرينِ؛ لإعلاءِ كَلِمةِ الله تعالى⁽³⁾.

= ذلك في ((صحيح البخاري))، عن ابنِ عبَّاس، ورواه العوفيُّ، وعليُّ بنُ أبي طلحةَ، عنه، وقاله مجاهدٌ، وعكرمةُ، والحسنُ، وقتادةُ، وغيرُهم). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٥).

تنبيه: أكثرُ القائلين بنَسخِ هذه الآية ذَكَروا أنَّ الآية الناسخة لها هي قولُه تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥]، [الأحزاب: ٦] ولم يُعَيِّنوا آيةَ الأنفالِ أو آيةَ الأحزابِ، ولفظُ الآيتين واحدٌ، وبعضُهم نصَّ على أنَّ المراد آيةُ الأحزاب، منهم قتادةُ، وعِكرمةُ، والنَّحاسُ. يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) لقتادة (ص: ٤٣)، ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ٤٧٥). ومنهم من نصَّ على أن المرادَ آيةُ الأنفالِ، منهم: الزُّهري، وابنُ حزمٍ. يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) للزهري (ص: ٢٧)، ((الناسخ والمنسوخ)) لابن حزم (ص: ٣٩).

(١) أخرجه أبو داود (٢٩٢٤)، والقاسم بن سَلَّام في ((الأموال)) (٥٢٧)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (١٢٥٢٨)، والضياء في ((المختارة)) (٣٥٧).
قال الألباني في ((صحيح أبي داود)) (٢٩٢٤): (حسنٌ صحيحٌ).

(٢) رواه البخاري (٦٧٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) =

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾.

أي: والأنصارَ أهلَ المدينةِ، الذينَ ضمُّوا إليهم النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأصحابَه المهاجرين، فأسكَنُوهم منازِلَهم، وواسَوْهم بأموالِهم، ونَصَرُوهم على أعدائِهم(١).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

قيل: معناها: يَرِثُ بَعضُهم بعضًا دون قَراباتِهم مِن المُشركينَ، على القولِ بأنَّها منسوخةٌ(٢).

وقيل: المعنى: أولئك المُهاجِرونَ والأنصارُ، بعضُهم أنصارُ بعضٍ، وأعوانٌ على مَن سِواهم مِن المُشركينَ، وذلك على القولِ بأنَّها محكمة(٣).

= (٢/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٦٤)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٠٤).

(٢) وهو قَولُ ابنِ عبَّاسٍ، ومجاهِدٍ، وعِكرِمةَ، والحسنِ، وقتادة، وجمهورِ المفسرين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٤)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٣٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٦٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٧٥).

قال ابنُ عاشور: (حَمَلَها ابنُ عبَّاسٍ على ما يشمَلُ الميراثَ... وهذا قولُ مُجاهِدٍ وعِكرمةَ وقتادة والحَسَن، ورُوِيَ عن عُمَرَ بن الخطَّابِ، وابنِ مَسعود، وهو قولُ أبي حنيفة وأحمدَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٨٥).

(٣) وهو قولُ ابنِ جريرٍ، والرازي، وأبي حيان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٨٩)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٦، ٥١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٥٧).

قال ابنُ عاشور: (قال كثيرٌ مِن المُفَسِّرين: هذه الوَلايةُ هي في المُوالاة والمُؤازرة والمُعاونة دُونَ الميراثِ؛ اعتدادًا بأنَّها خاصَّةٌ بهذا الغَرَضِ، وهو قولُ مالك بن أنس، والشافعي، ورُوي عن =

كما قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((المؤمِنُ للمُؤمِنِ كالبُنيانِ؛ يَشُدُّ بَعضُه بَعضًا، وشبَّك بينَ أصابِعِه))⁽¹⁾.

وعن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مثَلُ المؤمنينَ في تَوادِّهم وتَراحُمِهم وتَعاطُفِهم، مَثَلُ الجَسَدِ؛ إذا اشتكى منه عُضوٌ تداعى له سائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى))⁽٢⁾.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾.

أي: والمُؤمنونَ الذين لم يُفارِقُوا بعدُ بلادَ الكُفرِ إلى بلادِ الإسلامِ؛ فَلَستُم- أيُّها المؤمنونَ- مكلَّفينَ بِحِمايتِهم ونُصرَتِهم، ولا إرْثَ بينكم، وليسَ لهم في المغانِمِ نَصيبٌ، حتى يُهاجِروا مِن دارِ الكُفرِ إلى دارِ الإسلامِ⁽٣⁾.

وعن بُريدةَ رَضِيَ الله عنه، قال: كان رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا أَمَّرَ أميرًا على جيشٍ أو سَرِيَّةٍ، أوصاه في خاصَّتِه بِتَقوى اللهِ، ومَن مَعَه من المسلمينَ خَيرًا، ثم قال: ((اغزُوا باسمِ اللهِ في سبيلِ اللهِ، قاتِلُوا مَن كَفَر باللهِ، اغزُوا ولا تَغُلُّوا، ولا تَغدِرُوا، ولا تَمْثُلُوا⁽٤⁾، ولا تَقتُلوا وَليدًا، وإذا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِن المُشركين، فادعُهم إلى ثلاثِ خِصالٍ- أو خِلالٍ- فأيَّتُهنَّ ما أجابوكَ فاقبَلْ

= أبي بكر الصِّديق، وزيدِ بنِ ثابت، وابنِ عُمرَ، وأهلِ المدينة)). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٨٥).

(١) رواه البخاري (٢٤٤٦) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٥).

(٢) رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦)، واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٩٣، ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٦)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٨٥)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٠٧).

(٤) مَثَلَ به يَمثُلُ: إذا نكَّلَ به، وقَطَعَ أطرافَه. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٩٠)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٦/ ٢٥٢٨).

منهم، وكُفَّ عنهم، ثم ادْعُهم إلى الإسلامِ، فإنْ أجابوك فاقبَلْ منهم، وكُفَّ عنهم، ثمَّ ادعُهم إلى التَّحَوُّلِ مِن دارِهم إلى دارِ المُهاجِرينَ، وأخبِرْهم أنَّهم إن فَعَلُوا ذلك فلَهم ما للمُهاجرينَ، وعليهم ما على المُهاجرينَ، فإن أبَوْا أن يتحَوَّلوا منها فأخبِرْهم أنَّهم يكونونَ كأعرابِ المُسلِمينَ؛ يَجري عليهم حُكمُ اللهِ الذي يجري على المُؤمنينَ، ولا يكونُ لهم في الغَنيمةِ والفَيءِ شَيءٌ، إلَّا أن يُجاهِدوا مع المُسلمينَ، فإنْ هُم أبَوْا فسَلْهُم الجِزيةَ، فإنْ هم أجابوك فاقبَلْ منهم، وكُفَّ عنهم، فإن هُم أبَوْا فاستَعِنْ باللهِ وقاتِلْهم))⁽¹⁾.

﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾.

أي: وإن طلَبَ منكم هؤلاءِ- الذينَ آمَنوا ولم يُهاجِروا- أن تَنصُروهم على الكُفَّارِ في قتالٍ دينيٍّ؛ لأنَّكم إخوانُهم في الدِّينِ- فعليكم نَصرُهم، ولا تَخذُلوهم⁽²⁾.

﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾.

أي: إلَّا إذا طلَبَوا منكم أن تَنصُروهم على قومٍ مِن الكُفَّارِ بينكم وبينهم عهدٌ مؤكَّدٌ على تَركِ الحَربِ، فلا تَغدِروا بالكُفَّارِ بنَقضِ ذلك العَهدِ⁽³⁾.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

---

(١) رواه مسلم (١٧٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٧٥)، ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٨٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٢٦٧)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧).

أي: واللهُ مُطَّلِعٌ على ما تَعملونَ- أيُّها المُؤمنونَ- بصيرٌ به، لا يَخفى عليه شَيءٌ مِن أعمالِكم، فلا تُخالِفوا ما أمَرَكم به؛ لئلَّا يَحِلَّ بكم عِقابُه(١).

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى أنَّ المُؤمِنينَ بَعضُهم أولياءُ بَعضٍ، قطَعَ المُوالاة بينهم وبين الكُفَّارِ؛ فالمُؤمِنونَ أحَقُّ أن يواليَ بَعضُهم بعضًا، ويترُكوا مُوالاةَ الكافرينَ وإن كانوا أقارِبَ، فقال تعالى(٢):

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ ﴾.

أي: والكُفَّارُ بَعضُهم أعوانُ بَعضٍ؛ يَرِثُ بَعضُهم بعضًا، ويتَناصَرونَ فيما بَينَهم على قتالِ المُسلمينَ(٣).

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

وقال سُبحانه: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٩٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢١٠).

وقال السعدي: (﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يعلَمُ ما أنتم عليه من الأحوالِ، فيَشرَعُ لكم من الأحكامِ ما يَليقُ بكم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢١٠ - ٢١٢).

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩].

وعن أُسامةَ بنِ زَيدٍ رَضِيَ الله عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((لا يَرِثُ المُسلِمُ الكافِرَ، ولا الكافِرُ المُسلِمَ))⁽١⁾.

﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾.

أي: إن لم تَفعَلوا- أيُّها المؤمِنونَ- ما أمَرْتُكم به مِن تَوَلِّي بعضِكم بعضًا، وتَرْكِ مُوالاةِ الكافرينَ⁽٢⁾؛ تقَعْ في الأرضِ فتنةٌ عظيمةٌ بينَ النَّاسِ، وفَسادٌ عَريضٌ في الدِّينِ والدُّنيا⁽٣⁾.

---

(١) رواه البخاري (٦٧٦٤) واللفظ له، ومسلم (١٦١٤).

(٢) قال ابنُ جُزي: (﴿إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ﴾ (أَلا) هنا مركَّبةٌ مِن (إنِ الشَّرطية) و (لا النَّافية)، والضَّميرُ في ﴿تَفْعَلُوهُ﴾ لِولايةِ المُؤمِنينَ ومُعاوَنَتِهم، أو لِحِفظِ المِيثاقِ الذي في قَولِه: ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾، أو النَّصرِ الذي في قَولِه: ﴿فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٣٠). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٥٩).

قال الشنقيطي: (والتَّحقيقُ الذي لا شَكَّ فيه- إن شاء اللهُ- أنَّ الضَّميرَ (الهاء) في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ عائِدٌ إلى ما ذكَرَه الله جلَّ وعلا مِن وَلايةِ المُسلِمينَ بَعضِهم بعضًا، ومُقاطَعَتِهم للكُفَّارِ، ووَلايةِ الكُفَّارِ بعضِهم بعضًا). ((العذب النمير)) (٥/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٩٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢١٤ - ٢١٦).

قال ابنُ عطية: (الفتنةُ: المِحنةُ بالحَربِ، وما انجَرَّ معها من الغاراتِ والجلاءِ والأسْر، والفسادُ الكبير: ظهورُ الشِّركِ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٧).

وقال الزمخشري: (لأنَّ المسلمينَ ما لم يصيروا يدًا واحدةً على الشِّركِ، كان الشِّركُ ظاهِرًا، والفَسادُ زائدًا). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٤٠).

وذهَب ابنُ كثيرٍ، والسعدي، والشنقيطي إلى أنَّ المرادَ اختلاطُ المؤمِنِ بالكافرِ وما ينتُجُ عنه من الْتباسِ الحَقِّ بالباطِلِ، وأضرارٍ أُخرَى كثيرةٍ نتيجةَ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢١٥) (٥/ ٢١٦).

وقال ابن الجوزي: (إذا لم يتوَلَّ المؤمنُ المؤمنَ تولِّيًا حَقًّا، ويتبرَّأْ مِن الكافِرِ جِدًّا؛ أدى =

كما قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

= ذلك إلى الضَّلالِ والفَسادِ في الدِّينِ). ((زاد المسير)) (٢/ ٢٢٨).

وقال الشِّنقيطي: (وهذا المُشاهَدُ الآن؛ فإنَّ مَن يُسَمَّونَ بالمُسلمينَ تَوَلَّوا الكفَّارَ وقاطعوا المُسلمين، وصار هذا الكافِرُ وهذا المُسلِمُ يزعُمانِ أنَّهما أخوانٍ، وأنَّهما تجمَعُهما العَصَبيَّةُ الفُلانيَّة، أو القوميَّةُ الفلانيَّة، وأنَّ هذه الدَّولة الكافرة صَديقةٌ، وأنَّ هَذينِ الشَّعبينِ شَقيقانِ وما جرى مجرى ذلك! فلم يفعلوا ما أمَرَ الله بأن يَفعَلوه، فكانت فتنةٌ في الأرضِ وفسادٌ كبيرٌ، ومِن عظم هذه الفتنةِ اختلاطُ الحابِلِ بالنَّابلِ؛ لأنَّ المُسلمين إذا صادَقوا الكفَّارَ أعانوهم على أذيَّةِ المسلمينَ، وقَتلِهم، وكُلِّ ما يريدونَه بهم، وأطلَعُوهم على عَوْراتِهم، إلى غير ذلك، فانتشَرَ في الدُّنيا الفسادُ العريضُ العظيمُ، وانتشرت الفتنةُ، وهذا مُشاهَدٌ يجب على المؤمنينَ أن يعتَبِروا بهذا، فيقطَعُوا وَلايَتَهم من جميعِ الكُفَّارِ، ويَصْدُقوا وَلايةَ بعضِهم لبعضٍ؛ لِئَلَّا تتمادى بهم هذه الفِتنةُ والفسادُ الكبير... ووصْفُ هذا الفسادِ بالكبيرِ؛ لأنَّه ضياعُ دِينٍ، وضَعْفُ إسلامٍ، وقُوَّةُ كُفَّارٍ، واطِّلاعُهم على عَوْراتِ المُسلمين بواسطةِ مَن يُصادِقُهم ويُواليهم مِن المسلمينَ، إلى غير ذلك من البلايا). ((العذب النمير)) (٥/ ٢١٦، ٢١٨).

وقال محمد رشيد رضا: (الأظهَرُ أنَّ الفِتنةَ في الأرضِ: اضطهادُهم المسلمينَ، وصَدُّهم عن دينِهم... وهي مِن لوازِمِ قُوَّةِ الكُفرِ وسُلطانِ أهلِه... كذلك الفسادُ الكبيرُ مِن لوازِمِ ضَعْفِ الإسلامِ الذي يوجِبُ على أهله تولِّي بعضِهم لبعضٍ في التَّعاوُنِ والنُّصرةِ، وعَدَمِ تولِّي غيرِهم مِن دُونِهم... ومَن وقَفَ على تاريخِ الدُّوَلِ الإسلاميَّةِ التي سقَطَت وبادَتْ، والتي ضعُفَت بعد قوَّةٍ؛ يرى أنَّ السَّبَبَ الأعظَمَ لِفَسادِ أمْرِها، تَرْكُ تلك الوَلايةِ، أو استبدالُ غيرِها بها). ((تفسير المنار)) (١٠/ ١٠٠).

مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤ - ٥٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تقدَّمَت أنواعُ المؤمنينَ: المهاجِرُ والنَّاصِرُ والقاعِدُ، وذكَرَ أحكامَ مُوالاتِهم- أخذَ يبيِّنُ تفاوُتَهم في الفَضلِ[1]، فقال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.

أي: والمؤمنونَ المُهاجِرونَ الذين قاتَلوا الكُفَّارَ؛ لإعلاءِ كَلِمةِ اللهِ، والأنصارُ الذين ضمُّوا مَن هاجَرَ إليهم، ونَصَرُوهم، ونَصَروا دينَ اللهِ- أولئك هم الكامِلونَ في الإيمانِ، الذين حقَّقوا إيمانَهم بفِعلِ ما يقتضيه مِن الهِجرةِ، والنُّصرةِ، والجهادِ في سَبيلِ اللهِ[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

---

[1] (١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٤٧)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٨٥).

[2] (٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣١٣)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٢٤).

﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى حُكمَ المُؤمِنينَ في الدُّنيا، عطَفَ بِذِكرِ ما لهم في الآخِرَةِ، فقال⁽¹⁾:

﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾.

أي: للمُهاجِرينَ والأنصارِ مَغفرةٌ تامَّةٌ مِن اللهِ تعالى، فيستُرُ ذُنوبَهم، ويتجاوَزُ عن مؤاخَذَتِهم بها، ولهم رزقٌ حسنٌ كثيرٌ، هَنيءٌ طَيِّبٌ⁽²⁾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٧٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حصَرَ اللهُ تعالى المؤمنينَ حقًّا في الموصوفينَ؛ بيَّنَ أنَّ مَن ترَك ما هو عليه مِن لُزومِ دارِ الكُفرِ، والقُعودِ عن الجِهادِ؛ لَحِقَ بمُطلَقِ دَرَجتِهم، وإنْ كانوا فيها أعلى منه⁽³⁾.

وأيضًا بعدَ أن مَنَع اللّه ولايةَ المسلِمينَ للَّذينَ آمنوا ولم يهاجروا بالصَّراحَةِ، ابْتِداءً، ونَفَى عن الَّذين لم يُهاجِروا تحقيقَ الإيمانِ، وكان ذلك مُثيرًا في نُفوسِ السَّامِعينَ أن يتَساءَلوا: هل لأولئك تمَكُّنٌ مِن تَدارُكِ أمرِهم برَأْبِ هذه الثُّلْمَةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٢٩٩، ٣٠٠)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٢٧).

ذهَب ابنُ جريرٍ، والرازي وابنُ كثيرٍ، والشِّنقيطي وغيرُهم إلى أنَّ الرِّزقَ الكريمَ لهم في الآخرةِ، وذهَب السعدي إلى ذلك إلَّا أنَّه قال: (وربما حصَلَ لهم من الثَّوابِ المُعَجَّلِ ما تَقَرُّ به أعينُهم، وتطمئِنُّ به قلوبُهم). وأمَّا الشوكاني فاختار أنَّ الرِّزقَ الكريمَ لهم في الدُّنيا. يُنظر: المصادر السابقة.

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٤٨).

عنهم، ففَتَح اللَّه بابَ التَّدارُكِ بهذه الآيةِ(١)، فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡ ﴾.

أي: والَّذِينَ آمنوا مِن بَعدِ بَيانِ أمْرِ تَوَلِّي المُهاجرين والأنصارِ بعضِهم بعضًا، وانقِطاعِ وَلايَتِهم مِمَّن آمَن ولم يُهاجِرْ حتَّى يُهاجِرَ(٢)، وهاجَروا مِن دار الكُفر إلى دارِ الإسلامِ، وجاهَدوا في سبيلِ اللهِ معكم- أيُّها المهاجرونَ والأنصارُ- فأولئك منكم في الوَلايةِ؛ فلهم ما لكم، وعليهم ما عليكم، مِن حَقِّ النُّصرةِ وغَيرِها، وهم معكم في الآخرةِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٠٠).

قال أبو حيان: (معنى: ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾ مِن بعدِ الهِجرةِ الأولى، وذلك بعد الحُديبيَّة، قاله ابنُ عبَّاسٍ... وذلك أنَّ الهجرةَ مِن بعدِ ذلك كانت أقلَّ رُتبةً مِن الهجرةِ قبلَ ذلك، وكان يُقالُ لها: الهجرةُ الثَّانية؛ لأنَّ الحَربَ وَضَعَت أوزارَها نحو عامينِ، ثمَّ كان فتحُ مكَّةَ. وبه قال عليه السلام: «لا هِجرةَ بعدَ الفَتحِ». وقال ابن جرير: من بعدِ ما بيَّنْتُ حُكمَ الوَلاية، فكان الحاجِزُ بين الهجرتينِ نُزولَ الآية، فأخبرَ تعالى في هذه الآيةِ أنَّهم من الأوَّلِينَ في المُؤازرةِ وسائرِ أحكامِ الإسلام، وقيل: مِن بَعدِ يَومِ بَدرٍ، وقال الأصم: مِن بعدِ الفَتحِ). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٦٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٧)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٢٨).

وقال ابنُ عاشورٍ: (قولُه: ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾ قَرينةٌ على أنَّ المُرادَ: إذا حَصلَ منهم ما لم يَكُنْ حاصلًا في وقتِ نُزولِ الآياتِ السَّابِقَةِ، ليكونَ أصحابُ هذه الصِّلَةِ قِسْمًا مُغايِرًا للأقسامِ السَّابِقَةِ. فليس المَعْنَى أنَّهم آمَنُوا مِنْ بَعْدِ نزولِ هذه الآيةِ، لأنَّ الَّذين لم يكونوا مؤمنينَ ثُمَّ يؤمِنونَ مِن بعدُ لا حاجةَ إلى بيانِ حُكْمِ الاعتدادِ بإيمانِهم، فإنَّ مِن المعلومِ أنَّ الإسلامَ يَجُبُّ ما قبلَه، وإنَّما المقصودُ: بيانُ أنَّهم إنْ تَدارَكوا أمرَهُم بأن هاجروا قُبِلوا وصاروا مِن المؤمِنينَ المُهاجِرينَ، فيتعَيَّنُ أنَّ المضافَ إليه المحذوفَ الَّذي يشيرُ إليه بناءُ ﴿بَعۡدُ﴾ على الضَّمِّ أنَّ تقديرَه: مِن بعدِ ما قلْناه في الآياتِ السَّابقةِ، وإلَّا صار هذا الكلامُ إعادةً لبعضِ ما تقَدَّم، وبذلك تسقطُ الاحتِمالاتُ الَّتي تَرَدَّدَ فيها بعضُ المفسِّرينَ في تقديرِ ما أُضيفَ إليه ﴿بَعۡدُ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٩٠).

وقال القاسمي: (وهل المرادُ مِن قولِه ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾ هو مِن بعدِ الهجرةِ الأُولَى، أو مِن بعدِ الحديبيةِ، وهي الهجرةُ الثانيةُ، أو مِن بعدِ نزولِ هذه الآيةِ، أو مِن بعدِ يومِ بدرٍ؟ أقولُ: اللفظُ الكريمُ يعمُّها كلَّها، والتخصيصُ بأحدِهما تخصيصٌ بلا مخصِّصٍ). ((تفسير القاسمي)) (٥/ ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٣٢).

كما قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

وقال جلَّ جَلالُه: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وعن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((المَرءُ مع مَن أحَبَّ))(١).

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾.

أي: وذَوُو القَراباتِ أَوْلى بالتَّوارُثِ بينهم(٢) في حُكمِ اللَّه وشَرْعِه(٣).

---

(١) رواه البخاري (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤٠).

(٢) قال أبو حيان: (من قال: إنَّ قَولَه في المؤمنينَ المهاجرينَ والأنصارِ: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في المواريثِ بالأخوَّةِ التي كانت بينهم، قال: هذه في المواريثِ، وهي نَسْخٌ للميراثِ بتلك الأُخُوَّةِ، وإيجابُ أن يَرِثَ الإنسانُ قَريبَه المؤمِنَ وإن لم يكُن مهاجرًا، واستدلَّ بها أصحابُ أبي حنيفةَ على توريثِ ذوي الأرحامِ، وقالت فِرقةٌ- منهم مالكٌ-: ليست في المواريثِ، وهذا فِرارٌ عن توريثِ الخالِ والعَمَّةِ ونحوِ ذلك، وقالت فِرقةٌ: هي في المواريثِ إلَّا أنَّها نَسَخَتْها آيةُ المواريثِ المبيِّنةُ). ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٦٠).

وقال الرازي: (الذين فَسَّروا تلك الآيةَ بالنُّصرةِ والمحبَّةِ والتعظيم، قالوا: إنَّ تلك الوَلايةَ لَمَّا كانت مُحتمِلةً للوَلايةِ بسبَبِ الميراثِ، بيَّن الله تعالى في هذه الآيةِ أنَّ وَلايةَ الإرْثِ إنَّما تحصُلُ بسبَبِ القَرابةِ، إلَّا ما خصَّه الدَّليلُ، فيكون المقصودُ مِن هذا الكلامِ إزالةَ هذا الوَهمِ، وهذا أَوْلى؛ لأنَّ تكثيرَ النَّسْخِ من غيرِ ضَرورةٍ ولا حاجةٍ، لا يجوزُ). ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٩٩، ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨)، ((العذب =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللَّهَ عالِمٌ بكُلِّ شَيءٍ، ومن ذلك عِلمُه بما يَصلُحُ لِعبادِه؛ فكُلُّ ما شَرَعَه لهم فهو مُوافِقٌ للحِكمةِ، كتَوريثِه بعضِهم مِن بَعضٍ بِسَبَبِ القَرابةِ والنَّسَبِ[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيه تَحذيرٌ لِلمُسلمينَ؛ لِئلَّا يَحمِلَهم العَطفُ على المُسلمينَ، على أن يُقاتِلوا قَومًا بينهم وبينهم مِيثاقٌ، وفي هذا التَّحذيرِ تَنويهٌ بِشَأنِ الوَفاءِ بالعَهدِ، وأنَّه لا يَنقُضُه إلَّا أمرٌ صَريحٌ في مُخالَفتِه[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ دَلالةٌ على وُجوبِ إغاثةِ المَلهوفِ، ونَصرِ المظلوم، وإنْ كان بعيدًا[3].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ في قَولِه ﴿بَصِيرٌ﴾ إشارةٌ إلى العِلمِ بما يكونُ من ذلك خالِصًا أو مَشوبًا؛ ففيه مزيدُ حَثٍّ على الإخلاصِ[4].

٤- تركُ موالاةِ المؤمنينَ، ومعاداةِ الكافرينَ يحصل به من الشَّرِّ ما لا ينحصِرُ؛

= النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٣٢ - ٢٣٦).

وممَّن اختار أنَّ المُرادَ بكتاب الله هنا: حُكمُه وشَرْعُه: ابنُ كثيرٍ، والسعدي، والشِّنقيطي، ونسبه لجُمهورِ العُلَماء. يُنظر: المصادر السابقة.

واختار ابنُ جرير أنَّ المرادَ به: اللَّوحُ المحفوظُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٠١).

واختار أبو حيَّان أنَّ المرادَ به: القُرآنُ الكريمُ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٦٠).

[1] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٠١)، ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥٢٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٢٨).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٨٧).

[3] يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٧٦).

[4] يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٥٨٥).

مِن اختلاطِ الحَقِّ بالباطِلِ، والمؤمِنِ بالكافِرِ، وعَدَمِ كثيرٍ من العِباداتِ الكِبارِ- كالجِهادِ والهِجرة- وغيرِ ذلك مِن مقاصِدِ الشَّرعِ والدِّينِ؛ قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾⁽¹⁾.

٥- قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾، فإذا لم يتوَلَّ المؤمِنُ المؤمِنَ تولِّيًا حقًّا، ويتبرَّأْ مِن الكافِرِ جِدًّا، أدَّى ذلك إلى الضَّلالِ والفَسادِ في الدِّينِ، فإذا هجَرَ المُسلِمُ أقارِبَه الكُفَّارَ، ونَصَرَ المُسلمينَ، كان ذلك أدْعَى لأقارِبِه الكُفَّارِ إلى الإسلامِ، وتَرْكِ الشِّركِ⁽²⁾.

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هذه السَّعاداتُ العالية إنَّما حصَلَت؛ لأنَّهم أعرَضوا عن اللَّذَّاتِ الجُسمانيَّة، فتركوا الأهلَ والوَطَنَ، وبَذَلوا النَّفْسَ والمالَ⁽³⁾.

٧- قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لَمَّا بيَّنَ اللهُ هنا وَصْفَهم، بيَّن ما حَباهم به بِقَولِه- دالًّا على أنَّ الإنسانَ محَلُّ النُّقصانِ؛ فهو وإن اجتهَدَ حتى كان من القِسمِ الأعلى، لا ينفَكُّ عن مُواقعةِ ما يَحتاجُ فيه إلى الغُفرانِ-: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أي: لِزَلَّاتِهم وهَفَواتِهم؛ لأنَّ مبنى الآدميِّ على العَجزِ اللَّازِمِ عنه التَّقصيرُ وإن اجتهَدَ، والدِّينُ مَتينٌ، فلن يُشادَّه أحَدٌ إلَّا غَلَبَه⁽⁴⁾.

٨- أوجبَ اللهُ تعالى مُوالاةَ المُؤمِنينَ بَعضِهم لبعضٍ؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُه تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٤٧).

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾(١).

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ عُلِّقَت أولويَّةُ الأرحامِ بأنَّها كائنةٌ في كتابِ اللهِ، أي: في حُكمِه، فهذا الاعتناءُ مُؤذِنٌ بما لِوَشائجِ الأرحامِ من الاعتبارِ في نظَرِ الشَّريعةِ(٢).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هؤلاء موصوفونَ بهذه الصِّفاتِ الأربَعِ:

أولها: أنَّهم آمَنوا باللهِ ومَلائِكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليَومِ الآخِرِ، وقَبِلوا جميعَ التَّكاليفِ التي بلَّغَها محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولم يتمَرَّدوا.

والصفة الثانية: قولُه: ﴿وَهَاجَرُوا﴾ يعني: فارَقوا الأوطانَ، وتَرَكوا الأقارِبَ والجيرانَ؛ في طَلَبِ مرضاةِ الله، ومعلومٌ أنَّ هذه الحالةَ حالةٌ شديدةٌ.

والصفة الثالثة: قَولُه: ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أمَّا المجاهدةُ بالمالِ، فلأنَّهم لَمَّا فارقوا الأوطانَ، فقد ضاعَت دُورُهم ومَساكِنُهم وضِياعُهم ومزارِعُهم، وبَقِيَت في أيدي الأعداءِ، وأيضًا فقد احتاجُوا إلى الإنفاقِ الكثيرِ؛ بسبَبِ تلك العزيمةِ، وأيضًا كانوا يُنفِقونَ أموالَهم على تلك الغَزَواتِ، وأمَّا المُجاهدةُ بالنَّفسِ فلأنَّهم كانوا أقدَموا على مُحارَبةِ بَدرٍ مِن غيرِ آلةٍ ولا أُهْبةٍ ولا عِدَّةٍ، مع الأعداءِ الموصوفينَ بالكثرةِ والشِّدَّةِ، وذلك يدلُّ على أنَّهم أزالوا أطماعَهم عن الحياةِ، وبَذَلوا أنفُسَهم في سبيلِ الله.

وأمَّا الصفة الرابعة: فهي أنَّهم كانوا أوَّلَ النَّاسِ إقدامًا على هذه الأفعالِ، والتزامًا لهذه الأحوالِ، ولهذه السَّابقةِ أثَرٌ عَظيمٌ في تقويةِ الدِّينِ. قال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٤١٨-٤١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٩٢).

﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد: ١٠] وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠] وإنما كان السَّبْقُ مُوجِبًا للفَضيلةِ؛ لأنَّ إقدامَهم على هذه الأفعالِ يُوجِبُ اقتداءَ غَيرِهم بهم، فثبَتَ أنَّ حُصولَ هذه الصِّفاتِ الأربَعِ للمُهاجرينَ الأوَّلِينَ، يدلُّ على غايةِ الفَضيلةِ ونهايةِ المَنقبةِ، وأنَّ ذلك يُوجِبُ الاعترافَ بِكَونِهم رُؤساءَ المُسلِمينَ وسادةً لهم⁽¹⁾.

٢- الهِجرةُ لا تنقطِعُ أبدًا، إلَّا أنَّ الهِجرةَ المخصوصةَ التي كانت إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه بالمدينةِ، هي التي انقطَعَت بفتحِ مكَّةَ؛ لانتشارِ الإسلامِ في جزيرةِ العَرَبِ، قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا هِجرةَ بعد الفَتحِ، ولكِنْ جِهادٌ ونِيَّةٌ))⁽²⁾، أمَّا الهجرةُ التي لا تنقطِعُ، فهي أنَّ كلَّ إنسانٍ تُعُرِّضَ له في دينِه، وصار لا يقدِرُ على إقامةِ شَعائِرِ دِينِه في محَلٍّ، فواجِبٌ عليه- بإجماعِ العُلَماءِ- أن ينتقِلَ من هذا المحَلِّ، ويبذُلَ في ذلك كلَّ مَجهودٍ، حتى يصِلَ إلى محَلٍّ يتمكَّن فيه من إقامةِ شَعائِرِ دِينِه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾⁽³⁾.

٣- في قَولِ الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قدَّم الأموالَ على الأنفسِ، وفي ذلك أوجهٌ:

الأول: أنَّ الأموالَ كانت في غايةِ العِزَّةِ في أوَّلِ الأمرِ⁽⁴⁾.

الثاني: أنَّ الجهادَ بالمالِ أخفُّ على النفوسِ مِن الجهادِ بالنفس، فسلَك في

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٥، ٥١٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٨٣)، ومسلم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٣٧)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٧٨).

ذلك مسلكَ الترقِّي مِن الأدنَى إلى الأعلَى⁽¹⁾.

الثالث: أنَّ الأموالَ قوامُ الأنفسِ، فمَن بذَل مالَه كلَّه لم يبخَلْ بنفسِه؛ لأنَّ المالَ قوامُها⁽²⁾.

الرابع: حرصُ الكثيرِ عليها، حتى أنَّهم يُهلكون أنفسَهم بسببِها، فالنَّاس يُقاتِلون دونَ أموالِهم؛ فإنَّ المجاهِدَ بالمالِ قد أخرجَ مالَه حقيقةً لله، أمَّا المجاهدُ بنَفسِه لله فإنَّه يرجو النَّجاةَ، ولهذا أكثرُ القادرينَ على القتالِ يَهونُ على أحَدِهم أنْ يُقاتِلَ؛ ولا يَهونُ عليه إخراجُ مالِه⁽³⁾.

الخامس: أنَّها هي التي يُبدأُ بها في الإنفاقِ، والتجهُّزِ إلى الجهادِ، فرتَّب الأمرَ كما هو نفسُه⁽⁴⁾.

السادس: أنَّ ضرورةَ الجهادِ بالمالِ أكثرُ مِن ضرورتِها بالنفسِ، حتى أنَّ الذي يجاهدُ بنفسِه محتاجٌ إلى المالِ، فما الذي يُوصله إلى ميدانِ القتالِ إلا الأموالُ⁽⁵⁾.

٤- قَوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يُوهِمُ أنَّهم لَمَّا لم يُهاجِرُوا مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سقَطَت وَلايَتُهم مُطلقًا، فأزال اللهُ تعالى هذا الوَهمَ بِقَولِه: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ يعني: أنَّهم لو هاجَرُوا لعادَتْ تلك الوَلايةُ وحصَلَت، والمقصودُ منه الحَملُ على المُهاجرةِ والتَّرغيبُ فيها؛ لأنَّ المُسلِمَ متى سمِعَ أنَّ اللهَ تعالى يقولُ: إنْ قَطَعَ المُهاجَرةَ انقطعَت الوَلايةُ بينه وبين المُسلمينَ، ولو هاجَرَ حَصَلت تلك الوَلايةُ، وعادَتْ على أكمَلِ الوُجوهِ- فلا شَكَّ أنَّ هذا يصيرُ مُرَغِّبًا له في الهجرةِ، والمقصودُ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٢/ ٣٢٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٢٣٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (١/ ٣٨).

المُهاجَرةِ كَثرةُ المُسلِمينَ واجتماعُهم، وإعانةُ بَعضِهم لبعضٍ، وحصولُ الأُلفةِ والشَّوكةِ وعدَمُ التَّفرقةِ(١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ دَلالةٌ على أنَّ المخلوقَ يجوزُ له أنْ يَطلُبَ مِن المَخلوقِ ما يَقدِرُ عليه مِن الأُمورِ- دونَ ما لا يَقدِرُ عليه إلَّا اللهُ؛ فإنَّه لا يُطلَبُ إلَّا مِنه سُبحانَه(٢).

٦- إذا أراد العَدُوُّ الهُجومَ على المُسلِمينَ؛ فإنَّه يصيرُ دَفعُه واجبًا على المقصودينَ كلِّهم، وعلى غيرِ المَقصودينَ لإعانَتِهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾، وأمَر النَّبيُّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم بنصرِ المسلمِ، وهذا يجبُ بحسبِ الإمكانِ على كلِّ أحدٍ بنَفْسِه ومالِه، مع القلَّةِ والكثرةِ، والمشيِ والرُّكوبِ(٣).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ استدَلَّ به بعضُ العُلَماءِ على أنَّ الكُفَّارَ في المُوارَثةِ- مع اختلافِ مِلَلِهم- كأهلِ مِلَّةٍ واحدةٍ؛ فالمجوسيُّ يَرِثُ الوَثَنيَّ، والنَّصرانيُّ يرِثُ المجوسيَّ(٤).

٨- قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ هذه العبارةُ ترغيبٌ وتحريضٌ، وإقامةٌ لنفوسِ المؤمنينَ، كما تقولُ لِمَن تُريدُ تحريضَه: عدُوُّك مُجتَهِدٌ، أي: فاجتَهِدْ أنت(٥).

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ١٠٣، ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٥٥٦)، ((تفسير الثعالبي)) (٣/ ١٥٨).

آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ليس بتكرارٍ لِما سبَقَ في قَولِ الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢]؛ وذلك لأنَّه تعالى ذَكَرَهم أوَّلًا لِيُبَيِّنَ حُكمَهم - وهو وَلايةُ بَعضِهم بعضًا - ثم إنَّه تعالى ذَكَرَهم هاهنا؛ لِبَيانِ تَعظيمِ شَأنِهم، وعُلُوِّ دَرَجتِهم؛ وبيانُه مِن وَجهينِ:

الأول: أنَّ الإعادةَ تدُلُّ على مَزيدِ الاهتمامِ بِحالِهم، وذلك يدُلُّ على الشَّرَفِ العَظيمِ.

والثاني: وهو أنَّه تعالى أثنى عليهم هاهنا، وشرَحَ حالَهم في الدُّنيا وفي الآخرة، أمَّا في الدُّنيا فقد وَصَفَهم بِقَولِه: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ وأمَّا في الآخرةِ فالمَقصودُ إمَّا دَفعُ العِقابِ، وإمَّا جَلبُ الثَّوابِ؛ أمَّا دَفعُ العِقابِ فهو المرادُ بِقَولِه: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ وأمَّا جَلبُ الثَّوابِ فهو المرادُ بِقَولِه: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾(١).

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هذه الشَّهادةُ المَقرونةُ بهذا الجزاءِ العَظيمِ تُرغِمُ أنوفَ الرَّوافِضِ، وتُلقِمُ كلَّ نابحٍ بالطَّعنِ في أصحابِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، الحَجَرَ، ولا سيَّما زَعمُهم بأنَّ أكثَرَهم - رَضِيَ اللهُ عنهم وأرضاهم - قد ارتَدُّوا بعده صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(٢).

١١- في قولِه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ رَدٌّ على المرجئةِ؛ حيث أضافَ سبحانَه الهجرةَ والجهادَ والنصرةَ والإيواءَ إلى الإيمانِ، وقد شَهِدَ لقوم في أولِ السورةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ١٠١).

تحقيقَه؛ ولم يَذكُرْ هذه الشرائطَ، وذَكَرَ لأولئك شرائطَ لم يذكرها لهؤلاء؛ فدلَّ على أنَّ الإيمانَ ذو أجزاءٍ⁽¹⁾.

١٢- في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ بيانُ أنَّ كلَّ خيرٍ يفعلُه المؤمنُ متقرِّبًا به إلى الله فهو مِن الإيمان- فرضًا كان أو تطوعًا- فالجهادُ والنصرةُ والإيواءَ قد يكونا نافلةً في بعض الأوقاتِ- إذا لم يكن المنصورُ والمُؤْوَى مضطهدًا- والجهادُ إذا قامتْ به طائفةٌ فهو للباقي فضيلةٌ لا فريضةٌ⁽²⁾.

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ يدلُّ على أنَّ مَرتبةَ هؤلاءِ دُونَ مَرتبةِ المُهاجِرينَ السَّابقينَ؛ لأنَّه ألحَقَ هؤلاء بهم، وجَعَلَهم منهم في مَعْرِضِ التَّشريفِ، ولولا كَونُ القِسمِ الأوَّلِ أشْرَفَ، وإلَّا لَمَا صَحَّ هذا المعنى⁽³⁾.

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ استدَلَّ به مَن ورَّثَ ذَوي الأرحامِ⁽⁴⁾.

١٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ استدَلَّ به مَن قال: إنَّ القَريبَ أَوْلَى بالصَّلاةِ على الميِّتِ مِن الوالي⁽⁵⁾.

١٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ قَولُه: ﴿أَوْلَى﴾- هو صِيغةُ تَفضيلٍ- يُفيدُ أنَّ الوَلايةَ بين ذَوِي الأرحامِ لا تُعتبَرُ

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (١/ ٤٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٦٠).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٣٧).

إلَّا بالنِّسبةِ لِمَحلِّ الوَلايةِ الشَّرعيَّةِ، فأُولو الأرحامِ أَوْلى بالوَلايةِ ممَّن ثَبَتَت لهم وَلايةٌ تامَّةٌ أو ناقِصةٌ، كالذينَ آمَنوا ولم يُهاجِروا في وَلايةِ النَّصرِ في الدِّينِ، إذا لم يَقُم دُونَها مانِعٌ مِن كُفرٍ أو تَرْكِ هِجرةٍ، فالمؤمنونَ بَعضُهم لبعضٍ أولياءُ وَلايةَ الإيمانِ، وأولو الأرحامِ منهم بعضُهم لبعضٍ أولياءُ وَلايةَ النَّسَبِ^(١).

بَلاغةُ الآياتِ:

١ - قَولُه تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ هذه الآيةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للإعلامِ بأحكامِ مُوالاةِ المسلِمين للمُسلِمين الذين هاجَروا، والذين لم يُهاجِروا، وعدمِ مُوالاتِهم للذين كَفروا^(٢).

- وفيها حُسْنُ ترتيبٍ، حيثُ بَدَأ بالمهاجرين؛ لأنَّهم أَصْلُ الإسلامِ، وأوَّلُ مَن استجابَ للهِ تعالى، وكانوا قُدوةً لغيرهم في الإيمانِ، وسببَ تقويةِ الدِّين، وثَنَّى بالأنصارِ؛ لأنَّهم ساوَوْهُم في الإيمانِ، وفي الجهادِ بالنَّفسِ والمالِ، لكِنَّه عادَلَ الهجرةَ الإيواءُ والنَّصرُ، وانفرَد المهاجِرون بالسَّبقِ، وذَكَر ثالثًا مَن آمن ولم يُهاجِر ولم يَنْصُر؛ ففاتَهم هاتانِ الفضيلتانِ^(٣)، فهؤلاءِ بسبَبِ إيمانِهم لهم فَضلٌ وكرامةٌ، وبسبَبِ تَركِ الهِجرةِ لهم حالةٌ نازِلةٌ، وذلك هو أنَّ الوَلايةَ تكون منفيَّةً عنهم، إلَّا أنَّهم يكونونَ بحيثُ لو استَنصَروا المؤمنينَ واستعانوا بهم، نَصَروهم وأعانوهم، وأمَّا الكُفَّارُ فليس لهم البتَّةَ ما يُوجِبُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٥٧).

شيئًا مِن أسبابِ الفضيلةِ، فوجَبَ كَونُ المُسلمين مُنقَطِعينَ عنهم مِن كُلِّ الوُجوهِ، فلا يكونُ بينهم وَلايةٌ ولا مُناصرةٌ بوجهٍ مِن الوجوهِ(١).

- وقولُه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فيه مُناسَبة حَسنةٌ، حيثُ قدَّم هنا في سُورةِ الأنفال ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ على قولِه: ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ وَعَكَسَ في سورةِ التَّوبةِ فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٢٠]؛ ووجهُ هذه المناسبةِ: أنَّ الآيةَ الأُولَى في سُورةِ الأنفالِ جاءتْ عَقيبَ ما أنكره اللهُ تعالى على مَن قال لهم: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وهم أصحابُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم لَمَّا أَسَرُوا المشركين، ولم يَقْتلوهم طَمعًا في الفِداءِ، فقال تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، أي: فيما أَخذتُم من هؤلاء الأَسْرى من الفِداءِ، ثم قال تعالى لَمَّا غفَر لهم ما كان منهم مِن تَرْكِ قَتْلِ الأَسْرى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾، أي: اسْتَمتِعوا بما نِلْتُم من أموالِ المشركين، وبما أَخذتُم من فِدائهم، فعقَّبَ ذلك بهذِه الآيةِ التي مَدَح فيها مَن أَنْفَق أموالَه في سبيلِ الله، لا مَن يُجاهدُ طلبًا للنَّفعِ العاجلِ، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ فقدَّم ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ على قوله: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ لِيَعْلموا أنَّ ذلك يَجِب أنْ يكونَ أهمَّ لهم، وأَوْلى بتقديمِه عِنْدهم، صَرفًا لهم عما حرَصوا عليه من فائدةِ الفِداء، بخِلاف الآيةِ التي في سُورةِ التوبةِ، حيثُ قال في إبطالِ ما أتى به المشرِكون من عِمارةِ المسجدِ الحرامِ، وسِقايةِ الحاجِّ من المقامِ على الكُفْر: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٨).

وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩]؛ فكان المندوبُ إليه في هذه الآيةِ بعدَ الإيمان باللهِ الجهادَ في سَبيلِ الله، فقال سبحانه بَعْده مادحًا لِمَن تلقَّى بالطاعةِ أَمْرَه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ [التوبة: ٢٠]، ثُمَّ ذَكَر ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾، فقُدِّمَ ذِكْرُ ما اقْتَضى المَوضِعُ تقديمَه، وجُعِلَ المالُ والنَّفْسُ أَهمَّ إليهم مِن غيرِهما، وخالَفَ هذا المكانُ قولَه في سُورةِ الأنفالِ، فقُدِّم فيه ما أُخِّر هناك لِذلك(١).

وقيل: لأنَّ سُورةَ الأنفالِ مقصودٌ فيها مع المِدْحةِ تعظيمُ الواقعِ منهم من الإيمانِ والهجرةِ، والجِهادِ بالأموالِ والأنفسِ، وتَغبيطُهم بما مَنَّ اللهُ عليهم به مِن ذلك، وتفخيمُ فِعْلِهم المُوجِبِ لموالاةِ بعضِهم بعضًا؛ فقُدِّم ذِكْرُ الأموالِ والأَنفُسِ؛ للتَّعريف بمَوقِعِ ذلك من النُّفوسِ، وأنهم بادَروا بها على حُبِّها، وشُحِّ الطِّباعِ بها، وليس تأخيرُ هذا المجرورِ كتقديمِه؛ لأنَّه إنَّما يُقدَّمُ حيثُ يُقصَدُ اعتناءٌ وتخصيصٌ وتنبيهٌ على مَوقِعِه؛ فإنَّما قُدِّمَ هذا تغبيطًا لهم، وإعظامًا لفِعلهم، أمَّا آيةُ سُورةِ التوبةِ فتعريفٌ بأمرٍ قدْ وقَع، مبنيٌّ على التعريفِ بالمُفاضَلةِ بين سِقايةِ الحاجِّ وعِمارةِ المسجدِ الحرامِ، وبَين مَن آمَن وهاجَرَ، وجاهَدَ في سبيلِ الله بمالِه ونَفْسه؛ بقَصْد رَدِّ مَن ظنَّ أنَّ السِّقايةَ وعِمارةَ المسجدِ الحرامِ أفضلُ، وعَرَف أنَّ الإيمانَ وما ذُكِر معه أعظمُ درجةً عند اللهِ؛ فلم يَعرِضْ هنا داعٍ إلى تَقديمِ ما قُدِّم في الأُخرَى، فتَمخَّضت فضيلةُ ذلك المجرورِ هنا فأُخِّر، والقَصْد تَخصيصُ كنايةِ الإخلاصِ، والتَّخصيصُ مقصودٌ في آيةِ الأنفال، ولم يُقصَد ذلك في آيةِ التوبةِ، ولا وقَع المجرورُ فيها خبرًا؛ فوَجَب بمقتضى اللِّسانِ أنْ يُقدَّم في آيةِ الأنفال قولُه: ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ ويُؤخَّرَ في سورة التوبةِ،

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل)) للإسكافي (٢/ ٦٩٦- ٦٩٨).

وقدْ وقَع في كلِّ واحدةٍ من الآيتينِ في كلٍّ مِن السُّورتين ما استدعَى اتصالَ ما بَعْده به، فنَاسَبَ ما ذُكِر، ولم يُناسِب العَكْس؛ وظَهَر وجهُ تَخصيصِ ما وَقَع في كلٍّ من السُّورتَين بموضعِه⁽¹⁾.

وقيل: لأنَّ ما هنا في الأنفال تَقدَّمه ذِكرُ المالِ والفِدَاءِ وَالغنيمَةِ، في قولِه تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾، وقولِه: ﴿لَوْلَا كتابٌ من اللهِ سَبَقَ لمَسَّكُمْ فيمَا أخذتُم﴾، أي: من الفِداء، وقولِه: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ فقَدَّم ذِكرَ المَال، وما في سورة التوبةِ تَقدَّمه ذِكرُ الْجِهَاد، وهو قولُه: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ [التوبة: ١٦]، وقولُه: ﴿كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩]؛ فَقدَّم ذِكرَ الجِهادِ في هذه الآيِ في هذه السُّورَة ثَلاثَ مَرَّات، فأوْرَد في الأُولى: ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وحَذَف من الثَّانيَة ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾؛ اكْتِفاءً بما في الأُولى، وحذَف مِن الثَّالِثة ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾، وزادَ حذْفَ ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ اكْتِفاءً بما فِي الآيَتَيْنِ قبلَها؛ فناسبَ ذلك تَقديمَ ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ هنا في الأنفالِ، وتَقديمَ ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هناك في التَّوبةِ⁽²⁾.

- قولُه: ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ فيه مجيءُ اسمِ الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾؛ لإفادةِ الاهْتِمامِ بتَمييزِهم للإخبارِ عنهم، وللتَّعريضِ بالتَّعظيمِ لشأنِهم؛ ولذلك لم يُؤتَ بمِثْله في الإخبارِ عن أحوالِ الفِرَقِ الأُخْرى⁽³⁾.

- قولُه: ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ خُصَّ الاسْتِنصارُ بالدِّينِ؛ لأنَّ الاستِنصارَ

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٣٢ - ١٣٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٣٢٣-٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٨٥).

بالحَمِيَّةِ والعَصبيَّةِ في غيرِ الدِّين منهيٌّ عنه(١).

- وفي قولِه: ﴿فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ قُدِّم الخَبرُ ﴿فَعَلَيْكُمُ﴾؛ للاهتِمامِ به(٢).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ جملةٌ مُعترِضةٌ بينَ قولِه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، وقولِه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا﴾، والواوُ اعتراضيَّةٌ؛ للتَّنويهِ بالمهاجِرينَ والأنصارِ، وبيانِ جَزائِهم وثَوابِهم، بعدَ بَيانِ أحكامِ ولايةِ بعضِهم لبعضٍ(٣).

- قولُه: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ جِيءَ باسمِ الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾؛ لإفادةِ الاهْتِمامِ بتَمييزِهم للإخبارِ عنهم، وللتَّعريضِ بالتَّعظيمِ لشأنِهم(٤).

- وصِيغةُ ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ صِيغةُ قَصْرٍ، وأفادتْ قَصْرَ الإيمانِ عليهم دونَ غيرِهم ممَّن لم يُهاجِروا، والقَصْرُ هنا مُقيَّدٌ بالحالِ في قولِه: ﴿حَقًّا﴾، والمعنى: أنَّهم مُحقِّقون لإيمانِهم بأنْ عضَّدوه بالهِجرةِ من دارِ الكُفْرِ، وليس الحقُّ هنا بمعنى المقابِلِ للباطلِ، حتَّى يكونَ إيمانُ غيرِهم ممَّن لم يُهاجِروا باطلًا؛ لأنَّ قرينةَ قولِه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾ مانعةٌ من ذلك؛ إذ قدْ أثْبتَ لهم الإيمانَ، ونفَى عنهم اسْتِحقاقَ وَلايةِ المؤمنين(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٨٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٨٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وقَولُه: ﴿حَقًّا﴾ يفيدُ المبالغةَ في وَصفِهم بِكَونِهم مُحِقِّينَ، مُحَقِّقينَ في طريقِ الدِّينِ(١).

- وتنكيرُ لَفظِ المَغفرةِ في قولِه: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ يدُلُّ على الكمالِ، والمعنى: لهم مغفرةٌ تامَّةٌ كاملةٌ عن جميعِ الذُّنوبِ والتَّبِعاتِ(٢).

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تَذييلٌ مُؤذِنٌ بالتعليلِ؛ لتقريرِ أولويَّة ذوي الأرحامِ بَعضِهم ببعضٍ فيما فيه اعتدادٌ بالوَلايةِ(٣).

- وخَتْمُ هذِه السُّورةِ بقولِه: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ في غايةِ البَراعَةِ والحُسْنِ؛ إذ قد تَضمَّنتْ أحكامًا كثيرةً في مهمَّاتِ الدِّينِ وقِوامِه، وتفصيلًا لأحوالٍ؛ فصِفةُ العِلْمِ تَجمَعُ ذلك كلَّه، وتُحيط بمبادئه وغاياتِه(٤).

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ السابعُ
ويليه المجلدُ الثامنُ، وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ التوبةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٥/ ٥١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٦٠).

الفهرس

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

9 786038 154403